بسم الله الرحمن الرحيم

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْباب

سورة ص، الآية ٢٩

إهداء:

إلى روح الحاجّ حسن العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

سادتنا الأساتذة والباحثين و الهواة الأكارم

تحية إجلال و إكرام، و بعد؛

تفضّلوا علينا بإبداء ملاحظاتكم و آرائكم

حول هذا الكتاب، عبر البريد الإلكترونيّ التالي:

p.mftqs@chmail.ir

أو الناسوخ (الفكس) ٠٥١٣٨٥٢٨٤٣٦ أو إرسال

رسائل نصّيّة إلى الرقم التالي: ٣٠٠٠٥٩١٥

قسم البحوث لمؤسّسة التدبّر في القرآن والسيرة

دروس في تدبّر القرآن

الجزء الثلاثون

سماحة الشيخ محمّدحسين إلهي‌زاده

تأليف: إلهيّ‌زاده، محمّدحسين

العنوان والمؤلّف: دروس في تدبّر القرآن؛ الجزء الثلاثون / الكاتب: محمّدحسين إلهيّ‌زاده/ دراسة و إعداد: عليّ توكّليّ‌زاده، صادق توكّليّ‌زاده، رضا محقّق‌عطايي و مريم مهدويّ/ تعريب: حميد عبّاس‌زاده

مواصفات النشر: مشهد- المؤسّسة الثقافيّة للتدبّر في القرآن والسيرة / ١٤٣٨ هـ=١٣٩٦

المواصفات الشكليّة: ٤٠٠ ص

ردمك: ٥-٢٠-٨٣٩٧-٦٠٠-٩٧٨

نظام الفهرسة: فيبا

الموضوع: القرآن- دراسة و معرفة

تصنيف مكتبة الكونغرس: ١٣٩٦ ٣ ٤٠٤٣ت٧الف/ ٩٤/ BP١٠٢

تصنيف ديوي: ١٨/ ٢٩٧

المكتبة الوطنيّة: ٤٧٠٨١٥٦

مؤسسه فرهنگی تدبر در قرآن و سیره

الكتاب: ....دروس في تدبّر القرآن؛ الجزء الثلاثون

تأليف: .... سماحة الشيخ محمّدحسين إلهيّ‌زاده

دراسة وإعداد: .... عليّ توكّليّ‌زاده، صادق توكّليّ‌زاده، رضا محقّق‌عطايـيّ، مريم مهدويّ

نقله إلى العربيّة: .... حميد عبّاس‌زاده (عضو الهيئة التدريسيّة في الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلاميّة)

تنضيد وإخراج: .... غلام‌رضا محمّدزاده

إعداد الرسم البياني..سيدةزينب هاشمي

الناشر: .... التدبُّر في القرآن والسيرة

الشؤون الفنيّة والطبع: .... مطبعة العتبة الرضويّة المقدّسة

رقم الطبعة:.. الأولى

سنة النشر: ١٤٣٨هـ

ردمك: ٥-٢٠-٨٣٩٧-٦٠٠-٩٧٨

عدد النسخ: ١٠٠٠

السعر:.. ٢٥٠٠٠٠ ريال

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

مشهد مقدّس، ميدان ده دي، جنب رازيّ ٨، هاتف: ٣٨٥٥٢٤٠٨ الفكس: ٣٨٥٢٨٤٣٦

الموقع: www.mftqs.com البريد الإلكترونيّ: tadabbor@chmail.ir

فهرس العناوين

مقدّمة...٧

التدبّر في سورة الناس.......................................٢٣

التدبّر في سورة الفلق.......................................٣١

التدبّر في سورة الإخلاص...................................٣٧

التدبّر في سورة المسد.......................................٤٣

التدبّر في سورة النصر......................................٤٩

التدبّر في سورة الكافرون..................................٥٥

التدبّر في سورة الكوثر.....................................٦٣

التدبّر في سورة الماعون...................................٦٩

التدبّر في سورة قريش......................................٧٧

التدبّر في سورة الفيل.......................................٨٣

التدبّر في سورة الهمزة.....................................٨٩

التدبّر في سورة العصر.....................................٩٥

التدبّر في سورة التكاثر...................................١٠١

التدبّر في سورة القارعة..١٠٩
التدبّر في سورة العاديات..١١٧
التدبّر في سورة الزلزال..١٢٥
التدبّر في سورة البيّنة..١٣١
التدبّر في سورة القدر..١٤١
التدبّر في سورة العلق..١٤٧
التدبّر في سورة التين..١٥٩
التدبّر في سورة الشرح..١٦٧
التدبّر في سورة الضحى..١٧٥
التدبّر في سورة الليل..١٨٣
التدبّر في سورة الشمس..١٩٣
التدبّر في سورة البلد..٢٠٥
التدبّر في سورة الفجر..٢١٧
التدبّر في سورة الغاشية..٢٣٧
التدبّر في سورة الأعلى..٢٥١
التدبّر في سورة الطارق..٢٦٥
التدبّر في سورة البروج..٢٧٥
التدبّر في سورة الانشقاق..٢٩١
التدبّر في سورة المطفّفين..٣٠٣
التدبّر في سورة الانفطار..٣٢١
التدبّر في سورة التكوير..٣٣٣
التدبّر في سورة عبس..٣٤٥
التدبّر في سورة النازعات..٣٦١
التدبّر في سورة النبأ..٣٨٣

مقدّمة

مع انتصار الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة المباركة العظمى بقيادة الإمام الخمينيّ قدس سره الذي وضع بحقٍّ عن الشعب الإيرانيّ الأغلال والآصار المفروضة عليه، كما فعل رسول الهدى والرحمة: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] وبعد أن قام في إيران النظام الوحيد الذي يرفع راية دين الله والذود عنه، فقد بادر أعداء دين الله إلى محاربة هذه الثورة المباركة بشتّى المؤامرات والحيل؛ وهم غافلون عن أنّ هذا النظام امتداد للشجرة النبويّة الطيّبة صلى الله عليه وآله والدوحة العلويّة عليه السلام التي أصلها ثابت في الأرض، وفرعها باسق في السماء، وتؤتي أُكلها كلّ حين بإذن الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2] كما أنّهم غافلون عن أنّ هذا النور الإلهيّ لا ينطفئ، وأنّ الله متمّ نوره رغم أنوف الكافرين: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾.[3]

---

١. سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

٢. سورة إبراهيم، الآيتان ٢٤ – ٢٥.

٣. سورة الصفّ، الآية ٨ .

بعد أن باء أعداء الدين الإلهيّ بالفشل الذريع في أرض المعركة الضروسة، ورجعوا بخفَّي حنين على الرغم من فرْض تلك الحرب (الحرب العراقيّة المفروضة على إيران) طوال ثماني سنوات، والتي أدّت إلى ازدياد هذه الثورة الإلهيّة عمقًا، وتعزيزًا، وامتدادًا، فقد لجأوا هذه المرّة إلى استهداف إيمان الناس عبر الغزو الثقافيّ وعلى أرض الحرب الناعمة من خلال جرح ذلك الإيمان وإنهاكه، لينالوا على حسب مزاعمهم، من دين الله والمتديّنين.

هذا، وتسعى مؤسّسة التدبّر في القرآن والسيرة، في ضوء الإشراف العلميّ لسماحة الأستاذ الشيخ محمّدحسين إلهيّ زاده، خرّيج حوزتَي خراسان وقم المباركتين، والأستاذ في الحوزويّ والجامعيّ، وأحد أبرز تلامذة سماحة آيةالله عبدالله جواديّ الآمُليّ في التفسير، وبتعاون ثلّةٍ من تلامذته، وانطلاقًا من إدراكهم للضرورات الآنفة الذكر، واستضاءةً بالأفكار النورانيّة للأستاذ: «المؤمنُ ينظرُ بنورِ اللهِ، ويسمع بسمعٍ آخرَ»[1] في سياق استمرار نهج الإمام الخمينيّ قدّس سرّه، في حماية الدين الإلهيّ، والامتثال لتوجيهات سماحة قائد الثورة المعظّم آيةالله الخامنئيّ- حفظه الله وأبقاه - تسعى المؤسّسة أن تتصدّى لهذا الغزو الثقافيّ والحرب الناعمة التي يشنّها العدوّ، لذلك صببنا كلّ جهودنا واهتماماتنا على تلبية حاجات الناس الدينيّة من خلال الاستنارة بالقرآن والسيرة، ليهتديَ الناس بفضل وديعتَي رسول الله ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ أَمْرَينِ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَهْلَ‌بَيتِي عِتْرَتِي»[2]، إذ إنّه في الأجواء التي استُهدِفَ إيمان الناس، ينبغي أوّلًا: أن نكوّنَ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٣٢٣.

٢. الكافي، ج ١، ص ٢٩٤؛ التوحيد، ص ٢٥٠.

هيكلًا للفكر الدينيّ، وبعد ذلك نكسوَ ذلك الهيكلَ الأخلاقَ والثقافة مثل اللحم، وفي النهاية تغطيته بجلد التواصل والعلاقات الاجتماعيّة. علمًا أنّ امتلاك الإيمان الفرديّ لا يكفي، وسيكون الإيمان مؤثّرًا وفاعلًا عندما يتّسم بطابع اجتماعيّ؛ إيمانٌ مستقرّ، و معقول رشيد، يثير الشوق والطموح.

ومن البركات العديدة التي شملت هذا الشعب وهذه الأرض في ظلّ قيام الجمهوريّة الإسلاميّة المباركة، إيلاء الجميع اهتمامًا خاصًّا بالقرآن، باعتباره البرنامج الشامل لهداية البشر في الدنيا والآخرة، الأمر الذي يمكن التعبير عنه بالنهضة القرآنيّة. مع تشكيل صفوف وجلسات لتعليم قراءة القرآن صحيحة ومجوّدة، سواء في المدارس والجامعات، أو في المساجد والمراكز العامّة فقد تحقّقت إحدى المراحل الأولى للأنس بالقرآن الكريم على نطاق واسع تدريجيًّا، وكانت هذه المرحلة قراءة القرآن وترتيله. بعد ذلك تمّ تعليم وتعلّم الصوت واللحن وقواعد القراءة القرآنيّة الحسنة وأحكامها، وحفظ الآيات والسُّوَر، والتعرّف على ترجمة آيات هذا الكتاب المقدّس ومفاهيمه، وذلك كلّه من المراحل الأولى للأنس بالقرآن.

واليوم، تزامنًا مع مرور أكثر من ثلاثين عامًا على انتصار الثورة الإسلاميّة والقيام بأنشطة جديرة بالتثمين في سياق الأنس بالقرآن، والتي تحدّثنا عن جانب منها، فإنّنا نواجه عددًا كبيرًا من متعلّمي القرآن خاصّةً في شريحة الدارسين، ممن تجاوزوا المراحل الأولى للأنس بالقرآن، وهم يطالبون اليوم أن يتعلّموا شيئًا أكثر يفوق القراءة، والتجويد، والصوت واللحن، وحتّى ترجمة القرآن ومفاهيمه، وأن يتطرّقوا قليلًا إلى فهم القرآن.

يمكن الجزم بأنّ هذه مسألة جادّة، وليست سؤالًا عاديًّا ويجب حلّها، لا الإجابة عليها.

قد يبدو أنّ حلّ هذه القضية يتمثّل في إحالة الراغبين والطالبين إلى قراءة التفاسير واستيعاب مراد الآيات القرآنيّة بالاستفادة من تلك التفاسير، كما اقتُرِحت عليهم تفاسير بالفعل. ولكنّ هذا الحلّ المقترَح والرائج لم ولن يكون قادرًا على الاستجابة لهذه الحاجة المستجدّة والمتزايدة، لأنّ التفسير عمل الخواصّ، وإنّما يمكن اقتراحه على المثقّفين والمتعلّمين، ولاسيّما على أكثرهم درايةً ومعرفةً بعلوم القرآن وعلم التفسير.

كذلك، فإنّ أقصى فائدةٍ مرجوّةٍ من مراجعة التفاسير هو التعرّف على بعض الآراء المتعدّدة والمختلفة حول آية أو آيات، وهذا يختلف عن فهم القرآن. كما يمكن أن تؤدّيَ هذه المراجعةُ أحيانًا إلى إبعاد الأشخاص عن مبتغاهم بدل تقريبهم. ولا يعني هذا القول رفْض التفسير و التفاسير؛ بل إنّ كونه صيغةً حلٍّ للقضية المذكورة هو محلّ نقاش.

الحلّ المقترَح

حوالي عام ٢٠١١م، عرض الأستاذ إلهيّ زاده على الأوساط العلميّة في البلاد، خاصّةً على الوسط القرآنيّ، مشروعًا باسم «التدبّر في القرآن» مستلهِمًا فيه التفسير القيّم تفسير الميزان للعلّامة آيةالله سيد محمّدحسين الطباطبائيّ رحمه الله. والكتاب الذي بين أيدينا هو أوّل جزءٍ من المشروع، حيث تمّ عرْضه على الخبراء في علوم الوحي الإلهيّ بعد تجربةٍ لا تقلّ عن تسع سنواتٍ من البحث والتدريس في مختلف المراكز الحوزويّة والجامعيّة وغيرها. إنّما كانت هذه الخلفيّة الطويلة من أجل ما تستدعيه طبيعة عمليّة الإنتاج المعرفيّ، إذ إنّ المشروع شهد منذ بدايته مسارًا تكامليًّا، وقد بلغ الآن غايته المنشودة القصوى عقب

اجتيازه العديد من المراحل المختلفة والتجارب البحثيّة والتعليميّة.

التدّبر، خطوة هامّة وضروريّة في الأنشطة القرآنيّة؛ فهو من جهةٍ مكمِّل لمهارات مثل القراءة، والتجويد، والتلاوة ويأتي بعدها، ومن جهة أخرى يمثّل مقدّمةً ومدخلًا للتفسير، لأنّ التدبّر يدور في فلك الألفاظ فحسب، والمتدبّر يتعرّف بأفضل طريقةٍ على ألفاظ الآيات والسور القرآنيّة وعباراتها ومعانيها ويأنس بها، وهذه أوّل وأهمّ خطوةٍ في التطرُّق إلى التفسير. إذًا التدبّر هو الحلقة المفقودة لجميع الأنشطة القرآنيّة.

وأخذ الأستاذ إلهيّ زاده أولى خطوات البحث في التدبّر وتدريسه ضمن صفوف التفسير للمستوى السابع حتّى العاشر في حوزة قم العلميّة، ومنذ ذلك الوقت عُقِدَتْ دورات عديدة في التدبّر، قام معظمها على مساعيه، كما كانت تقام أحيانًا بجهود تلامذته. فمن المراكز الناشطة في هذا المجال يجدر بالذكر: الحوزات العلميّة للنساء في البلاد، والرابطة القرآنيّة التابعة لممثّليّة القائد في جامعة طهران، وجامعة الإمام الصادق عليه السلام بطهران، وحوزة العلوم الإسلاميّة لطلّاب الجامعات في كلٍّ من طهران ومشهد، والحوزات العلميّة في محافظات خراسان الشماليّة والجنوبيّة والرضويّة، ودار القرآن التابعة للعتبة الرضويّة المقدّسة، ومدرسة النوّاب العلميّة العليا، والجامعة الرضويّة للعلوم الإسلاميّة، وجامعة فردوسيّ بمشهد، وجامعة المصطفى العالميّة ومختلف المراكز الحوزويّة والجامعيّة والقرآنيّة في كلٍّ من مشهد، وتبريز، وبُناب، وقزوين، ويزد، وطبس، وشيراز، و بوشهر، وبندرعبّاس. كذلك أُقِيمَت دورات في كلٍّ من أفغانستان، وسوريا، وعمان، وأستراليا، وأخيرًا في تركيا.

والجدير بالذكر أنّ الأستاذ إلهيّ زاده في عام ٢٠٠٣م قام باستعراض هذا المشروع ومناقشته في عدّة اجتماعات حضرها في اللجنة القرآنيّة التابعة للمجلس الثّقافيّ الأعلى، حيث استأثر المشروع باهتمام الأعضاء، وصُودِقَ عليه بوصفه مشروعًا بحثيًّا ليتمّ تدوين خمسة أجزاء لتلك اللجنة، أحدها جزء خاصّ بمبادئ التدبّر ومنهجه، وأربعة أجزاء كدليل لمعلّمي التدبّر في سور القرآن الكريم، وقد أُنجِزَ ذلك وتمّ تسليمه في الوقت المحدّد. كذلك في الدورة الرابعةعشرة للمعرض الدوليّ للقرآن الكريم في عام ٢٠٠٦م الموافق ١٤٢٧هـ، وهو العامّ المسمّى بعام الرسول الأعظم ﷺ، تمّ تقديم الأستاذ المعظّم باعتباره خادمًا للقرآن بفضل هذا المشروع القرآني (التدبّر في القرآن)، وقام وزير الإرشاد آنذاك بتكريمه. لذلك سُجِّل باسمه جميع حقوق هذا المشروع الماديّة والمعنويّة.

بعد أن هاجر الأستاذ المتدبّر عام ٢٠٠٥ من مدينة قم المقدّسة إلى مدينة مشهد، وبدأ في الإفاضة إثر إقامته بجوار العتبة الملائكيّة لثامن الحجج الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، ونظرًا للإقبال المتزايد على هذه الفكرة المباركة والصعوبات المضنية التي كانت تمارَس على الأستاذ شخصيًّا بشكل مباشر، توفّرت تدريجيًّا الأرضيّة لوضع الحجر الأساس لمؤسّسةٍ تتولّى جميع شؤون التدبّر دراسةً وبحثًا وتدريسًا، وتلبّي جميع الاحتياجات والمتطلّبات المستجدّة عبر تنظيم الأنشطة التي أُنجِزَت خلال هذه السنوات متفرّقةً، وبذلك تعزّزَ أمر التدبّر على مستوى البلاد تعزيزًا أفضل.بعد استشعار الضرورة هذه، وبمساعي بعض التلاميذ، وبدعم ماليّ من بعض الخيّرين المحبّين للقرآن ونشره، جزاهم الله خيرًا، أُخِذَت الخطوات الأولى الرامية إلى تشكيل المؤسّسة تزامنًا مع القيام بالأنشطة

التعليميّة والبحثيّة الواسعة في مجال التدبّر وتمّ توفير المستلزمات كالأجهزة والبرمجيّات والكوادر البحثيّة والتعليميّة، وبالتالي تمّ تسجيل المؤسّسة سنة ٢٠١١م في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ تحت عنوان «**المؤسّسة الثقافيّة للتدبّر فى القرآن و السيرة**»

كما جاء في عنوان المؤسّسة، فإنّها تتابع التدبّر في الثّقلين اللذين وصّى بهما الرسول الأكرم حيث سيتمّ تقديمهما في إطار الأعمال الأخرى للمؤسّسة تحت عناوين: التدبّر الترتيبيّ، والموضوعيّ للقرآن، والتدبّر الترتيبيّ والموضوعيّ للسيرة، ونظام العمل بالقرآن.

لمحة موجزة عن المشروع

إنّ الشرح الدقيق لأسس التدبّر الموضوعيّ ومبادئه ومنهجه يتطلّب دراسة مستقلّة؛ لكن يجدر بنا ونحن في مستهلّ هذا الجزء أن نقدّم لمحة موجزة عن أسس تدبّر القرآن ومبادئه، وماهيّته، وكيفيّته ونتائجه.

لماذا التدّبر؟

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[١]، ﴿أَفَلَا يتدّبرونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٢]، ﴿أَفَلَا يتدّبرونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[٤] هذه مضامين رسائل وخطابات اللوم التي قرأناها وسمعناها أثناء تلاوة الآيات القرآنيّة، ولربّما نكون قد أولينا معناها ومفهومها اهتمامًا أقلّ. ويفيد

---

١. سورة ص، الآية ٢٩.

٢. سورة النساء، الآية ٨٢.

٣. سورة محمّد ﷺ، الآية ٢٤.

٤. سورة المؤمنون، الآية ٦٨.

الاستفهام التوبيخَ في الآيات الثلاثة الأخيرة؛ الأمر الذي يوحي بأنّه كان على المخاطبين أنفسهم أن يقوموا بهذا العمل، وقد وُجِّه إليهم التوبيخ في هذه الآيات الثلاث جرّاء ترْكهم لهذا الواجب العامّ، لذلك فإنّ تعابير العتاب واللوم أقوى بكثير من أفعال الأمر.

من جهة أخرى نشاهد أنّ قراءة القرآن أعمّ الأنشطة القرآنيّة وأكثرها انتشارًا في سياق الأنس بالكلام الإلهيّ، إذ إنّ كلّ مسلمٍ يعُدّ ذلك أوّل وأهمّ واجبٍ إيمانيٍّ، كما أنّ دعوة القرآن تتركّز على ذلك، أي أنِ اقرأوا ما تيسّر لكم من القرآن: ﴿فَاقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾.[1] وإنّنا ندرج قراءة القرآن في أعمالنا اليوميّة امتثالًا لهذا الأمر الإلهيّ؛ لكن علينا أن نعلم أنّ هذا الواجب لا يتحقّق بمجرّد قراءة آيات القرآن وتحريك اللسان بألفاظه دون الاهتمام بمعانيها، ولا يمكن إطلاق «القراءة» على مثل هذا العمل، لأنّ القراءة تتحقّق عندما يعلم المرء معنى الكلمات وإلّا لكانت قراءته مجرّد «تلفُّظ» أو «نطْق».والدليل على هذا الكلام هو رواية عن أميرالمؤمنين عليه السلام تفيد بأنّه لا خيرَ في قراءة لا تدبُّرَ فيها: «أَلَا لَا خَيرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيسَ فِيهَا تدبُّرٌ».[2] وفقًا لكلام الإمام عليّ عليه السلام، فإنّ القراءة المنشودة يجب أن تكون مصحوبةً بالتدبّر (قراءة متدبّرة)، وبناءًا على كلام الإمام عليه السلام فإنّ القراءة نوعان: قراءة بلا خير وبركة، وقراءة بخير وبركة، ففي الحالة الأولى تعني القراءة معرفة معاني الكلمات والألفاظ، وهي الحدّ الأدنى لمسمّى القراءة، والحالة الثانية هي التي تسمَّى **القراءة المتدبّرة**.

١. سورة المزّمّل، الآية ٢٠.

٢. الكافي، ج ١، ص ٣٦.

إضافة إلى آيات القرآن، تؤكّد الروايات أيضًا التدبّر في القرآن، وتطالب به:

فكان من وصايا الرسول ﷺ إلى معاذ بن جبل، التدبّر في القرآن: ﴿وأوصى رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم معاذَ بن جبلٍ، فقال له: أُوصِيكَ باتِّقاءِ اللهِ، و... تدبُّرِ القرآنِ﴾.[1]

وفي قضية الغدير وتعيين عليّ عليه السلام بصفته إمامًا للناس، وفي خطبة الغدير الشهيرة وقبل العبارة المعروفة: ﴿مَن كنتُ مولاه، فهذا عليٌّ مولاه﴾ التي شهدها الجميع، قد أمر الرسول الأكرم ﷺ، عامّة الناس بالتدبّر في القرآن الكريم: ﴿مَعاشِرَ النّاسِ! تَدَبَّرُوا القُرآنَ﴾.[2]

وفي الخطبة الفدكيّة قالت السيّدة الزهراء سلام الله عليها، في قضيّة الدفاع عن إمامة أميرالمؤمنين عليه السلام كلامًا شبيهًا بالآية المذكورة في سورة محمّد ﷺ: ﴿أفلا يتدبّرونَ القرآنَ أم علي قلوبٍ أقفالُها﴾[3] وهذا يُظهِر تناغم القرآن والعترة في الدعوة إلى التدبّر.

كذلك كانت سيرة الإمام الصادق عليه السلام أيضًا، فكلّما أراد أن يقرأ القرآن، أخذ المصحف بيده اليمنى قبل أن يفتحه، وكان يدعو: ﴿عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه كان من دعائه إذا أخذ مصحفَ القرآن والجامعَ قبل أن يقرأ القرآنَ و قبل أن ينشُرَه يقولُ حين يأخذه بيمينه بسم الله ... اللهُمَّ ... لا تجعلْ قرائتي قراءةً لا تدبُّرَ فيها؛ بلِ اجْعَلْني أتدبّر آياتِه﴾.[4]

ماهيّة التدبّر

لا يصحّ التصوّر القائل بأنّ «التدبّر في القرآن» هو نفس التفكّر والتعقّل في الآيات، لأنّه

---

١. إرشاد القلوب، ج ١، ص ٧٣.

٢. الاحتجاج، ج ١، ص ٦٠؛ الإقبال، ص ٤٥٦.

٣. الاحتجاج، ج ١، ص ١٠٤؛ المناقب، ج ٢، ص ٢٠٦.

٤. الإقبال، ص ١١٠؛ الاختصاص، ص ١٤١.

في هذه الحالة كانت نفس هذه الأفعال تُستخدَم في الآيات السالفة الذكر، فمثلًا كان يقول: «أفلا تَتَفكَّرون في القرآن» أو «أفلا تَعقِلونَ القرآن» وأمثالها، كما أنّ مثل هذه التعابير في القرآن قد جاءت فيما يتعلّق بأمور أخرى؛ مثل التفكير في عدم تساوي الأعمى والبصير: ﴿ قل هَلْ يسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرونَ ﴾[1] والتعقّل في قدرة الإحياء والإماتة واختلاف الليل والنهار: ﴿ وهُوَالَّذي يحْيي وَيميتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾[2].[3]

التدبّر نشاط من أجل مزيد الأنس بظاهر المفردات والتعابير الواردة في آيات القرآن الكريم، ويؤدّي إلى فهم المواضيع المطروحة في السورة فهمًا أفضل، وتلقّي ما فيها من رسالة هادية. يتحقّق هذا الأمر الخطير بفضل النظرة التجميعيّة في الآيات، إذ يتأمّل فيها المتدبّر بالقراءة المتكرّرة المتدبّرة في طريقة اتّصال الآيات المتجاورة بالوحي الإلهيّ وكيفيّة انفصال بعضها عن البعض الآخر، ويستكشف تصنيف الآيات في سورة واحدة مثلًا، ومن ثمّ يستجلي ويستطلع المنحى الإرشاديّ أو التوجيهيّ للآيات والسورة، ويتّخذ كلَّ ذلك أداةً لفهم نصّ السورة فهمًا أفضل. لذلك فإنّ التدبّر في القرآن يعني تفهُّم نصّ القرآن؛ أي فهم ما يريد القرآن إفهامه.

وعليه، فإنّ القراءة المتدبّرة تعني أنّ الإنسان عندما يقرأ آيات القرآن كما يعرف معانيها، كذلك يعتبر الآياتِ مجموعةً منظّمة ومنسجمة ذات منحًى توجيهيٍّ محدَّد،

١. سورة الأنعام، الآية ٥٠.

٢. سورة المؤمنون، الآية ٨٠.

٣. ليس موضوعُ التفكّر والتعقّل القرآنَ وآياته، في أيٍّ من استخدامات التفكّر والتعقّل في القرآن.

ويراها متّسمةً بهذه السمات، ويعرف كيف يفهّم القرآنُ مخاطبيه وجمهوره غرضَه ورسالته الهادية تفهيمًا كاملًا، بما لألفاظه من فصاحة، ولمعانيه من بلاغة.

أسس التدبّر

إنّ عموميّة الخطاب في الآيات والروايات السابقة الذكر توحي بعموميّة التدبّر، وتستلزم هذه الدعوة العامّة أن يكون النصّ القرآنيّ مفهومًا للجميع؛ أي لو اعتبرنا النصّ القرآنيّ غير مفهوم، أو مفهومًا للخواصّ دون غيرهم، لَـما كان هناك تدبّرٌ في القرآن. وأفضل دليل على إمكانيّة فهم القرآن، وعموميّة التدبّر، ووجوب التدبّر في القرآن هو الآيات و الروايات نفسها، إذ لو كان نصّ القرآن عصيًّا على الفهم لَـما صدر قوله تعالى: ﴿أفلا تتدبّرونَ القرآنَ﴾ أو قوله عزّ من قائل: ﴿أفلا يتدبّرونَ القرآنَ﴾ ولو لم يكن التدبّر ممكنًا متيسّرًا للعموم لَـما كان لعبارة «معاشرَ الناسِ!» أيّ معنًى، ولو لم يكن التدبّر واجبًا وفرضًا، فلماذا هذا الخطاب والعتاب: ﴿أَفَلا يتدبّرونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾؟ فعلى هذا الأساس نستنتج أوّلًا: أنّ نصّ القرآن قابل للفهم، والثاني: أنّ هذه الإمكانيّة للعموم، والثالث: أنّه ليس مفهومًا لدى الجميع فحسب، بل يُعتبَر التدبّر واجبًا مكتوبًا عليهم.

والخطوة التالية هي أن نصدّق أنّ القرآن ناطق؛ لأنّ لغته هي العربيّة المبينة الواضحة: ﴿ وَهذا لِسانٌ عَرَبِي مُبينٌ ﴾[1] ورسالته (القرآن) بليغة؛ لأنّه سُمِّيَ «بلاغ»: ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾[2] وأخيرًا أنّ ترتيب الآيات في السور إلهيّ ووحيانيّ (توقيفيّ)؛ لأنّ الله سبحانه قد

١. سورة النحل، الآية ١٠٣.

٢. سورة إبراهيم، الآية ٥٢.

تولّى جمْعه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[١] وأنّه محفوظ من كلّ أذًى على مرّ القرون والعصور: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.[٢]

منهج التدّبر

للتدبّر في السورة الواحدة ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى، دراسة لغويّة.

والخطوة الثانية، فهْم بناء السورة من أجل استكشاف بناء الآيات. في هذه الخطوة يؤخَذ بنظر الاعتبار التأليف الأدبيّ بين الآيات مثل: حروف العطف، والضمائر، وأسماء الإشارة، و الاشتراك اللفظيّ أو الأسلوبيّ المتواصل، والتباين اللفظيّ.

والخطوة الثالثة هي فهم المنحى الإرشاديّ للسورة، وهو جهة هداية كلام الله، ولها تأثير هادٍ. ومنهج استكشاف المنحى هو استخدام المشتركات على صعيد اللفظ والمضمون في السورة أوّلها و وسطها وخاتمتها، وأجواء الكلام.[٣]

وتجدر الإشارة إلى أنّ المرحلة الرئيسة والتدبّر الحقيقيّ وحقيقة التدبّر هي المرحلة الأخيرة، أي فهْم المنحى الإرشاديّ لنصّ القرآن؛ ومالم تتحقّق هذه المرحلة فسيظلّ التدبّر أبترَ، ولا يكتمل. وإنّ الحثّ على المراحل الأولى بوصفها تدبّرًا هو تناول فاكهة فجّة غيرناضجة ليس إلّا، ولا يجدي نفعًا في أكثر الحالات تفاؤلًا، وإلّا فسوف يضرّ. كذلك

---

١. سورة القيامة، الآية ١٧.

٢. سورة الحجر، الآية ٩.

٣. لمزيد التوضيح راجع كتاب «التدبّر في القرآن؛ أسس ومبادئ ومنهج» للكاتب المحترم.

ينبغي في كلّ مرحلة من هذه المراحل والخطوات، قراءة النصّ قراءةً متدبّرةً.

فوائد التدبّر

إنّ التدبّر من جهةٍ يأتي تكملةً لبقيّة الأنشطة القرآنيّة العامّة كالقراءة، والقراءة السلسة، والتجويد، والترتيل، والقراءة، والصوت واللحن، وشرح المفردات والمفاهيم والحفظ، وهو بمثابة سقف يجمع هذه الأنشطة فيجعلها هادفة ومؤثّرة، ومن جهة أخرى يأتي التدبّر مقدّمةً للولوج في مجال تفسير القرآن الكريم؛ أي إنّه من أجل تفسير آيات القرآن - بالطبع بعد توفير سائر المستلزمات والضرورات - يجب الأنس بظاهر ألفاظ الآيات ومعناها و مفهومها قبل كلّ شئ وأكثر من كلّ شئ، والأهمّ من هذا كلّه أنّه لا بدّ من دراسة الآية مع غيرها من الآيات المتّحدة في السياق، ويتمّ توفير هذين الأمرين الهامّين في التدبّر، كما رأينا سابقًا.

إضافةً إلى ذلك، فإنّه لا يُعتنَى بالهويّة الجماعيّة لآيات القرآن أبدًا في مجموعة الأنشطة القرآنيّة المذكورة التي تسبق التدبّر، أو أنّها أقلّ نصيبًا من ذلك، بحيث إنّ القرآن في أغلب هذه الأنشطة، كتاب ذو ٦٢٣٦ آيةً، كما لا يُعتنَى بالسور، ولا بترتيب الآيات داخلها، ولا بتجاور السور. وكذلك الحال في التفسير، فعلى الرغم من أنّ موضوع السياق – بمعنى مجموع آيات مشتركة الموضوع - في دائرة الضوء - وخاصّة في الجهود المشكورة للمفسّرين المتأخّرين - إلّا أنّ ذلك محلّ تأمّلٍ من جهات عدّة: إحداها أنّ عدسة الاهتمام في معظمها تتركّز على الآيات الواقعة في سياق واحد، وقلّما تُؤخَذ العلاقة القائمة بين السياقات في السورة الواحدة، بنظر الاعتبار. والأخرى أنّ هذه النظرة التجميعيّة إلى

الآيات المتّحدة في السياق تهدف إلى تفسيرها وفهم مستوياتها الدلاليّة؛ وليس التدبّر فيها وفهم ظاهر ألفاظها، بينما يجب فهْم ظاهر ألفاظ الآيات فهمًا نفسيًّا(مستقلًّا) وجمعيًّا، قبل الخوض في مستوياتها الدلاليّة. عندها يتمّ اجتياز الظاهر والخوض في الباطن، وهذا هو مهمّة التفسير وبراعة المفسّر. والثالثة أنّ بعض المفسّرين مثل العلّامة الطباطبائيّ رحمه الله، قد قاموا في الغالب بالتدبّر في الآيات إضافةً إلى تفسيرها؛ ولكنّ هذه العمليّة ليست ظاهرة وبارزة، بل التفسير يتضمّنها في طيّاته؛ بينما يجب أن يتمّ التدبّر في الآيات منفصلًا قبل تفسيرها، حتّى تتجلّى نجاعة التدبّر، بصفته عمليّةً في الأنس بآيات القرآن.

وتتّضح ممّا سبق، نقطتان أخريان: إحداها أنّ التدبّر في الآيات أوسع من معرفة معناها، والأخرى أنّه طالما نحن في صدد الفهم النفسيّ(المستقلّ) أو الجمعيّ لظاهر المفردات القرآنيّة، فيُطلَق على ذلك اسم التدبّر، وتأتي تسميته بالتفسير سهوًا أو تسامحًا في التعبير.

من الفوائد الجليلة الأخرى للتدبّر أنّ المتدبّر يدرك أنّ آيات كلّ سورةٍ نُظِّمت في محور المجاورة تنظيمًا حكيمًا وهادفًا، بحيث أنّ أدنى تصرُّفٍ فيها، أو حذف، أو إضافة واستبدال، سيخلّ بالمنحى الإرشاديّ الخاصّ بالسورة، كما سيخلّ بالنظم المنطقيّ لمواضيعها، وستزول الرسالة الهادية الواحدة لتلك الآيات للأبد؛ الأمر الذي كان سبب تسميتها بالسورة (الشئ الذي يحاط بسور).

لمحة موجزة عن الكتاب

إنّنا الآن في بداية العقد الرابع للثورة الإسلاميّة الإيرانيّة، عقد التقدّم والعدالة حيث تمرّ إيران الإسلاميّة بفضل الله والتوجيهات الحكيمة لسماحة قائد الثورة آيةالله الخامنئيّ –

دام ظلّه العالي – بفترة مزدهرة ومتألّقة على كافّة الأصعدة، وخاصّة على الصعيد العلميّ.

إنّنا نضع بين أيدي القرّاء الأعزّاء هذا العمل الذي هو ثمرة لجهود طائفة كبيرة من محبّي القرآن ومحبّي الأستاذ والمستفيدين من مجلسه الطافح بالخير والبركة، والذي يُعتبَر أوّل جهدٍ رسميٍّ ومعترَف به في مجال التدبّر الترتيبيّ في القرآن.

وهذا هو الجزء الأوّل من سلسلة كتب دراسيّة للتدبّر الترتيبيّ في القرآن الكريم يتناول سور الجزء الثلاثين من القرآن. وجمهور هذا الكتاب هم ذوو القلوب العامرة بحبّ القرآن. وبإذن الله سيستمرّ العمل على هذا المنوال حتّى بداية القرآن. إلى جانب كتب التدبّر، فقد دُوِّنَ كتاب التدبّر في القرآن الكريم؛ أسس ومبادئ، خصّيصًا بمدرّسي التدبّر في القرآن.

وفي الختام لا بدّ لنا من التقدّم بجزيل الشكر لكلّ من ساهم في بروز هذا الكتاب إلى النور منذ بداية هذا العمل؛ أوّلًا وقبل كلّ شئ يجب أن نشكر المرحوم حجّةالإسلام أمين عظيميّ الذي كان من السابقين في هذا المشروع، وحقًّا كانت له الحصّة الكبرى في البحث وتدريس التدبّر، وانتقل إلى الدار الباقية بمشيئة الله.كذلك ينبغي أن نقدّم الشكر لحجج الإسلام والسادة عليّ صبوحيّ، وعليّ شيخ زاده، وحسين عليّ عوديّ، وعليّ صادقيّ، ومرتضى نوروزيّ.

وآخر الكلام كأوّله حمد الله الذي منه كلّ شئ.

المؤسّسة الثقافيّة للتدبّر في القرآن والسيرة / مشهد المقدّسة

١٥ شعبان ١٤٣٨هـ الموافق لـ ١٢ مايو ٢٠١٧م

ذكرى ولادة الإمام المهديّ

التدبّر في سورة الناس

التعريف بالسورة

سورة الناس هي السورة الرابعةعشرة بعد المائة، والأخيرة في القرآن، وتلي سورة الفلق. وهذه السورة تُسمَّى بـ «إحدى المعوّذتين» أيضًا[1]؛ لأنّ هذه السورة وسورة الفلق تسمَّيان معًا بـ «المعوّذتين»، ولهذا تسمَّى كلّ واحدة من هاتين السورتين «المعوّذة».

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الناس في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴿٤﴾
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

تتألّف هذه السورة من جزء واحد (سياق) بستّ آيات

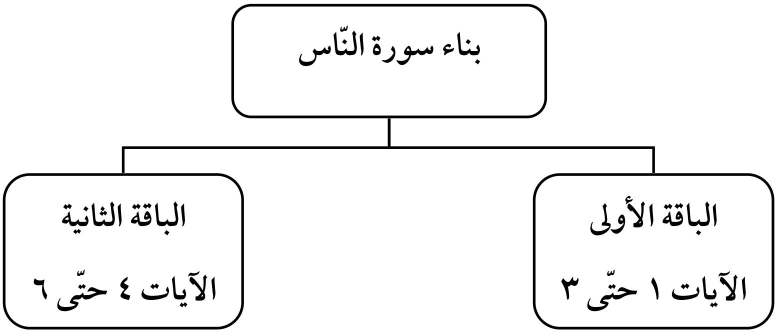

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٨٦٧

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أعُوذُ: «عَوذ» أحتمي به، ألتجئ إليه، وأعتصم به.

خَنّاس: «خَنَس»: المتواري. الوجه في وصف الشيطان بـ ﴿الخَنَّاس﴾ أنّه يوسوس للإنسان دومًا. فإذا ذكر الإنسانُ اللهَ تراجع الشيطان وتوارى، وإذا غفل عن ذكر الله تقدّم و وسوس.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تتألّف هذه السورة من جزء واحد (سياق)[1] بستّ آيات، ومن فعل واحد وباقتين[2] متعلّقتين به:

الباقة الأولى هي الآيات من الأولى حتّى الثالثة، وهي مجرورة بحرف "الباء"؛ والباقة الثانية هي الآيات من الرابعة حتّى السادسة، وهي مجرورة بحرف"مِن"، والآية السادسة شرح لـ ﴿الّذِي﴾ في الآية الخامسة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

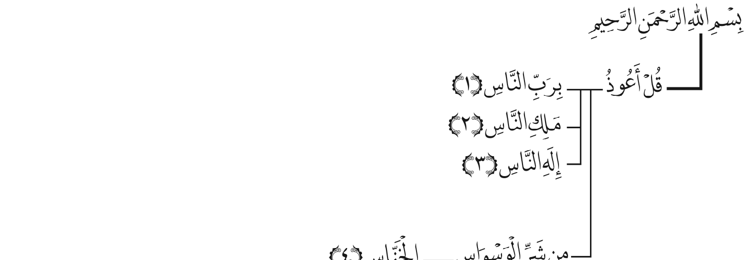

١. المقصود من الجزء (السياق) هو الآية أو الآيات التي ترتبط مع بعضها ارتباطًا لفظيًّا وموضوعيًّا، وتنفصل عمّا قبلها وبعدها.

٢. الجارّ ومجرور في اللغة العربيّة، يتعلّقان بفعل أو شبه فعل، ويُطلَق عليهما «المتعلَّق».

نظرًا إلى بناء آيات السورة، فيتمّ فهم المنحى الإرشاديّ أو التوجيهيّ[١] للآيات كالتالي:

مع انطلاق النشاط الثقافيّ والحضاريّ للرسولﷺ عزمت شياطين الجنّ والإنس على أن تتسلّل إلى أفئدة الناس وأرواحهم بالوسوسة، لتصرفهم عن تلبية دعوة الرسول الأكرمﷺ، ومن جهة أخرى أدّت معرفة الناس الناقصة بخالق الكون إلى أن يستعيذوا بمخلوقات من الجنّ والإنس أو بأشياء جامدة، بدل الاستعاذة بالله والالتجاء إليه.

لذلك نزلت السورة لتعلن ضرورة استعاذة الناس بالله الذي هو الربّ والملك والإله، من شرّ وسوسة الجنّ والإنس.

إنّ بدء السورة بالفعل الطلبيّ ﴿ قُلْ ﴾ يُظهِر أنّ إبلاغ هذه السورة للناس يجب أن يكون بأكثر من القول، لأنّ الرسول الأكرمﷺ كان يُبلِغ للناس جميع السور والآيات الموحى له، سواء كانت تبدأ بالطلب ﴿ قُلْ ﴾ أو لم تبدأ به، لذلك فإنّ مجئ هذا الطلب في بداية بعض الآيات يعني «أيّها الرسول! لا تقلْ ولا تبلغِ الآيةَ فحسب؛ بل وضِّحْها واشرحها» ويمكن توضيح الآية بتوجيه الناس إلى الله، والعبادة، والدعاء والتوسّل. علمًا أنّ معظم الآيات التي تبيّن قضايا عقائديّة، تبدأ بالطلب ﴿ قُلْ ﴾.

هذه السورة من السور ذات الجملة الواحدة، حيث تتكوّن من الفعل الطلبيّ ﴿ قُلْ ﴾ ومقول القول[٢]؛ فتبدأ من ﴿أعوذُ﴾ وتستمرّ حتّى آخر السورة. تشكّل متعلِّقات الفعل

---

١. المقصود من «المنحى»، هو الاتجاه الإرشاديّ للسورة، لأنّ كلّ سورةٍ بمثابة حزمة توجيهيّة، وإنّها في صدد نقل رسالة توجيهيّة تصبّ جميع آيات السورة في سياقها.

٢. الجملة التي تأتي بعد الفعل «قال» ومشتقّاته، تُسمَّى «مقول القول».

﴿أعوذُ﴾ مجموعتين:

١. بمن نستعيذ؟ (الآيات ٣-١)

المجموعة الأولى تخبرنا أنّ الجميع يجب أن يستعيذوا بالله الذي هو ربّ الإنسان ومَلِكه، وإلهه.

و﴿رَبّ﴾، مدير كفيل يشرف مباشرةً ودائمًا وفي كلّ موقف، على عبده ويراقبه، وإضافته (ربّ) إلى ﴿النّاسِ﴾ تقضي على التصوّر الخاطئ بأنّهم كانوا يعتبرون الله «ربّ السماوات» أو «ربّ الأرض» فقط، كما تفيد هذه الإضافة بأنّ الله هو ربّ جميع الناس: ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ وترى أنّ ربوبيّة المجتمع مقصورة على الله دون غيره، إضافةً إلى ربوبيّة السماء والأرض.

بعد ذلك يصف الله بـ ﴿مَلِكِ النّاسِ ﴾ حيث يتركّز الانتباه على قدرة الله أكثر؛ لأنّ «الـمَـلِك» يتصرّف في جماهير الناس بالأمر والنهي.

والآية التالية فوق ذلك؛ إذ تعلن أنّ الذي يجب الاستعاذة به، معبود يتوجّه الجميع إليه: ﴿إِلَهِ النّاس ﴾.

نستنتج أنّ الأوصاف الثلاثة المذكورة لله، تقع في طول بعضها، ولكلّ واحدة منها مستوى أعلى مما قبلها. إنّ تجاور هذه الأوصاف الثلاثة دون أن يفصل بينها حرف عطف (الواو، والفاء، أو ثمّ) يوحي بأنّ هناك مصداقًا واحدًا، ويشير إلى التوحيد في الاستعاذة، وأنّه يجب الاستعاذة بثلاثة من أسماء الله؛ لأنّ الحديث يدور في فلك شرٍّ كبير وخطير. وإنّ

كون الفعل ﴿أعوذُ﴾ مضارعًا يدلّ على الاستمرار والمداومة في الاستعاذة[١]، كما أنّ وقوعه بعد الطلب ﴿قُل﴾ يؤكّد أنّ من الممكن تطبيقَه والقيام به، وليس مجرّد حبر على الورق.

٢. ممَّ يجب أن نستعيذ ؟(الآيات ٦-٤)

الباقة الثانية تبيّن أنّ هذه الاستعاذة من شرّ كلّ وسواس خنّاس من الجنّ والإنس يستهدف صدور الناس.

ويمكن أن يتستّر شرّ الوسواس الخنّاس تحت أنانيّة الإنسان: ﴿ مِن شَرِّ الوَسواسِ الخَنّاسِ﴾. تفيد «وسوس» وهي مادّة ﴿ الوَسواسِ﴾، التكرار مثل: «زَلزَلَ». و﴿الخَنّاسِ﴾ أيضًا هو الذي يوسوس باستمرار، حيث يظهر ويختفي، ويوسوس في صدور الناس وقلوبهم: ﴿الَّذِي يُوَسوِسُ فِى صُدورِ النّاسِ ﴾ ويؤدّي إلى إلقاء أفكار وأوهام باطلة وخطيرة في روْع الإنسان. هذا الوسواس متوارٍ خفيّ لدرجة أنّ الإنسان يظنّ أنّ هذه الأوهام هي أفكاره نفسه؛ لكن في الحقيقة هي من عمل الشيطان الذي يحلّ محلّ الإنسان ببراعة، ويُظهِر أنّه يتحدّث وفق مصالح الإنسان.

وكون الفعل ﴿يُوَسوِسُ ﴾ مضارعًا مثل ﴿ أعوذُ ﴾ يفيد استمرار العمل؛ الأمر الذي يعني أنّ الشيطان لا يكفّ عن الوسوسة أبدًا، وعلى العبد أن يستعيذ بالله دائمًا في كافّة الظروف أيضًا.

---

١. الاستعاذة حالة نفسيّة؛ تنشأ من جهةٍ عن الشعور بالحاجة إلى الاستجارة والالتجاء، ومن جهة أخري تنجم عن الثقة بالمستجار به.

وفي الآية الأخيرة تخبر بأنّ خطورات الوسواس الخنّاس من قبل كلتا الطائفتين الجِنَّة والناس، تهدّد المجتمع: ﴿مِنَ الجِنَّةِ و النّاس﴾ ورسول الله ﷺ باعتباره قائد المجتمع الإسلاميّ وبالتالي ليس للناس خيار سوى الاستعاذة بخالقهم كي يبقوا مأمونين من تلك الشرور الكامنة (خطورات الوسواس الخنّاس).

النتيجة

هذه السورة التي تتألّف من باقتين، تعلن في الباقة الأولى أنّه يجب على الجميع الاستعاذة بخالقٍ هو ربّ الناس ومَلِكهم وإلههم، وتبيّن في الباقة الثانية أنّ هذه الاستعاذة من شرّ كلّ وسواس خنّاس من الإنس كان أو الجنّ، والذي يستهدف صدور الناس دائمًا.

ونظرًا إلى أنّ بيت القصيد والفكرة الرئيسة يأتيان في مقول القول، وبما أنّ تكرار كلمة «الناس» خمس مرّات في هذا المقطع، يؤكّد الحقيقة القائلة بأنّ هذا الشرّ لا يسري إلى شخص واحد فحسب؛ بل إنّه خطير بحيث يمكن أن يطال المجتمع بأكمله، ويؤدّيَ إلى انحراف جميع الناس، نظرًا إلى ذلك كلّه، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**ضرورة الاستعاذة الدائمة بربّ الناس من أجل صيانة المجتمع من شرّ العدوّ الأجنبيّ**».

التدبّر في سورة الفلق

التعريف بالسورة

سورة الفلق هي السورة الثالثةعشرة بعد المائة في المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الإخلاص وقبل سورة الناس، وتُسمَّى «المعوّذة» أيضًا.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الفلق في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَ مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَ مِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَ مِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

تتألّف سورة الفلق بآياتها الخمسة من سياق واحد

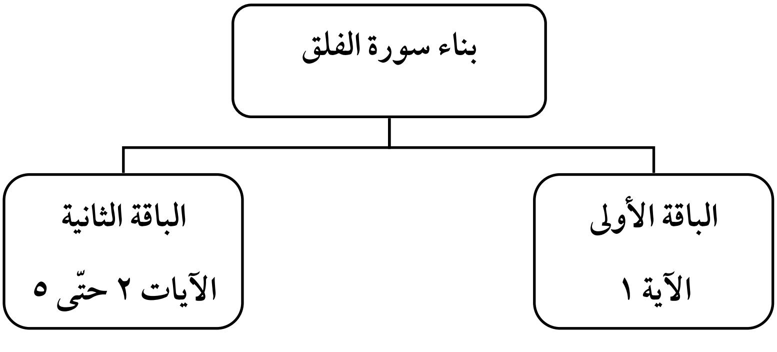

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الفَلَق: في الأصل شقّ شيءٍ، ويُطلَق على الفجر والصبح أيضًا؛ لأنّ ظلام الليل ينشقّ بطلوع الفجر.

غاَسِق: «غَسَق»: الظلام المنتشر، لذلك اعتبروا أنّ مصداق «غاسِق» في هذه الآية هو الليل عند انتصافه، إذ يسود الظلام مخيِّما.

وَقَبَ: هجم.

النَفَّاثَات: «نَفْث» المبالِغات في النفث، نساء سواحر يَنْفُثْنَ في العُقَد، ويخلقن مشاكل للناس.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تتألّف سورة الفلق بآياتها الخمسة من سياق واحد ينطوي على فعل وباقتين تابعتين له: الآية الأولى مجرورة بحرف "الباء"، والآيات من الثانية حتّى الخامسة مجرورة بحرف "مِن"، ومعطوفة على بعضها بحرف "واو" العاطفة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

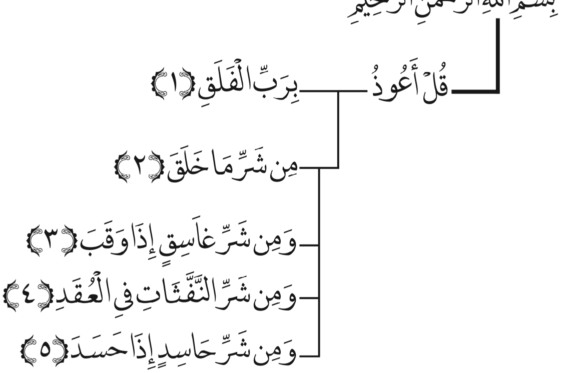

نظرًا إلى بناء آيات السورة، فيتمّ فهم المنحى الإرشاديّ للسورة كالتالي:

من جهة لم يمضِ وقت طويل على انطلاق دعوة الرسول الأكرمﷺ وكان المسلمون قلّة قليلة معظمهم من الطبقات الفقيرة والمستضعفة، ومن جهة أخرى بما أنّ المشركين وأعداء الإسلام الذين كانوا قد قبضوا على زمام الأمور بإمكاناتهم الماديّة ومكانتهم الاجتماعيّة؛ فلم يكونوا يوفّرون وسيلة لمجابهة الرسول الأكرمﷺ ومجابهة أتباعه، فقد أنزل الله تعالى سورة الفلق ليخلّص الناس من الشرور المحدقة بأولئك المستضعفين وقائد الأمّة.

وكما قلنا في سورة النّاس، فإنّ ابتداء السورة بالفعل الطلبيّ ﴿ قُلۡ ﴾ يدلّ على أنّ إبلاغ هذه السورة إلى الناس يجب أن يتعدّى مجرّد القول؛ مما يعني «أيّها الرسول! لا تقلْ ولا تبلغِ الآيةَ فحسب؛ بل وضِّحْها واشرحها»؛ أي تحمّلوا - قدر المستطاع - واصبروا على الشرور التي تريد أن تحول دون وصولكم إلى الله، وإلى الله سيروا بدل الإعراض عنه. والسورة من الفعل ﴿ أَعُوذُ ﴾ حتّى نهايتها تشكّل باقتين:

١. بمن يجب أن نستعيذ؟(الآية ١)

تعلن الآية أوّلًا أنّ الإنسان يجب أن يستعيذ بربّ الفلق: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾. بما أنّ لحظة الفجر هي اللحظة الأولى التي يشقّ فيها النور جيوب الظلام، ويطلع، فإنّها تريد إيصال هذه الرسالة وهي أنّه لا ينبغي لك اليأس والقنوط حتّى في أحلك لحظات الحياة، لأنّ الله الذي يجلّي حُلْكة الليل ويبدّدها هو الربّ الذي يجلّي الشرّ أيضًا. جاء الفعل ﴿أَعُوذُ﴾ بصيغة المضارع ليوحيَ بأنّ الاستعاذة والالتجاء مستمرّان، وإنّ وقوع الاستعاذة بعد الفعل الطلبيّ ﴿ قُلۡ ﴾ يؤكّد إمكانها ويُفهِمنا ألّا نيأسَ من النصر الإلهيّ أبدًا، وذلك

إذا تحلّينا طبعًا بالصبر والتجلّد قدر المستطاع.

٢. ممّ يجب الاستعاذة؟ (الآيات ٥-٢)

في هذه الباقة من الآيات يأمر الله تعالى الإنسان بالاستعاذة به من شرور أربعة؛ شرّان طبيعيّان هما: الكائنات وظلمة الليل، وشرّان بشريّان هما: النساء النفّاثات (اللواتي يضعن العقد، ويخلقن المشاكل في جميع الأمور)، والحسود.

إنّ الله قادر على دفْع الشرور الطبيعيّة للمخلوقات التي ليست شرًّا في حدّ ذاتها، ولكنّ مقتضاها الشرّ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ مثل الكهرباء التي هي خير في حدّ ذاتها، ولكن سيصعق الإنسان إذا لمسها؛ لذلك لا ينبغي أن نفهم من ﴿مَا خَلَقَ﴾ أنّ جميع المخلوقات شرّ، أو أنّ معها شرًّا، بل إنّ معناها يتحقّق بوجود مصداق واحد. كما ينبغي أن نعلم أنّ الشرّ أمر نسبيّ ولم يخلق الله مخلوقًا شرّه مطلق.[١]

كذلك فإنّ الله قادر على دفْع شرّ الليل عندما يسود ظلامه: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾. والسبب في كون الليل شرًّا يعود إلى أنّ من شأنه أن يكون تمهيدًا للشرّ، كما أنّ شرّ المجرمين يزداد في حلكة الليل. وجاء وصف الليل بـ «غاسق» لحلكته، ويشير إلى وقت حلوله وانتشاره، ويوحي بأنّ الشرّ الذي يقع في مثل هذه الظروف، شرّ يأتي خفيةً ولا يعرف الإنسان أمر هذا الشرّ إلّا إذا فعل فعْلته.

وبعد ذلك يذكّر أنّ ربّ الفلق ليس قادرًا على حماية الإنسان من الشرور الطبيعيّة فحسب، بل إنّه قادر على حمايته من الشرور البشريّة أيضًا؛ من شرّ النساء الساحرات اللواتي

١. راجع لمزيد الإيضاح: العدل الإلهيّ، الشهيد مطهّريّ، مجموعة الأعمال، ج ١، ص ١٤٥ فما بعدها.

ينفثن في العقد، ويعرقلن أمور الناس ويعقّدنها: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾؛ إنّهنّ يعملن على إثارة المشاكل والعراقيل أكثر من العمل على حلّها، ويزدن العقدة إحكامًا بدل حلّها؛ و[كذلك إنّ الربّ قادر على حماية الإنسان من] شرّ الحسود عندما يهيج حسده، ويحسد فيؤذي الآخرين: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ فالحسود يشقى من سيادة الآخرين وسؤددهم ومجدهم، لذلك يسعى لإيذاء الآخرين، وبالطبع فإنّ شرّه يحيق بنفسه أوّلًا.

نظرًا لوجود «ما» (الموصول العامّ) في ﴿ مَا خَلَقَ ﴾ وكون ﴿ غَاسِقٍ ﴾ و ﴿ حَاسِدٍ ﴾ نكرتين، إذ إنّها كلّها علامات الغموض، وكذلك الجمع السالم للمؤنّث ﴿ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ ﴾ الذي مرجعه غير معروف، لذلك يمكن القول بأنّه يجب الاستعاذة بالله من الشرور الطبيعيّة والنفسانيّة غير المعروفة. وجميع هذه الشرور تحيط بالعبد وتطوّقه، لكنّ العبد لن ييأس، مادام له ربّ يفلق الليل، ويجلّي الشر.

النتيجة

هذه السورة من السور ذات الجملة الواحدة، وتتألّف من الفعل الطلبيّ ﴿قُل﴾ ومقول القول. والسورة تفيد وجوب الاستعاذة بالله فالق الإصباح؛ وذلك بعد ذكر أربعة شرور هي: ١. المخلوقات؛ ٢. ظلمة الليل؛ ٣. النساء الساحرات؛ ٤. الحسود، فالشرّان الأوّلان طبيعيّان، والشرّان الآخران من الشرور البشريّة.

وفي ضوء ما مرّ ذكْره، ونظرًا للملاحظة الهامّة التي تفيد بأنّ بيت القصيد وصلب الموضوع يكمنان في مقول القول، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**ضرورة الاستعاذة الدائمة بربّ الفلق من الشرور الخارجيّة (الطبيعيّة والنفسانيّة)**».

التدبّر في سورة الإخلاص

التعريف بالسورة

سورة الإخلاص هي السورة الثانيةعشرة بعد المائة في القرآن الكريم، وتلي سورةَ المسد وتسبق سورة الفلق. وإنّها سُمِّيت أيضًا بـ سورة «التوحيد»، و«الصمد»، و«قل هو الله أحد»، و«نسبة الرَّب»، و«إحدى المُشَقشَقَتَين». وسُمِّيَت بـ «نسبة الربّ» لأنّه تمّ في هذه السورة تقديم التوحيد الربوبيّ بجميع مراتبه. والمشقشقة الأخرى هي سورة الكافرون، وتُسمَّى مع هذه السورة بـ «المشقشقتين»، والسبب في هذه التسمية يعود إلى أنّ هاتين السورتين ترسمان الحدود بين الشرك والتوحيد، وتفصلان أحدهما عن الآخر، كما أنّ « المشقشقة» من مادة «شقق» تعني القطع، والصدع والخرق وإحداث الشرخ.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الإخلاص في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَ لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أحد: الواحد الذي لا ثانيَ يُتصوَّر له.

الصمد: الغنيّ المطلق الذي يقضي جميع الحوائج.

كُفُواً: «كُفْء» المماثلة والمشابهة في الصفات والخصائص، ونفي وجود كفءٍ لله يعني أنّه لا شئ في صفاته وخصائصه يشبه ويماثل الله في شئ بشكل أو بآخر.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

للآيات الأربعة في هذه السورة سياق واحد فقط: الفعل الطلبيّ ﴿ قُل ﴾ ويبدأ مقوله من ﴿هُوَ﴾ ويستمرّ حتّى نهاية السورة؛ لأنّ الضمير ﴿ هُوَ﴾ مبتدأ (المسندإليه) و ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خبر له (المسند). و﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ هو الخبر الثاني لـ ﴿هُوَ﴾، و﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ وصفٌ لـ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وضميره المرفوع أيضًا يعود إلى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نفسه. ﴿لَمۡ يولَدۡ﴾ و﴿لَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ كلاهما أيضًا معطوف على ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

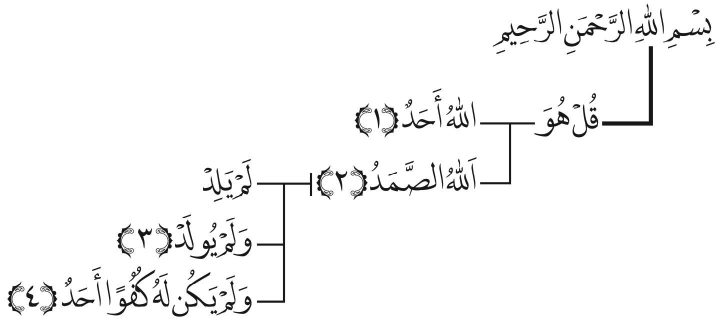

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

لقد نزلت هذه السورة في أجواء كانت جميع الأديان الإلهيّة فيها قد حُرِّفت، وطال الضلال والغيّ العديدَ من الأمم. كانت الوثنيّة بشتّى ألوانها، والقول بوجود الولد لله تعالى متفشّيَيْنِ تلك الأيام، وكان الناس لقضاء حوائجهم يتوسّلون بالكثير من الكائنات. في هذه الظروف أنزل الله تعالى سورة التوحيد ليؤكّد أنّ الله الواحد الصمد هو الغنيّ الوحيد القادر على قضاء حوائج الآخرين، وأنّها تحصر الصمديّةَ في الربّ بنفْي الصفات

الثلاثة المتمثّلة في الولادة والمولوديّة و وجود الندّ.

وكما قيل في سورتَي الناس والفلق، فإنّ ابتداء السورة بالفعل الطلبيّ ﴿قُلْ﴾ يُظهِر أنّ إبلاغ هذه السورة للناس يجب أن يتعدّى حدود القول، مما يعني «أيّها الرسول! لا تقلْ و لا تبلغِ الآيةَ فحسب؛ بل وضِّحْها واشرحها»؛ و﴿هُوَ﴾ اسم لذات الله تعالى وليس ضميرًا، لأنّ الضمير بحاجة إلى مرجع؛ لكن ليس لـ ﴿هُوَ﴾ مرجع، وأينما يُذكَرْ فمن الواضح أنّ المقصود هو الله. ويدلّ إفراده على التوحيد في الذّات أيضًا. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يبيّن التوحيد في الصفات، لأنّه أوّلًا: لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ اسم علم شامل لجميع صفات الكمال والجمال؛ أي إنّما اسم الله يُنسَب إليه جميع الصفات الإلهيّة؛ لكنّه لا يقع صفةً أو نعتًا لأيّ شيءٍ[1]، وثانيًا: إنّ قوله﴿أَحَدٌ﴾ مأخوذ عن مصدر «وحد» مثل واحدٍ، ويفترق في أنّ «الأحد» على عكس «الواحد» يُطلَق على شئ لا يقبل الكثرة لا في الذهن ولا في الواقع، لذلك لا يقبل العدّ، ولا ثاني له، ولا ثالث. وهذا يعني أنّ صفات الحقّ تعالى هي عين ذاته، ولا توجد ازدواجيّة بين ذات الحقّ تعالى وصفاته، وهذه الذّات الجامعة لكمال الصفات: ﴿ٱللَّهُ﴾، ﴿أَحَدٌ﴾.

بعد هذه المقدّمة التي تدلّ على أنّ الله أحد وواحد، تصف الآية ﴿ٱللَّهُ﴾ بأنّه وَحْدَه الغنيّ الذي يقضي حوائج الآخرين: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾. وإنّ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ وصف آخر لـ﴿ ٱللَّهُ﴾ ومجيئه مع «أل» يوحي بانحصار هذا الوصف في الله ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾. «الصمد» هو المولى الذي يتوجّه إليه الجميع لقضاء حوائجهم، بينما هو الغنيّ المطلق، لأنّ قضاء حوائج الآخرين يستلزم غنى

١. الميزان، ج ١، ص ١٨.

الشخص؛ على عكس كلمة «الغنيّ» التي تدلّ على الغنى ليس غير، إذن يمكن لشخص أن يكون «غنيًّا» دون أن يلبّيَ حاجات الآخرين (الصمد). بما أنّ قضاء الحاجات من صفات الفعل، فإنّ ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يفيد التوحيد في الأفعال.

ولمزيد التأكيد على التوحيد في الصمديّة لله، تذكر السورة ثلاث حالات نفي، لأنّ وجودها في الله يتعارض وانحصارَ الصمديّة فيه، وهذه العبارات الثلاث هي أنّه:١. ليس لله ولد ليكون ذلك الولد هو الصمد: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾. ٢. ليس له والدٌ أيضًا ليكون ذلك الأب هو الصمد: ﴿ولَمۡ يولَدۡ﴾. ٣. ليس له كفؤٌ ليكون ذلك الكفؤ هو الصمد:﴿ولَمۡ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدُ ﴾.

النتيجة

هذه السورة من السور ذات الجملة الواحدة، وتتألّف من فعل طلبيّ ﴿قُل﴾ ومقول القول، وفي البداية تستعرض المقدّمة القائلة بأنّ الله أحد وواحد، وتصف ﴿ٱللَّهُ ﴾ بأنّه الغنيّ الوحيد الذي يقضي حاجات الآخرين: ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾. ومضمون الآيات التالية يستكمل معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي ينفي عن الله الصفات الثلاثة المتمثّلة في الولادة والمولوديّة ووجود النّدّ؛ لأنّ وجودها في الله يتعارض وصمديّته. لذلك ونظرًا إلى وجود صلب الموضوع في مقول القول، وكون بيت القصيد في السورة حول صمديّة الله، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**التوحيد في صمديّة الله**».

التدبّر في سورة المسد

التعريف بالسورة

سورة المسد هي السورة الحادية‌عشرة بعد المائة في المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الإخلاص وقبل سورة النصر. وإنّها تسمَّى «أبولهب» و«تبّت».[١]

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة المسد في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَ مَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَ ٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

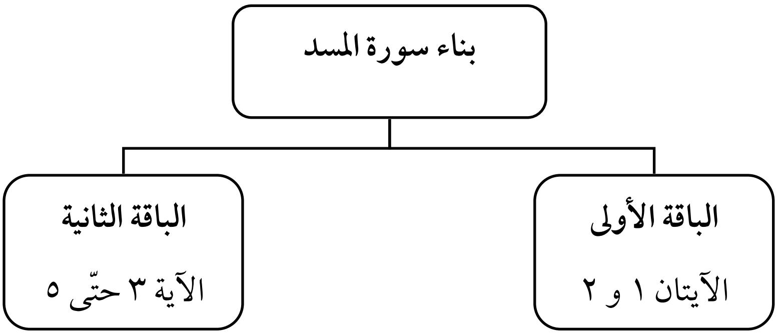

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٨٥٠.

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

تَبَّ: هلَك، قُطِع.

سيصْلى: «صَلْى» سيدخل النار عاجلًا قريبًا.

ذات لَهَب: لها شعلة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

إنّ آيات السورة الخمسة تشكّل سياقًا واحدًا، والضمير الظاهر «ـه» في الآيتين الثانية والرابعة، والضمير المستتر «هو» في ﴿ كَسَبَ ﴾ و ﴿ سَيَصلى ﴾ في الآيتين الثانية والثالثة يعود إلى ﴿أبى لَهَبٍ﴾ في الآية الأولى. أمّا الضمير «ها» في الآية الأخيرة فيعود إلى ﴿إمرَأتُهُ﴾ في الآية السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

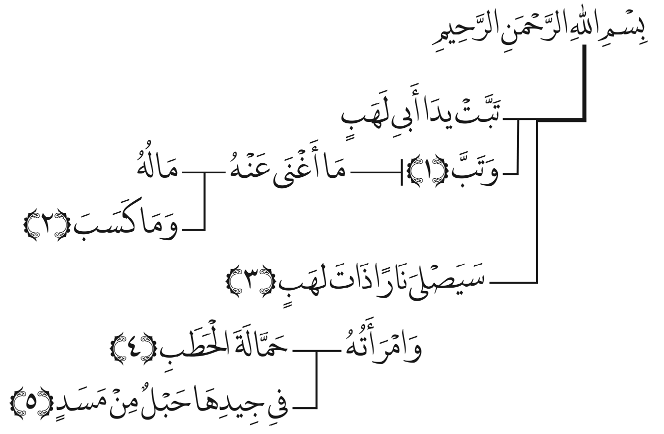

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للسورة يجري كالتالي:

إنّ أعداء الرسولﷺ مثل أبي لهب وامرأته قد أغلقوا طريق الإسلام بجميع ما كانوا يملكون من إمكانيّات ونفوذ وثروة، وبلغ إخلالهم ذروته. في مثل هذه الأجواء نزلت سورة المسد، واعتبرت أنّه لا جدوى من قوّتهم وثروتهم، وتوعّدتْهم بعذاب الدنيا والآخرة.

١. الإعلان عن فشل حمّالة الحطب عبدالمال والجاه، وعجْزه في الدنيا بفضل وجود الوحي في الساحة (الآيتان ١ و ٢)

تبدأ السورة بالحديث عن إظهار النهاية الدنيويّة لأبي لهب والإعلان عن فشل حمّالة الحطب عبدالمال والجاه وعجْزه في الدنيا بفضل وجود الوحي في الساحة، كما تخبرنا بنبأ خطير وهو: أنّ يدَيْ أبي لهب كلتيهما قد تعطّلتا وهلكتا: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾. لا يُراد بـ﴿ يَد ﴾ اليد الماديّة؛ بل إنّها أداة لممارسة السلطة. يوحي تكرار الفعل ﴿ تَبَّ ﴾ في نهاية الآية الأولى – الذي فاعله ضمير مستتر يعود إلى ﴿ أَبِي لَهَبٖ ﴾، على عكس ﴿تَبَّتۡ ﴾ والذي فاعله ﴿ يَدَآ ﴾ – بأنّ شخصيّة أبي لهب وفكره ووجوده قد تعطّل جميعها عن العمل، وأنّ جميع مؤامراته لإطفاء نور النبوّة باءت بالفشل الذريع.

والآية الثانية تفيد بأنّه كان يتمتّع بأداتين لفرض سلطته، هما: ثروته وجاهه وقوّته، لكنّهما لم تغنيا عنه شيئًا، ولم تحولا دون هلاكه: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾.

٢. الإعلان عن الهلاك الأخرويّ لأبي لهب حمّالة الحطب المعتدّ بثروته وقوّته، والمعارض للوحي (الآيات ٣-٥)

وبعد ذلك تتناول السورة عاقبة أبي لهب في الآخرة ذاك الحمّالة الحطب المعتدّ بثروته وقوّته والمعارض للوحي ودخوله النار ذات اللهب، فتصوّر لنا وجهته الأخيرة: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾؛ وقد استُخدِمَ تعبير ﴿ذَاتَ لَهَبٖ﴾ الذي يتناسب مع كنيته: ﴿أَبِي لَهَبٖ﴾.

نظرًا إلى أنّ زوجة أبي لهب كانت تُعتبَر من أهمّ داعميه في أعماله المناهضة للإسلام، فإنّها شريكة أبي لهب في التهديد بدخول نارٍ ذات لهب، ووُصِفَت بأنّها حمّالة الحطب: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾؛ لأنّ ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوفة على «هو»- الفاعل المستتر- في ﴿ سَيَصۡلَىٰ﴾. فهي التي كانت في الدنيا ترمي الأشواك في طريق الرسول ﷺ، وكانت ترافق زوجها بأفكارها السلبيّة الهدّامة ودعْمها له، إذًا هي في الآخرة من تحمل حطب نار زوجها، وهي شريكته في العقوبة.

إنّ هذه المرأة كما كانت تتباهى في الدنيا بالذهب والحُلِيّ التي كانت تعلّقها على نفسها، وتستخدمها لمواجهة المدّ الإسلاميّ، فإنّها في الآخرة أيضًا ستعلّق في عنقها حبلًا من ليف أو خوص يابس ذهبيّ اللون، مما يمثّل مصدرًا لذلّها وهوانها أكثر من أيّ وقت مضى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾.

النتيجة

تخبرنا هذه السورة في الآيتين الأولى والثانية من خلال استخدام الأفعال الماضية، عن هلاك يدي أبي لهب وخسرانه وعدم تأثير ثروته وقوّته وجاهه على حاله في الدنيا. كما تتحدّث الآيات الأخرى عن عذاب أبي لهب الأخرويّ وسوء عاقبة زوجته لتشكّل تهديدًا لهما.

نظرًا لبيان عاقبة أبي لهب في الدنيا والآخرة، وعجْز آليّاته السلطويّة عن الممارسة، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة يتجسّد في «**إعلان الهزيمة الدنيويّة والأخرويّة لأصحاب المال والقوّة**».

التدبّر في سورة النصر

التعريف بالسورة

سورة النصر هي السورة المائة والعاشرة من المصحف الشريف، وتلي سورة الكافرون، وتسبق سورة المسد.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة النصر في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

سَبِّح: «السير في طريق الحقّ دون أيّ انحراف وضعف». وتسبيح الله يعني أنّه تعالى على طريق الحقّ في جميع ذاته وصفاته وأفعاله وجميع أموره، وأنّه منزّه عن أيّ ضعف، أو نقص، أو حدّ.

توّابًا: «التوبة»، إذا استُخدِمت في شأن الإنسان فإنّها تعني الرجوع عن الذنب، والندم عليه، وإذا استُعمِلت بخصوص الله يليها حرف «على»، وتعني أنّه قابل التوب على سبيل المبالغة، وأنّ توبة الربّ على عباده مصحوبة بالرحمة والشفقة والغفران.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تتألّف هذه السورة من سياق واحد، وفيها أسلوب شرط: الآيتان الأولى والثانية

شرط، والآية الثالثة جواب الشرط.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للسورة

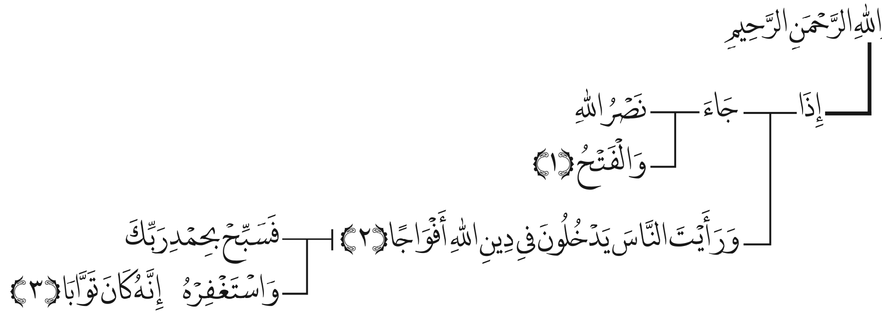

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للسورة يتمّ كالتالي:

إنّ سورة النصر من السور ذات الجملة الواحدة؛ إذ تتكوّن من الشرط وجوابه. من جهة أخرى فإنّ الخطاب في هذه السورة موجَّه إلى رسول الله ﷺ بعينه، ويبيّن مهمّة قائد المجتمع؛ حيث ينبغي له بعد الانتصار أن يتوجّه بنفسه إلى تسبيح الله (تسبيحاً مترافقًا بالحمد)، وأن يوجّهَ إلى ذلك جميع الأمّة والمجتمع الإسلاميّ؛ كيلا ينتشوا بسكرة النصر والفوز.

وتبدأ السورة بـ ﴿إذا﴾ الشرطيّة، الأمر الذي يدلّ على إمكانيّة توقُّع قاعدة عامّة في الآيات التالية. وتفصيل هذه القاعدة العامّة هو الغرض المنشود في السورة. إنّ الله يتحدّث في بداية السورة عن لحظةٍ تحقّق فيها النصر بعد النصر الإلهيّ وانهزام مشركي قريش: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾. ويوحي عطف فتح الله على نصره بأنّهما مختلفان على الرغم من تشابههما. إضافةً إلى ذلك، فإنّ تقدّم النصر على الفتح يشير إلى أنّ فتْح الله يأتي

بعد نصره. كذلك لا يأتي نصر الله إلّا بعد نصرة الناس أنفسهم، كما يقول في موطن آخر: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ ءامَنوا إِن تَنصُروا اللَّهَ يَنصُركُم وَيُثَبِّت أَقدامَكُم﴾.[١]

إنّ النصر والفتح المذكورَيْن مهمّان ومؤثّران لدرجة أنّهما سيؤدّيان إلى دخول الناس في دين الله أفواجًا: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾. دخول الناس في الدين وليس دخول الدين في الناس، ممّا يعني أن يعترفَ الناس بالنظام الإسلاميّ على الرغم من أنّ الإيمان لم يكن قد دخل في قلوبهم، وأن يقبلوا بقيام نظامهم الاجتماعيّ على أساس التعاليم والأحكام الإسلاميّة، [فدخول الناس في الدين] لن يتحقّق إلّا بعد إرساء الحكومة الإسلاميّة، لأنّ دخول الناس في نظامٍ ما يعني الاعتراف بتلك الحكومة، وقد حدث هذا الأمر زمن رسول الله صلى الله عليه وآله في حادثة الهجرة إلى المدينة، وشهدنا بعد فتح مكّة، دخول الناس في دين الله أفواجًا.

وفي النهاية بمجيء جواب الشرط الذي هو أصل الغرض المنشود في السورة، تتلخّص مهمّة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد تحقّق مثل هذا الفتح في أمرين جليلين، هما: التسبيح المقرون بالحمد، والاستغفار: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾. فالتسبيح المقرون بالحمد لله يعني أنّه ينبغي حمد الله والثناء عليه؛ لأنّه قد جلب النصر؛ لكن بما أنّكم لا تقدرون أن تحمدوا الله حقّ حمده فسبِّحوه قبل الحمد. يمكن مشاهدة مثال على هذا التصرّف عند فتح مدينة خرمشهر[٢]؛ حيث قال قائد الثورة الكبير قدّس سرّه: «إنّ الله حرّر خرمشهر». كما

١. سورة محمّد صلى الله عليه وآله، الآية ٧.

٢. احتلّت قوّات الطاغية صدّام مدينة خرمشهر عام ١٩٨٠م في بدايات الحرب المفروضة على إيران الإسلاميّة،

يمكن تفسير قوله بأن سبِّحوا لله بالحمد منزِّهين إيّاه من كلّ عيب ونقص وعجز، وإذا تأخّر النصر أو لم يشملكم النصر الإلهيّ فهو من عندكم. ومجئ ﴿رَبِّكَ﴾ بعد الأمر بالتسبيح المقرون بالحمد، يشير إلى أنّ هذا النصر والفتح من مظاهر الربوبيّة والإدارة الإلهيّة.

أمّا الواجب الثاني للقائد فهو الاستغفار لمزيد من الاسترحام وطلب مزيد من توسيع القدرة الوجوديّة، لأنّ المغفرة لا تعني طلب العفو والصفح. إذ إنّ المغفرة في الآيات القرآنيّة تقع بعد العفو والاستغفار وقبل الرحمة الإلهيّة، وإنّها (المغفرة) تأتي بغية جلْب الرحمة الإلهيّة، كما يقول: ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾.[١] وفي ضوء ذلك تجيب الآية أيضًا على سؤال، و هو أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لم يرتكب أيّ ذنبٍ ليستغفرَ الله.

وتنتهي السورة بالتأكيد على سبب الأمر السابق، وهو أنّ الله قد أصدر هذا الأمر انطلاقًا من حرصه الكبير على هداية عباده ورشدهم: ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾. يعني أيّها الرسول صلى الله عليه وآله أنت بصفتك قائدًا للمجتمع الإسلاميّ اسألِ اللهَ مزيدًا من هذه الرحمة الواسعة الكبرى وتوسيع القدرة الوجوديّة، ونحن نمدّك باللطف والعناية.

وتمّ تحريرها من براثن الاحتلال البعثيّ الغاشم في عمليّة بيت المقدس التي نفّذتها القوّات الإيرانيّة عام ١٩٨٢م.

١. سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

النتيجة

لقد نزلت سورة النصر المباركة في ظروف استطاع فيها المسلمون الصمود أمام أعداء أشدّاء كمشركي قريش واليهود من خلال تحمّل الصعاب والمشقّات الجسيمة، ومن جهة أخرى، فقد كانت آمالهم بفتح مكّة ازدادت بفضل النصر الإلهيّ بعد صلح الحديبيّة، وعلى أثر ذلك كانوا يتوقّعون دخول الناس أفواجًا في الدين الإلهيّ. لذلك يبيّن الله بخطابه الموجَّه إلى الرسولﷺ واجبه وبالتالي واجب المؤمنين في مثل هذه الظروف، ألا وهو التسبيح بالحمد، والاستغفار.

ونظرًا إلى أنّ السورة قد اعتمدت أسلوب الشرط، وأنّ الأصل في هذا الأسلوب هو جواب الشرط، وأنّ الجواب يوجّه الخطابَ إلى الرسولﷺ، ويريد إدخال ذكر الله في صلب الحياة، نظرًا إلى كلّ ذلك فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ «**ذكر الله يجب على الرسولﷺ عند العون والنصر الإلهيّ على الصعيد الاجتماعيّ**».

التدبّر في سورة الكافرون

التعريف بالسورة

سورة الكافرون هي السورة المائة والتاسعة للمصحف الشريف، وتقع بعد سورة الكوثر وقبل سورة النصر. ولها اسمان آخران هما: «الجحد»[1] و«المشقشقة»

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الكافرون في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ
أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

تتألّف هذه السورة بآياتها الستّ من سياق واحد، وثلاث باقات.

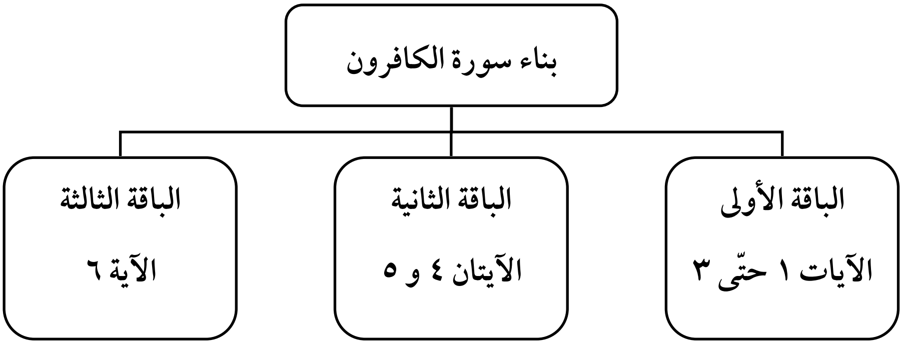

١. تفسير الصافي، ج ٥، ص ٣٨٥

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أعبُدُ: العبادة في الأصل تعني نهاية الخضوع أمام المولى مع طاعته.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى: هي الآيات من الأولى حتّى الثالثة، والآية الثانية مقول القول للفعل الطلبيّ ﴿قُل﴾ في الآية الأولى، والآية الثالثة معطوفة عليها.

الباقة الثانية: تشمل الآيتين الرابعة والخامسة وهما متعاطفتان، والآية الرابعة معطوفة أيضًا على المجموعة الأولى.

الباقة الثالثة: تتألّف من الآية السادسة فقط، وهي أيضًا مرتبطة بالآيات السابقة بواسطة ضمير الخطاب «كُم» في﴿لَكُمْ﴾ إذ إنّ المخاطبين هم الكافرون الذين تخاطبهم آيات السورة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

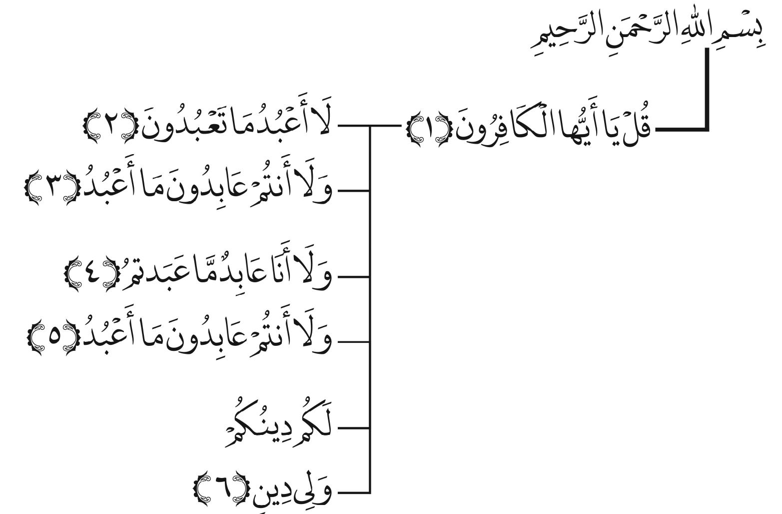

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

بعد أن جرّب الكفّار شتّى الطرق مثل: التحريض، والتهديد، والإيذاء والمضايقة، ومُنُوا بالهزيمة في محاربتهم لشخص الرسولﷺ والدين الإسلاميّ، فقد وضعوا خطّة تسويةٍ للتعامل مع دين الرسولﷺ وإزالة الخلافات. وسورة الكافرون نزلت في مثل هذه الظروف، لتؤكّد في ثلاث فقراتٍ توحيد الله العمليّ (التوحيد العمليّ في العبوديّة) أمام شرك الكافرين:

هكذا تبدأ سورة الكافرون بخطاب الرسولﷺ موجَّهًا إلى الكافرين: ﴿قُل يا أيُّها الكافِرونَ ﴾. إنّ ابتداء السورة بالفعل الطلبيّ ﴿قُل﴾ - كما ذُكِرَ في المواقف المماثلة - يُظهِر أنّ إبلاغ هذه السورة للناس يجب أن يكون بأكثر من القول؛ ممّا يعني قوله: «أيّها الرسول! لا تقلْ ولا تبلغِ الآيةَ فحسب؛ بل وضِّحْها واشرحها»؛ وجسِّدِ التوحيد في عبوديّة الله للكافرين تجسيدًا عمليًّا. وكما أُشِيرَ فإنّ معظم الآيات المتعلّقة بشرح المسائل العقديّة تبدأ بهذه الطريقة. وفي هذه السورة أيضًا نظرًا لطلب الكافرين (الكافرين برسول اللهﷺ وليس بالله)، يخاطب الله رسولهﷺ، ليأمره بأن يقول لهم: ﴿يا أيُّها الكافِرونَ﴾ لا مكان في الإسلام للمساومة والتقارب في المعبود ونوع العبادة وطريقتها.

١. التوحيد في المعبود(الآيتان ٢ و٣)

بدأت الآيتان بذكر التوحيد في المعبود إزاء تعدّد الآلهة، حيث تفيدان بأنّني لا أعبد ما تعبدون (الأصنام وأيّ إلهٍ غير الله الواحد): ﴿لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ﴾، كما أنّكم لا تعبدون ما أعبد (الله الواحد والمعبود الواحد): ﴿ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ﴾. والدليل على هذا

الاستنتاج هو كون "ما" موصوليّةً في الآيتين الثانية والثالثة، وأنّها (ما الموصولة) مفعول به للفعل ﴿أعبُدُ﴾ ولاسم الفاعل ﴿عابِدونَ ﴾ في الآيتين الثانية والثالثة، لذلك يُستنبَط من هاتين الآيتين أنّ أحد خيارات الكفّار التساوميّة تمثّل في قولهم: يا أيّها الرسول! إذا عبدتَ آلهتنا، فإنّنا سنعبد إلهك أيضًا، والآيتان قد نفتا الحالتين كلتيهما.

٢. التوحيد في نوع العبادة (الآيتان ٤ و ٥)

التوحيد في نوع عبادة الربّ نهج آخر جاء في الآيتين الرابعة والخامسة إزاء زيف عبادة الكافرين: يأمر الله الرسولﷺ أن يعلن أنّني لست ذلك الشخص الذي يعبد الله كما تعبدونه: ﴿ ولاأناعابِدٌمّاعَبَدتُم﴾، كما أنّكم لستم الذين يعبدون الله الواحد كما أنا أعبده: ﴿ و لا أنتُم عابِدونَ ما أعبُدُ﴾. يفيد كون﴿عابِدٌ﴾ في الآية الرابعة و﴿ عابِدونَ﴾ في الآية الخامسة اسمَيْ فاعلٍ الاستمرارَ والثبات خلافًا للفعل، ويوحي بأنّ الرسول الأكرمﷺ ليس بعابدٍ مثلهم أبدًا، وفي المقابل فإنّهم ليسوا بموحّدين أبدًا.[١] بعبارة أخرى، يقول الرسولﷺ، إنّ نوع عبادتي مقرَّر مرسوم من عند الله سبحانه، ونوع عبادتكم من عندكم، وهي مزيّفة.[٢] فنحن المسلمين من أجل تعظيم معبودنا وعبادته، نتّبع تلك الطريقة التي أمرَنا بها، بينما أنتم الكفّار تتّبعون نهجًا مزيَّفًا مختلَقًا لتعظيم آلهتكم وعبادتها.

١. سورة الزمر، الآية ٤٥: لذلك يصرّح القرآن بأنّه كلّما ذُكِرَ الله بالوحدانيّة اشمأزّت قلوب الكافرين، وكلّما ذُكِرَ غير الله استبشروا: ﴿وإذاذُكِرَاللهُوَحدَهُاشمَأزَّتقُلوبُالَّذينَلايُؤمِنونَبالآخِرَةِوإذاذُكِرَالَّذينَمِندونِهِإذاهُميَستَبشِرون﴾.

٢. كما جاء في آيات القرآن فإنّ صلاتهم عند بيت الله ما كانت إلّا صفيرًا وتصفيقًا: ﴿ وماكانَصَلاتهُمعِندَالبَيتِإلّامُكاءًو تَصديَةً﴾ (الأنفال/ ٣٥) وهذه الصلاة كانت غير صلاة المسلمين التي تضمّ القيام والركوع والسجدة وتقام قربةً إلى الله.

والدليل على هذا الاستنتاج هو كون "ما" في الآيتين مصدريّةً، لأنّه في هذه الحالة تؤَوَّل "ما" مع الفعل الذي يليها، إلى المصدر، وفي النتيجة ستكون ﴿ما عَبَدتُم﴾ بمعنى «عبادتَكم» و﴿ما أعبُدُ﴾ بمعنى «عبادتي». هذه النقاط تُظهِر أنّ الحديث في الاقتراح الآخر للكافرين، تركّز على توحيد نوع العبادة؛ مما يعني: أيّها الرسول! إذا اخترت نوع عبادتنا لعبادة ربّك، فإنّنا سنأخذ نوع عبادتك بعين الاعتبار في عبادتنا أيضًا.

والسبب في تقديم معنيين مختلفين للآيتين الثالثة والخامسة مع أنّهما متشابهتان تمامًا: ﴿ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ﴾ يعود إلى اختلاف الآيتين الثانية والرابعة، إضافةً إلى الاختلاف في نوع «ما» أهي موصولة أومصدريّة في الآيتين؛ لأنّ الآية الثانية تُعتبَر مقدّمةً للآية الثالثة، والآية الرابعة تُعتبَر مقدّمةً للآية الخامسة، واختلاف المقدّمة يؤول إلى اختلاف ذي المقدّمة أيضًا. والأدلّة على وجوه الافتراق في الآيتين الثانية والرابعة كالتالي:

١. ﴿أعبُدُ﴾ في الآية الثانية فعل مضارع، و﴿ عابِدٌ﴾ في الآية الرابعة اسم فاعل.

٢. ﴿ تَعبُدونَ﴾ في الآية الثانية فعل مضارع، و﴿ عَبَدتُم ﴾ في الآية الرابعة فعل ماضٍ.

٣. ﴿ لا أعبُدُ﴾ في الآية الثانية جملة فعليّة، و﴿ و لا أنَا عابِدٌ ﴾ في الآية الرابعة جملة اسميّة.

٤. بما أنّ الآية الرابعة عُطِفت بالواو المذكورة في صدرها على الآية الثانية، فإنّ هذا يشير إلى اختلافهما؛ كما أنّ العطف لا يقتضي إلّا ذلك.

٥. إنشاء دلالة جديدة في التكرار أفضل من اعتبار التكرار تأكيدًا، الأمر الذي يُعبَّر عنه بقاعدة «التأسيس أولى من التأكيد».

٣. التوحيد في نهج العبادة (الآية ٦)

تشير الآية الأخيرة إلى التوحيد في نهج العبادة؛ أي أنّ الرسول ﷺ، كلّفه الله أن يقول: إنّ منهجي وسيرتي في العبادة مختلفان عن منهجكم وسيرتكم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾. إنّ السيرة العباديّة للرسولﷺ قائمة على العبوديّة، بينما سيرة المشركين العباديّة ضرْبٌ من ضروب التجارة وإبراز الأرستقراطيّة. والفرق بين السيرتين العباديّتين ناتج عن أنّ بعض أعمالهم العباديّة كانت مماثلة لبعضها، مثل الطواف حول الكعبة، حيث كان المسلمون يطوفون وهم في ثوب الإحرام، بينما كان الكفّار يطوفون عُراةً، وكانت طريقتهم تختلف عن طريقة الرسول الأكرمﷺ.

وأخيرًا، فإنّ المقصود من «الدين» في الآية الأخيرة ليس الدين والمذهب، لأنّ الدين عند الله هو الإسلام: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلامُ ﴾[١] والله لا يعترف للكافرين بدين ولا مذهب، لذلك فإنّ «الدين» في الآية بمعنى المنهج، ومعنى الآية كما يلي: ﴿لكم دينُكم فِي العِبادةِ و لِيَ ديني فِي العِبادةِ﴾.

١. سورة آل عمران، الآية ١٩.

النتيجة

لقد نزلت سورة الكافرون لتتناول التوحيد العمليّ في عبوديّة الله، بغية إصلاح عبوديّة العباد وشرْح واجبات العبوديّة في مقابل شرك المشركين والكافرين. وبما أنّ هذه السورة من السور ذات الجملة الواحدة، وتتألّف من الفعل الطلبيّ ﴿قُل﴾ ومقول القول، وأنّ أصل الكلام يأتي فيما بعد الفعل الطلبيّ ﴿قُل﴾؛ ففي الباقات الثلاثة تمّ التأكيد في مقابل شرك الكافرين على التوحيد العمليّ لله (التوحيد العمليّ في عبوديّة الله): والتي هي استعراض لثلاثة أنواع هي: التوحيد في المعبود، والتوحيد في نوع العبادة، والتوحيد في نهج العبادة.

وعلى هذا الأساس، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**التوحيد العمليّ في العبوديّة**».

التدبّر في سورة الكوثر

التعريف بالسورة

سورة الكوثر هي السورة المائة والثمانية من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الماعون وقبل سورة الكافرون.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الكوثر في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣

هذه السورة مكوّنة من ثلاث آيات، وسياق واحد.

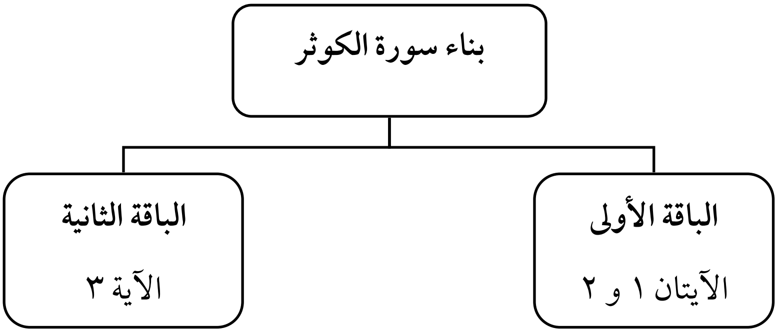

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الكَوثَر: «كثر» الكثرة والوفرة. وكلمة «الكوثر» للمبالغة في الزيادة ومعناها كثير جدًّا و وافر.

اِنْحَر: «نَحْر» القطع ونحر البعير وفي هذه السورة بمعنى نحر الهَدْي.

شانِئَكَ: «شنأ» بغض الشئ وكراهته، والابتعاد عنه، وفي هذه السورة يعني العدوّ الذي كان حانقًا ساخطًا على الرسول، ويمتنع عن مرافقته.

أَبْتَر: «البَتْر» القطع والبتر وعدم اكتمال الشئ، والمقصود من «الأبتر» في هذه السورة هو الذي لا عقب له، وَلا نسل.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

إنّ هذه السورة مكوّنة من ثلاث آيات، وسياق واحد. وقد عُطِفتِ الآية الثانية على الآية الأولى، وإنّ كلًّا من أسلوب التعبير المشترك (تبتدئ الآية الأولى والثالثة بـ ﴿إنَّ﴾ ووحدة الخطاب في الآيات الثلاث: ﴿أعطَيناك﴾، و﴿لربِّكَ﴾، و﴿شانِئَكَ﴾) يجعل آيات السورة متماسكةً.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

بعد مرور عدّة سنوات على بعثة خاتم الأنبياءﷺ كان الأعداء - بمنتهى الوقاحة ومن منطلق معتقداتهم الخاطئة بأنّ الولد الذَّكَر هو من يرث أباه ويواصل نهجه - يدعون النبيّ ويصفونه بالأبتر أي مَنْ لا ذريّة ولا عقب له، فيؤذون بذلك قلب رسول الرحمة؛ إذ إنّ

النبيّ لم يُرزَق ابنًا. تحت وطأة هذه الظروف، نزلت سورة الكوثر، ومحورها هو امتنان الله على الرسولﷺ ورفْع معنويّاته، وقد شملتْه الرعايةُ الربّانيّة الخاصّة من جانبين؛ الأوّل: إعطاؤه الكوثرَ، والآخر: انبتار شانئه.

١. الصلاة لله، والنحر له شكرًا على إعطائه الكوثر (الآيتان ١ و ٢)

بدأت السورة بحرف «إنَّ»: ﴿إِنَّآ﴾، وهي تؤكّد نفي حالة الإنكار والشكّ في استمرار دين الرسولﷺ لعدم امتلاكه ابنًا، فيقول: إنّا أعطيناك الخير الكثير، وبذلك قدّمنا ضمانًا باستمرار نَسْلِك واستمرار الدعوة الإلهيّة: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. وإنّ تكرار الضمير«نا» في ﴿إِنَّآ﴾ و ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ يُظهِر أوّلًا: عظمة المعطي، وثانيًا: يشير إلى مشاركة الملائكة في إيصال ذلك الخير الكثير إلى الرسول؛ بمعنى أنّ النظام التنفيذيّ الإلهيّ والملائكة هما قاما بهذا الأمر.

وعلى الرغم من أنّ «الإعطاء» و«الإيتاء» كليهما بمعنى «المنح»، لكن «الإعطاء» يُطلَق على المواهب والمِنَح الخاصّة، بينما «الإيتاء» أشمل من العطاء، ويضمّ كلَّ عطاءٍ وإمدادٍ حتّى أداء الأمانة. كذلك يوحي استخدام ضمير كاف الخطاب في ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ بأنّ هذا الفيض الخاصّ يخصّ رسول اللهﷺ دون غيره.

و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ من «كَثُرَ» بمعنى الكثرة، وتُستخدَم للكثرة الحقيقيّة مقابل «التكاثُر» الذي يشمل الكثرة المزعومة؛ مثل «التَمارُض» بمعنى التظاهر بالمرض. كما أنّ زنة «فَوْعَل» من أوزان المبالغة، وتشير إلى المبالغة في الكثرة، لذلك فإنّ الكوثر يشير إلى الخير الكثير.

والآية الثانية بدأت بـ "فاء" النتيجة، وهي تدعو الرسولﷺ إلى أن يشكر الله بصلاته

على إعطائه الكوثر: ﴿فَصَلِّ﴾. ويوحي وقوع ﴿لِرَبِّكَ﴾ بعد ﴿فَصَلِّ﴾ بأنّ هذه الصلاة يجب أن تكون خالصةً لله وفي ذروة الالتفات إلى الله، وهذا يُستخلَص من توظيف حرف "اللام" الذي يأتي للاختصاص. والدليل الآخر أنّ الرسولﷺ عندما يؤمر بالصلاة، فإنّ هذه الصلاة للربّ بالتأكيد، لذلك يؤكّد تزامُن الأمر بالصلاة مع ﴿لِرَبِّكَ﴾ أنّ الصلاة يجب أن تُقام شكرًا للربوبيّة والإدارة الإلهيّة.

والواجب الثاني للنبيّﷺ بعد إعطاء الكوثر هو نحر الإبل: ﴿وَانْحَرْ﴾ ونظرًا للواجب السابق الذي استُخدِمَ مقيَّدًا بـ ﴿لِرَبِّكَ﴾، وفي نظرة مقارنة، يجب أن يكون هذا الواجب لله مثل الواجب السابق.

ونستنتج أنّ الرسول الأكرمﷺ يجب أن يشكر الله شكرًا كثيرًا معنويًّا ومادّيًّا على جزيل لطفه، وكلاهما وسيلة لمزيد التقرّب إلى الله.

٢. قطْع نسل شانئه (الآية ٣)

كذلك تبدأ الآية الثالثة والأخيرة بحرف «إنَّ»، وتؤكّد حقيقةً لا تقبل الطعن، وهي أن: يا رسولنا! إنّ شانئك أبتر لا نسل له: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾. يأتي ضمير الفصل «هو» للتوكيد والحصر، ويقصر البتر على شانئ الرسولﷺ بينما كان هو (الشانئ) يعتبر رسول اللهﷺ أبتر.

يُستخلَص من مقارنة الآية الأولى مع الثالثة أنّه نظرًا لتقابل ﴿الكَوْثَرَ﴾ و﴿الأَبْتَرُ﴾، فإنّ المراد بالكوثر هو الخير الكثير، واستمرار نسل الرسولﷺ وكثرته، الأمر الذي تحقّق بوجود الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراءعليها السلام ومن هنا فإنّ ﴿الكَوْثَرَ﴾ هو فاطمةعليها السلام. إنّ

البشارة التي تزفّ للرسولﷺ في هذه السورة بعنوان «الكوثر»، من جانبٍ تُعَدّ ضربةً موجَّهةً إلى آمال أعداء الإسلام، وتؤكّد أنّ تعاليم الإسلام والقرآن لن تنقطع أبدًا، ومن جانب آخر تُعَدّ تسليةً لقلب النبيّﷺ بعد سماعه لقب الأبتر.

وكون فاطمة الزهراء عليها السلام هي الكوثرَ، نظرًا لماضويّة الفعل في ﴿ أعطَينَاكَ ﴾، وتسمية الرسول بالأبتر لعدم امتلاكه ابنًا ذَكَرًا، يفيدان بأنّه لا بدّ أن تكون هذه السورة قد نزلت بعد ولادة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

وأخيرًا، فإنّ كلمات هذه السورة تخصّ هذه السورة دون غيرها من السور، ولم يرد مثل ﴿ أَعۡطَيۡنَاكَ ﴾، و﴿ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾، و﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾، و﴿ ٱنۡحَرۡ ﴾، و﴿ شَانِئَكَ﴾ و﴿ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، في موطن آخر من القرآن، وهذا ما يضفي على السورة جمالًا خاصًّا.

النتيجة

إنّ العناية الخاصّة التي أولتها السورة للرسولﷺ من جهتين؛ الأولى: إعطاؤه الكوثر وهو ما يُوجِب عليه شكر ذلك بإقامة الصلاة للربّ، وتقديم الأضاحي له، والأخرى انقطاع نسل شانئ الرسولﷺ.

ووجود «إنَّ» في بداية الآيتين الأولى والثالثة يزيل أجواء الشكّ التي كانت مخيّمة آنذاك، كما أنّ الجمع بين مضمون هاتين الآيتين يشكّل المنحى الإرشاديّ للسورة؛ ألا وهو: «**التفضّل على الرسول الأكرمﷺ بإعطائه الكوثر وانقطاع نسل شانئه**».

التدبّر في سورة الماعون

التعريف بالسورة

سورة الماعون هي السورة المائة والسابعة من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة قريش وقبل سورة الكوثر. لهذه السورة اسمان آخران هما: «الدين» و«التكذيب».[١]

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الماعون في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَ لَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ
﴿٦﴾ وَ يَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

تتألّف سورة الماعون من سياق واحد، وتتدرج آياتها السبع في باقتين:

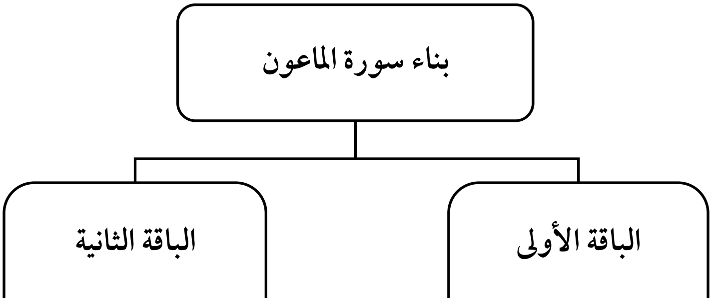

١. روح المعاني، ج ١٥، ص ٤٧٤.

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

يدُعُّ : «دَعّ» يدفع بجفوة وعنف.

يحُضُّ: «حَضّ» الحثّ والإغراء على أمر.

الماعُونَ: «مَعْن» في الأصل بمعنى اللين والرفق والاعتدال في كلّ عملٍ، وإنّها في هذه السورة تعني منافع المنزل والمعيشة التي هي في غاية الاعتدال والبساطة، وليست ثمينة أو غالية.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الثالثة، حيث أنّ الآيتين الثانية والثالثة توضّحان الآية الأولى، والرابط في الآية الثانية هو اسم الإشارة ﴿ ذَلِكَ﴾، وفي الآية الثالثة حرف العطف.

الباقة الثانية. تشمل الآيات الرابعة حتّى السابعة. ترتبط الآية الرابعة بآيات الباقة السابقة بـ «الفاء» العاطفة ﴿ فَوَيلٌ ﴾، ويعود الموصول ﴿ألَّذينَ﴾ في بداية الآيتين الخامسة والسادسة إلى﴿ألمُصَلّينَ ﴾ في الآية الرابعة. كما أنّ الآية السابعة معطوفة بالواو ﴿ و يَمنَعونَ ﴾ على ﴿ يُراءونَ ﴾ في الآية السادسة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

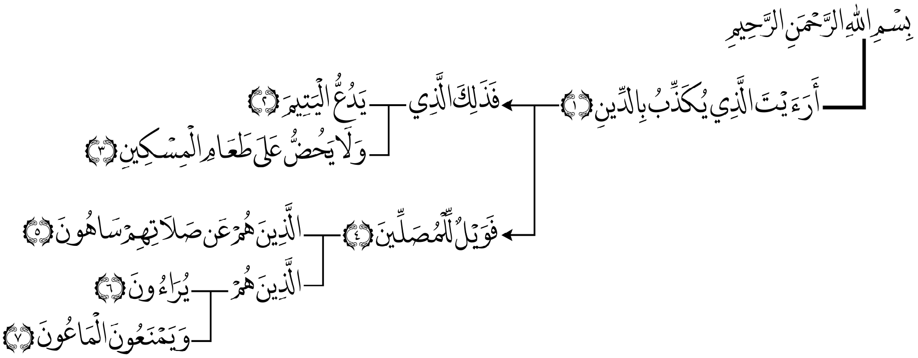

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

مع مرور الوقت، وتزايد عدد المسلمين، ومجد الإسلام وعزّه، تولّدت ظروف جديدة كانت بدورها محمَّلةً ببعض الآفات؛ منها وجود فئةٍ كانوا يزعمون أنّ إيمانهم محفوظ بمجرّد النطق بالشهادتين والتظاهر بالشعائر الإسلاميّة، وأنّهم سيكونون سعداء في الدنيا والآخرة. لكن كان ينبغي للمسلمين مراعاة عدّة أمور لإحراز الإسلام كاملًا. في خضمّ هذه الأجواء، نزلت سورة الماعون لتُعَدِّد العلامات العينيّة والعمليّة للمكذّبين بالدين ضمن تهديدهم، ليتجنّب المسلمون تلك الصفات. لذلك سنواصل مشوار التدبّر في السورة ضمن باقتين من الآيات.

١ . شرح العلامات العينيّة والبارزة للتكذيب بالدين (الآيات ٣-١)

تسعى هذه السورة إلى توضيح العلامات العينيّة والبارزة التي يتّسم بها المكذّبون بالدين، لذلك في الآية الأولى توجّه السورة الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسأله عن الذي يكذّب دائمًا بالدين: ﴿ أَرَءَيتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدّينِ ﴾. إنّ توجيه الخطاب إلى شخص

الرسولﷺ ليس لأنّ السورة نازلة من أجله فقط؛ بل لأنّه كان الوحيد الذي يسمع الوحي، إذن يتّضح أنّ جمهور السامعين هم المخاطبون بالسورة.

والآية الثانية تبدأ بحرف «الفاء»، وهي تصف المكذّبين بالدين المذكورين في الآية الأولى من خلال ذكر العلامات العينيّة والبارزة لتكذيب الدين، وأهمّ تلك العلامات هو دفْع اليتيم ونهْره بغلظة وظلم: ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾. في الحقيقة تخبرنا الآية أنّ المكذّب لا يتفاعل مع المجتمع الإسلاميّ عاطفيًّا.

أمّا العلامة الثانية لمكذّب الدين فهي أنّه لا يحضّ نفسه ولا غيره على طعام المسكين: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾. مثل هذا الإنسان لا يهتمّ باحتياجات المسلمين الماديّة، فإضافةً إلى أنّه لا يُطعِم المحتاجين فهو لا يحضّ الأغنياء على مساعدة المساكين. والآية تتحدّث عن إطعام المسكين: ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الأمر الذي يدلّ على أنّ هذا الطعام حقّ للمسكين وطعامه، وإنّما جعل الله قُوته في رزق الآخرين.

٢. شرح العلامات العمليّة للمكذّبين بالدين وتهديدهم بالويل والثبور (٤-٧)

الآية الرابعة بداية موضوعٍ جديدٍ، وحرف «الفاء» في أوّلها يخبرنا عن ارتباط هذه الباقة بالباقة الأولى. بدأ الكلام بتهديد المصلّين، وهذا دليل على أنّ الحديث يتّجه نحو المكذّبين بالدين على الصعيد العمليّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾؛ أي أنّ الويل والثبور في الدنيا وفي الآخرة للمصلّين الذين قَبِلوا الدين باللسان نفاقًا ويُصلّون، لكنّهم يتصرّفون كالمكذّبين. وعلى حسب الآية التالية، فإنّ أولى علاماتهم عدم وجود علاقة سليمة مع الله، يعني السهو عن أصل فريضة الصلاة: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولا يبالون بإقامة فريضة الصلاة أو

تأخيرها عن وقتها.

والعلامة الأخرى في هذه الباقة تتجلّى في عدم التعامل الصحيح مع المجتمع الإسلاميّ، لأنّ هؤلاء المكذّبين بالدين على الصعيد العمليّ، إضافةً إلى عدم مبالاتهم بأداء فريضة الصلاة فإنّهم يراؤون في بعض الأحيان، ويقومون بعباداتهم بمرأى من الناس فحسب: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾. ومن جهة أخرى، فإنّ هؤلاء يضنّون على المسلمين بما لا تضرّ إعارته من متاع الحياة: ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾؛ أي أنّهم كما يكذبون على الله ويقولون: آمنّا، وليسوا بمؤمنين، فإنّهم يراؤون الناس أيضًا، ويُظهِرون الإيمان كذبًا، لكن في النتيجة والعمل لا يشعرون بأيّ انتماء اجتماعيّ أو تعاون.

ذُكِرَت الأفعال المضارعة ﴿يُكَذِّبُ﴾ و﴿يَدُعُّ﴾ و﴿لَا يَحُضُّ﴾ و﴿يُرَاءُونَ﴾ و﴿ يَمْنَعُونَ﴾ لتدلّ على استمرار الأعمال المذكورة، كما أنّ استخدام ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ و﴿ سَاهُونَ﴾ على هيئة اسم الفاعل يفيد جريانهما واستمرارهما، وذلك يتناسب مع الفعل المضارع؛ لذلك فإنّ التكذيب العمليّ بالدين نتيجة استمرار هذه الأعمال؛ وليس القيام بها بشكل انتقائيّ.

كذلك حيث أنّ الضمائر والملحقات المفردة في الآيات الأولى والثانية والثالثة: ﴿ٱلَّذِي﴾ و﴿يُكَذِّبُ﴾، و﴿فَذَٰلِكَ﴾، و﴿يَدُعُّ﴾ و﴿ وَلَا يَحُضُّ﴾ قد تحوّلت إلى صيغة الجمع في الآيات، بدءًا من الآية الرابعة حتّى نهاية السورة: ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾، و﴿ ٱلَّذِينَ﴾، و﴿ هُمْ ﴾ و﴿يُرَاءُونَ﴾ و ﴿ يَمْنَعُونَ﴾ لذلك يجب القول بأنّ الأمر الذي يؤول أخيرًا إلى التكذيب بالدين يتحقّق على يد تيّار، وذلك التيّار هم المنافقون الذين ذُكِرَت أوصافهم من الآية الرابعة فما بعد. يجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ التيارات المنحرفة أكثر نجاحًا في الإضرار

بالدين الإسلاميّ؛ لأنّه دين اجتماعيّ، لذلك يجب أن يسعى روّاد الثقافة في المجتمع إلى إصلاح مجتمع المسلمين.

النتيجة

في هذه السورة يستهلّ الله تعالى الحديث بذكر علامات عينيّة وبارزة للتكذيب بالدين في سياق أعمال مثل: نهْر اليتيم بشدّة وظلم، وعدم الحضّ على طعام المساكين، ثمّ يوجّه التهديد إلى الذين قبلوا الدين بألسنتهم نفاقًا، لكنّهم يتصرّفون كالمكذّبين، تصرّفاتٍ كالاستخفاف بأصل الصلاة، والرئاء في تأدية هذا الواجب الإلهيّ، والبخل بأموالهم عن تلبية احتياجات الآخرين.

نظرًا للتهديد والوعيد الذي جاء بعد شرح العلامات العينيّة والبارزة للمكذّبين بالدين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**شرح العلامات العينيّة والعمليّة للمكذّبين بالدين، وتهديدهم بالويل والثبور**».

التدبّر في سورة قريش

التعريف بالسورة

سورة قريش هي السورة المائة والسادسة من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الفيل وقبل سورة الماعون.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة قريش في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾
ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

تتألّف هذه السورة من سياق واحد، و آياتها الأربعة تقع في باقتين

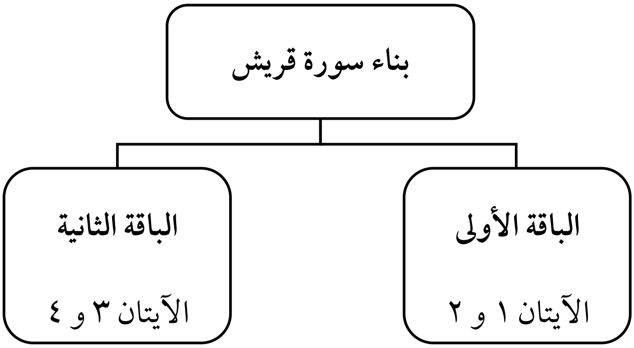

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

إيلاف: «أَلْف» الجمع والاستمالة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى: الآيتان الأولى والثانية اللتين تكرّرت كلمة «إيلاف» في كلتيهما.

الباقة الثانية: الآيتان الثالثة والرابعة. ترتبط آيتا هذه المجموعة بآيتَي الباقة الأولى بـ "الفاء" العاطفة في ﴿فليَعبُدوا﴾. والآية الرابعة وصفٌ لـ ﴿رَبَّ﴾ في الآية الثالثة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

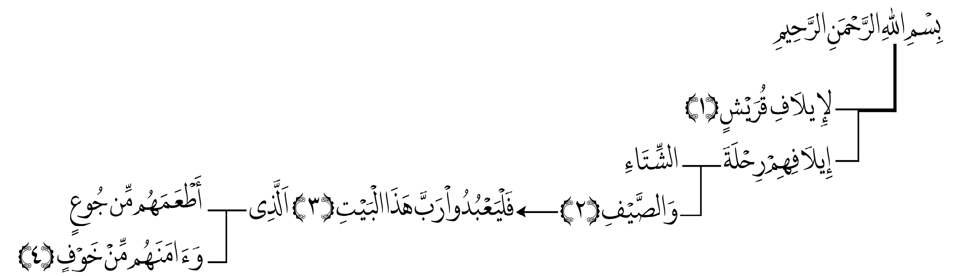

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ المنحى الإرشاديّ للآيات يجري كالتالي:

في زمن بعثة الرسول الأكرمﷺ كان القرشيّون سكّانَ مكّة الأصليّين. ولم تكن مكّة صالحة للزراعة ولا لتربية المواشي. وكان الله تعالى قد أعطى القرشيّين نعمًا اجتماعيّة مثل: الألفة والمودّة القبليّتين، والتآلف مع القبائل الأخرى، ونعمة العزّ والشرف بفضل وجود بيت الله، كما منحهم الرخاء الاقتصاديّ ونعمة الأمان، لكنّهم مالوا إلى عبادة الأصنام بدل عبادة الله تعالى، وبلغ بهم كفران النعم إلى درجة أنّهم جعلوا الكعبة بيتًا للأصنام، الكعبة التي كان لها قدسيّة، وكانت مبعث عزٍّ لهم. في خضمّ هذه الأجواء، نزلت سورة

قريش تذكّر بالنعم التي خصّ الله بها القرشيّين، كما تأمرهم بشكر الله وعبادة ربّ البيت.

تبدأ السورة لتدعو إلى التوحيد في العبوديّة الاجتماعيّة لله، بعد ربوبيّته وإعطائه النعم الاجتماعيّة، كما يلي:

١. نعمة الوحدة والألفة (الآيتان ١ و٢)

إنّ آيات السورة كلّها مترابطة متماسكة معنًى: فالآية الأولى جارّ ومجرور: ﴿لِإِيلافِ قُرَيشٍ﴾، ولأنّ الجارّ والمجرور بحاجة إلى متعلَّق[١] يكتمل معناهما به، ولأنّه ليس لهما معنى مستقلّ - من أجل أنس قريش وألفتهم - ويجب البحث عن ذلك المتعلَّق في السورة نفسها. من خلال نظرة سياقيّة ومقارنة إلى السورة، يتّضح أنّ المعنى يكتمل بالفعل الطلبيّ في الآية الثالثة: ﴿ فَليَعبُدوا ﴾: يجب على قريش أن يعبدوا الله الذي أوجد بينهم تلك الألفة والمودّة.

وتكرار كلمة «إيلاف» في: ﴿ إِيلافِهِم ﴾ من جهةٍ يدلّ على كثرة الألفة، ومن جهة أخرى يبيّن أنّ مضمون الآية الثانية يختلف عن مضمون الآية الأولى، لأنّ هذه الآية تشير إلى علاقات قريش الودّيّة مع سائر القبائل في رحلات الشتاء والصيف: ﴿إيلافِهِم رِحلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيفِ﴾ والآية الأولى تشير إلى الألفة داخل قبيلتهم.

٢. نعمة الكرامة والشرف والرخاء الاقتصاديّ، ونعمة الأمان (الآيتان ٣ و٤)

كان من مقتضى العقل السليم والفطرة البشريّة ألّا يغفلَ القرشيّون لحظةً عن شكر المنعِم على كلّ هذا الترف والنعم التي نالوها بفضل وجود الكعبة؛ لذلك يأمر الله قريشًا

١. الجارّ والمجرور يتعلّقان بفعل أو شبه فعلٍ مذكور أو محذوف، يسمَّى المتعلَّق، وبه يكتمل معناهما.

في الآية الثالثة أن يعبدوا ربّهم لنعمة الألفة داخل القبيلة وخارجها، وكذلك العزّ والكرامة اللتين أُهدِيَتا للقرشيّين بفضل وجود الكعبة بين ظهرانيهم: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾.

والآية الأخيرة من جهةٍ تصف ﴿الرَّبَّ﴾ في الآية الثالثة، ومن جهة أخرى تذكّر النعمتين الأُخْرَيين اللتين وهبهما ربّ البيت قريشًا؛ الأولى: نعمة الطعام والإنقاذ من الجوع: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ﴾ والأخرى: نعمة الأمان من كلّ المخاوف: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

ويفيد التعبيران ﴿مِن جوعٍ﴾ و﴿مِن خَوفٍ﴾ بأنّ جوعًا وفلتانًا أمنيًّا شاملَيْنِ خيّما على ذلك الزمان والمكان، فتفضّل الله عليهم، وأطعمهم من جوع، وبدّل خوفهم أمنًا.

النتيجة

يُذكّر الله تعالى قريشًا من خلال نزول هذه السورة، بالنعم الخاصّة التي أعطاهم إيّاها: نعمة التآلف القبليّ الداخليّ والخارجيّ (مع القبائل الأخرى)؛ نعمة العزّ والشرف؛ ونعمة الاقتصاد والنجاة من الجوع؛ ونعمة الأمان. وإنّ النعم المذكورة كلّها مواهب اجتماعيّة لتصحوَ بفضلها قريش من نوم الغفلة، وتعبدَ ربّ الكعبة شكرًا له؛ إذ إنّ هذه النعم كلّها منه تعالى.

ونظرًا إلى أنّ معنى الآية الأولى يكتمل بالآية الثالثة، والآية الرابعة تصف ﴿الرَّبَّ﴾ في هذه الآية، فإنّ الآية الثالثة تحظى بأهمّيّة كبيرة؛ لذلك يتمثّل المنحى الإرشاديّ للسورة في «**الدعوة إلى العبادة الجماعيّة للربّ من أجل الشكر على النعم الاجتماعيّة**».

التدبّر في سورة الفيل

التعريف بالسورة

سورة الفيل هي السورة المائة والخامسة من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الهمزة و قبل سورة قريش.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا ستدبّر سورة الفيل في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥

هذه السورة بآياتها الخمسة تتألّف من سياق واحد، وتضمّ باقتين:

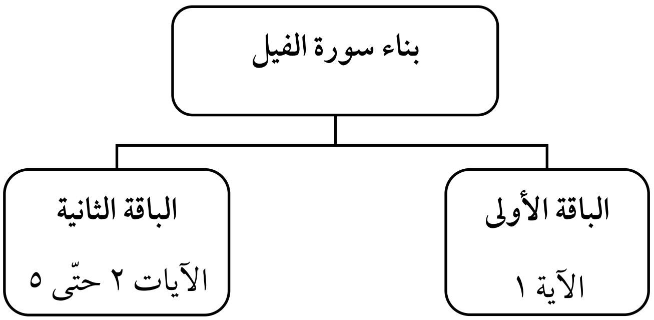

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أبابيل: «إبل» جماعات متفرّقة من الطيور.

سِجِّيل: «سَجْل» الطين المتحجّر.

عَصْفٍ مأكول: تبن أكلته الدوابّ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. في الآية الأولى تعبير مجمل عن أمر تأتي تفاصيله تباعًا.

الباقة الثانية. الآيات من الثانية حتّى الخامسة تفصيل الآية الأولى، وضمير «هم» فيها: ﴿كَيْدَهُمْ﴾، و﴿عَلَيْهِمْ﴾، و﴿ تَرْمِيهِم ﴾، و﴿جَعَلَهُمْ﴾ يعود إلى ﴿أَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ في الآية الأولى.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا — أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ← فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ ضمن باقتين من الآيات أيضًا كالتالي:

كان أعداء الإسلام والقرآن قد نظّموا صفوفهم أمام الإسلام كالقوى الكبرى التي لا

تُهزَم، ولم يكونوا ليرضوا بغير القضاء عليه. يشير الله تعالى إلى حادثة جيش أبرهة التاريخيّة، مُذكِّرًا بردّ الفعل الإلهيّ المتمثّل في هزيمتهم. وكبداية يخاطب الرسولﷺ في الآية الأولى ليُذكّره إجمالًا بأمر هامّ، وهو أنّك لم ترَ ما فعل ربّك بأصحاب الفيل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾؟ وبما أنّ الرسول الأكرمﷺ كان قد وُلِد حديثًا عند وقوع تلك الحادثة، ولم يكن ممكنًا له مشاهدتها، فإنّ المقصود من ﴿ أَلَمۡ تَرَ﴾ مشاهدة آثار تلك الحادثة وبقاياها. والموضوع الآخر هو أنّ الله يقدّم بهذه الآية التعزيز والحماية إلى الرسولﷺ حيال القوى الكبرى؛ أي كما أنّ الله حفظ الكعبة من شرّ أصحاب الفيل، فإنّه يحفظك أيضًا من أيّ تهديد واغتيال.

١. شرح إجماليّ لردّ الفعل الإلهيّ على أصحاب الفيل (الآية ١)

إنّ «أصحاب» جمع «صاحب» بمعنى الصديق والرفيق، لذلك فإنّ عبارة ﴿ أَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ تشير إلى أنّ المهاجمين لم يكونوا أقوياء أشدّاء فحسب، بل إنّما كانوا يشعرون بالتباهي والقوّة لكونهم بجانب الفيلة ومعها.

٢. الشرح التفصيليّ لردّ الفعل الإلهيّ على أصحاب الفيل (الآيات ٥-٢)

إنّ الكلمة الأولى في تفصيل حادثة أصحاب الفيل هي الإخبار بعدم جدوى كيدهم في تلك المؤامرة: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾؟ يُستخلَص من الاستفهام التقريريّ ﴿ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ﴾ مثل ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أنّ تشتّت أصحاب الفيل وضلال كيدهم وهلاكهم كان محتومًا ومؤكّدًا.

ثمّ يتابع القولَ فيشير إلى أنّ جنود الله في مواجهة أصحاب الفيل كانوا طيورًا أرسلها

الله أسرابًا فوق رؤوس الجيش: ﴿ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ﴾. فكلمة ﴿أبابيلَ ﴾ تصف طريقة إرسال الطير، حيث تعني مجموعات وأسرابًا، ولا يمكن أن تكون عَلَمًا لتلك الطيور، لأنّها لو كانت علمًا لكانت معرفةً، ولا يمكنها أن تكون وصفًا لكلمة ﴿طَيۡرًا﴾ التي هي نكرة. كذلك قوله: ﴿ عَلَيۡهِمۡ﴾ يوحي بأن جنود الله تغلّبوا على أصحاب الفيل ويفيد مجئ ﴿ طَيۡرًا ﴾ على شكل نكرة التصغيرَ، ويصوّرها صغيرةً.

إنّ سلاح هذه الطيور كان حجارة صغيرة من طين متحجّر تلقيها على رؤوس أصحاب الفيل: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾. يتّضح صغر الحجارة من تنكير كلمة ﴿حِجَارَةٖ﴾ وطريقة الآيات في التعبير.

وتختتم السورة كلامها بوصف مشهد القضاء على أصحاب الفيل الذين كانوا كالتبن الذي تأكله الدوابّ، على أثر ارتطام تلك الحجارة الصغيرة برؤوسهم: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾.

وأخيرًا فقد وقعت هذه الحادثة على شكل معجزة يصدّقها الجميع، وتكون رمزًا لتجسيد السنّة القائلة بأنّ الله تعالى يحمي دينه من الأعداء، ولا أحد يستطيع الوقوف في وجهه مهما بلغت قوّته.

النتيجة

إنّ سورة الفيل المباركة قد حطّمت الأجواء التي تُضعِف أهل الحقّ، وتعزّز أهل الباطل، وبثّت المعنويّات والأمل في نفس الرسول الأكرمﷺ وأنصار جبهة الحقّ الذين لم يكن لهم القدرة على مواجهة الأعداء الأقوياء، إذ تشير السورة إلى الحادثة التاريخيّة المنتهية إلى القضاء على جيش أبرهة بفضل القدرة الإلهيّة، وفشلهم في تدمير الكعبة.

وفق الشرح الإجماليّ والتفصيليّ لحادثة أصحاب الفيل وانهزامهم بالردّ الإلهيّ الرامي إلى دعم الرسول الأكرمﷺ والدفاع عنه، وبثّ الأمل فيه من أجل تحقيق الهدف، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**إظهار قدرة الله في هزيمة القوى الكبرى من أجل تعزيز رسول اللهﷺ وحمايته**».

التدبّر في سورة الهمزة

التعريف بالسورة:

سورة الهُمزة هي السورة المائة والرابعة من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة العصر، وقبل سورة الفيل.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الهمزة في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣
كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ
عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩

تتألّف هذه السورة بآياتها التسع من سياق واحد، وتضمّ باقتين

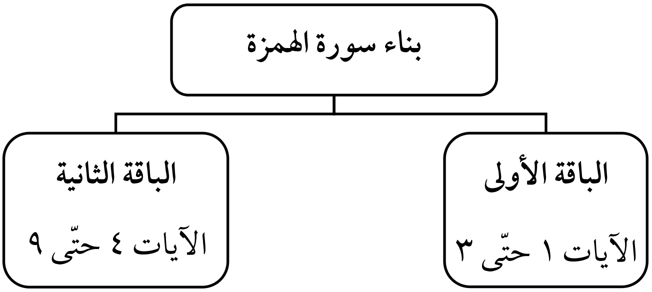

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

هُمَزَةٍ: «هَمْز» عيب الشخص، والطعن به في غيابه.

لُمَزَةٍ: «لَمز» عيب الشخص، والطعن به في حضوره.

لَيُنبَذَنَّ: «نَبْذ» إلقاء الشئ وطرحه للاستغناء عنه، وفي هذه الآية تعني إلقاء هؤلاء الأشخاص وطرحهم في عذاب جهنّم.

الحُطَمَة: «حَطْم» هشّام، وتُطلَق «الحطمة» في هذه الآية على جهنّم؛ لأنّها تحطم كلّ ما يُلقَي فيها، وهي تكسر ما للإنسان من نظام و هيئة طبيعيّة وشخصيّة وتهشّمها.

المُوقَدَة: «وَقْد» ملتهبة ومستعرة.

مُؤصَدَة: «وَصْد» مطبقة ومغلقة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الثالثة: والآية الثانية وصف لـ ﴿هُمَزَةٍلُّمَزَةٍ﴾ في الآية الأولى، وفي الآية الثالثة إضافةً إلى أنّ الضمير المستتر «هو» في: ﴿يَحسَبُ﴾ والضمير الظاهر «ـه» في ﴿مالَهُ﴾ و﴿أخلَدَهُ﴾ يعودان إلى ﴿الّذِي﴾ في الآية الثانية، فإنّ الفعل ﴿يَحسَبُ﴾ حال لفاعل ﴿جَمَعَ﴾ في الآية الثانية.

الباقة الثانية. الآيات من الرابعة حتّى التاسعة. ﴿ كَلَّا ﴾ في بداية الآية الرابعة ترفض التصوّر الخاطئ المطروح في الباقة السابقة، والآيات من الخامسة حتّى التاسعة تصف ﴿ ٱلْحُطَمَةِ ﴾، وإنّها في الواقع تهديد أخرويّ للطائفة المذكورة في الباقة الأولى.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

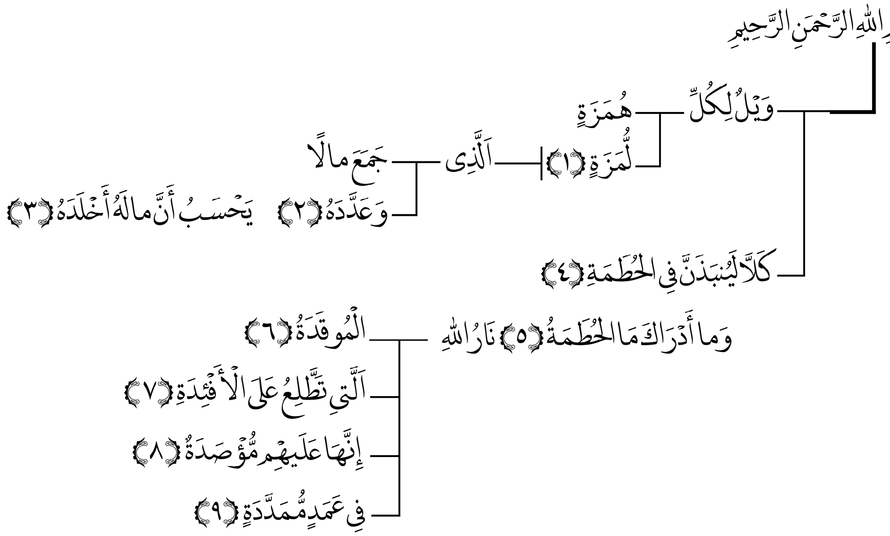

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في باقتين أيضًا:

يزعم كثيرون في الدنيا أنّهم سيخلدون بامتلاكهم الأموال الطائلة، فيكون همُّهم جمع المال وتعداده. ولم يكن الأثرياء المشركون في مكّة مستثنين من هذه القاعدة، إذ راحوا يستهزؤون بالآخرين ويطعنون فيهم، وقد أسكرتهم الأموال التي جمعوها وعدّوها على أمل الخلود بها.

وقد وعدالله الجبّار أولئك الذين يشمخون بأنوفهم ويعيبون الآخرين ويسخرون منهم، أنّ لهم عذاب الدنيا والآخرة، كما فنّد مزاعمهم حيال الخلود بالأموال، وذلك من خلال إنزال سورة الهمزة المباركة.

١. تهديد دنيويّ بالويل للعيّابين الطعّانين عبدة الأموال (الآيات ٣-١)

تبدأ هذه السورة بالتهديد والوعيد المتمثّلَيْنِ في عبارة ﴿ وَيۡلٞ ﴾، بغية تصحيح رؤية

البشر حيال المال والثروة، وبالتالي تقويم التصرّف المشين لعبدة المال، كما توجّه رسالة تهديدٍ بالهلاك في الدنيا إلى الذين ينشغلون بالغيبة والطعن في الناس: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾؛ وقد يُطلَق «همزة» على العيّاب الذي يلمح إلى العيوب، وليس عيبه في محلّه، أي يعيبون ما ليس بعيب، بل الهمزة يحسبه عيبًا مثل بساطة العيش، ويُسمَّى الطعّان باللسان ولو كان طعنه في محلّه، بـ «لُمَزة». وإنّ عملهم هذا، ناجم عن الأموال التي ادّخروها: ﴿الَّذِي جَمَعَ مالاً﴾؛ لأنّهم سَكروا بهذه الأموال المكدّسة، فازدادوا جشعًا، وظلّوا يهتمّون بجمع المال وتعداده: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾.

ثمّ تعلن السورة أنّ المشكلة الرئيسة لهؤلاء هي انشغالهم بحبّ المال، جرّاء تصوّرهم الخاطئ عن المال والثروة، حيث يزعمون المال سببًا للخلود: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ويظنّون أنّهم يستطيعون أن يتفادوا أيّ حادث بالمال والثروة. ويُستدَلّ على بطلان هذا التصوّر باستخدام كلمة ﴿يَحسَبُ﴾، لأنّ «الحُسبان» بمعنى الخيال الباطل، ويعود بطلان هذا التفكير إلى أنّ الدنيا خُلِقَت للفناء، والناس يموتون، وينتقلون إلى العالم الأعلى.

٢. تهديد العيّابين الطعّانين عبدة الأموال بنار جهنّم في الآخرة (الآيات ٩-٤)

إنّ الآية الرابعة تنفي ظنّهم الباطل، وتبيّن أنّهم لن يخلدوا بالثروة؛ بل إنّ موتهم سيدركهم بالتأكيد، وأنّ عاقبة جامعي المال العيّابين الطعّانين المستهزئين هي الإلقاء بمنتهى الذلّ والخزي في «الحُطَمَة»، وهي نار تهشّم وتحطّم كلّ شيء: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾.

ثمّ يوضّح الله تعالى جسامة التهديد في الآية السابقة بإثارة سؤال عن ماهية «الحُطَمَة»: ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾. وقوله تعالى﴿وَما أَدْراكَ﴾ للسؤال عن حقيقة لا سبيل إلى إجابتها

إلّا الوحي والقرآن؛ إذ العلم والعقل عاجزان عن إدراكها.

أمّا الجواب؛ فهو أنّ «الحُطَمَة» نار إلهيّة متأجّجة: ﴿نارُ اللهِ الْموقَدَةُ﴾ التي تطبق على القلوب، فتحرق الأرواح: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾. إنّها نار تحيط بهم كاملًا حتّى باطنهم وقلوبهم، وتحرق قلوبهم وأفئدتهم باعتبارها بؤرة كلّ ذاك التكبّر والغرور، والتي ترسّخ فيها حبّ الدنيا، عقابًا لهم ونكالًا بهم على أنّهم كانوا يُحرِقون قلوب المستضعفين في الدنيا ويسخرون منهم. وإنّ إضافة «النار» إلى «الله» في قوله: ﴿نارُ اللهِ﴾ تشير إلى عظمة النار.

ويوحي تقديم «عليهم» على «مُؤصده» في: ﴿إِنَّها عليهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ بأنّ النار الإلهيّة تحيط بهم لدرجة أنّهم لا يجدون خلاصًا منها، وأنّهم سيُوضَعون في أعمدة ممتدّة طويلة من النار: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ ويأتي هذا أيضًا عقابًا لهم على حبّهم المال في الحياة الدنيا.

وأخيرًا؛ فقد كان التهديد في بداية السورة وفق الآيات من الأولى حتّى الثالثة، موجَّهًا إلى جامعي المال كلًّا على حدة، لكنّه في النهاية على حسب الآية الثامنة، فقد يتوجّه التهديد إليهم مجتمعين؛ لأنّ الرؤية الدنيويّة من مقتضيات جموع الدنيويّين.

النتيجة

نظرًا إلى أنّ الله تعالى فنّد الظنّ الباطل للخلود بالمال، وبيّن سوء العاقبة الدنيويّة ودخول النار الإلهيّة الموقدة في الآخرة للذين يجمعون المال معتبرين ذلك مبعث الزهو واغتياب الآخرين والطعن بهم، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**تهديد الهمّازين واللمّازين المتباهين عبدة المال، بالويل في الدنيا، وبنار الله في الآخرة**».

التدبّر في سورة العصر

التعريف بالسورة

سورة العصر، هي السورة المائة والثلاثة من المصحف الشريف؛ وتقع قبل سورة التكاثر، و بعد سورة الهمزة.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة العصر في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَ عَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَ تَوَاصَوْا۟
بِٱلْحَقِّ وَ تَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

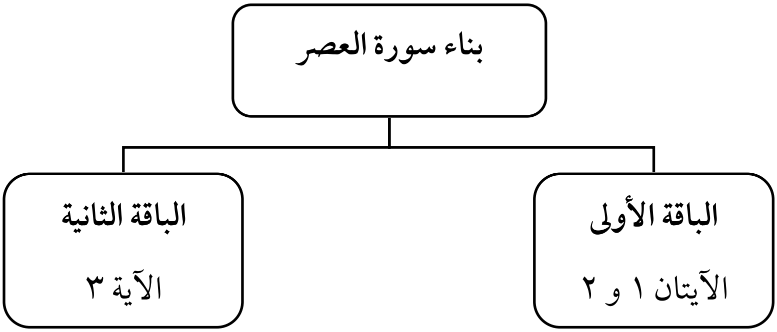

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

خُسْر: الخسران، الغبن.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تشكّل الآيات الثلاث لسورة العصر سياقًا واحدًا: فالآية الأولى قَسَمٌ، والآية الثانية جواب القسم، والآية الثالثة استثناء من الحكم في الآية السابقة.

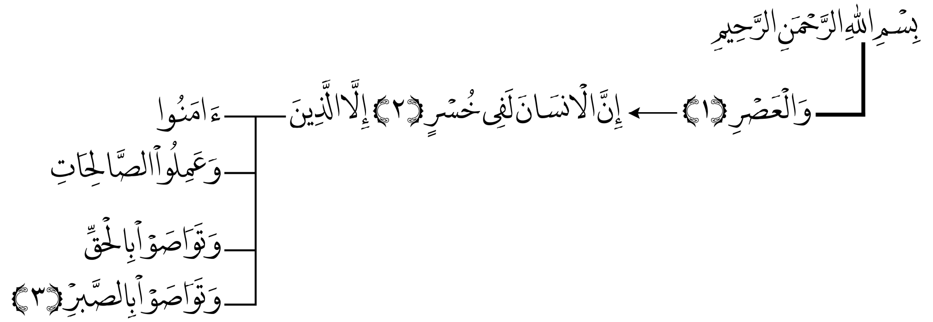

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

إنّ الدنيا في الرؤية الكونيّة الإسلاميّة تبدو بمثابة سوق يُتاجَر فيها بمتاع الآخرة، ورأسمال الإنسان في هذا السوق، هو عمره الذي يتناقص لحظة بلحظة ومع مرور الزمن، وكلّ من آمن، وعمل الصالحات أكثر، فإنّه سيكون أكثر توفيقًا في هذه التجارة. وكما يعلن الله تعالى، عن خسران الإنسان على مرّ الزمان، كذلك يبيّن سبيل النجاة من الخسران.

١ . الإعلان عن الخسران المؤكَّد للإنسان بحكم مرور الوقت (الآيتان ١ و ٢)

بدأت السورة بالقسم بالعصر، وهو الوقت الذي يكاد ينقضي فيه النهار: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وفي جواب القسم الذي يُعتبَر أصل الكلام، تُذكَر حقيقة هامّة هي خسران الناس وغبنهم بمزيد التأكيد: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. فوجود «أل» في ﴿ الْإِنسَانَ﴾ يشير إلى أنّ هذا الخسران (خسارة رأس المال) يشمل الجميع، ولا مفرّ لإنسان.

جاءت هذه النقطة مترافقة بستّة مؤكِّدات:

١ . مجئ القسم، للتأكيد: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.

٢ . وجود حرف ﴿إِنَّ﴾.

٣. إدخال لام التأكيد على الخبر: ﴿لَفِي خُسْرٍ ﴾.

٤ . مجئ «في» في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ ﴾ يفيد حالة الاستغراق في الخسران.

٥ . التنكير في قوله: ﴿خُسْرٍ﴾ من أجل إظهار فداحة الخسران وخطره.

٦ . اسميّة الجملة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ تدلّ على تأكيدٍ أكثرَ من الجملة الفعليّة.

يأتي كلّ هذا التأكيد للردّ على الشكوك التي كانت قائمة في ذلك الزمان؛ شكوك في أنّه لا يوجد أيّ خسران، وأنّ الإنسان بدون الإيمان والعمل الصالح لن يواجه أيّة مشكلة فيما يخصّ الحياة الأبدية.

وفي شرح العلاقة بين القسم وجوابه، ينبغي القول بأنّه كما يُخبرنا العصر بوقت النهار الوشيك انتهاؤه، فكذلك يحذّر أنّه ينقص من عمرك أيّها الإنسان؛ فانتبِهْ، ولا تقضِ العمر غافلًا؛ وأنّ الفُرَص تمرّ وتضيع. فكيف ببائع الثلج الذي يذوب ثلجه ولم يَبِعْه بعدُ،

فيقول: خسرت رأس مالي، فكذلك عمر الإنسان أيْ رأسماله، ينقص منه بهذه الطريقة. فإذا أنفقناه في غير طاعة الله فقد خسرناه، وذلك هو الخسران.

٢. سبيل الخلاص من الخسران هو الإيمان العلميّ والعمليّ على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ (الآية ٣)

إنّ سبيل الخلاص من هذا الخسران المحتوم هو أن يكون الإنسان من أهل الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والصبر، لأنّه لا يُستثنَى من ذلك الخسران إلّا هذه الفئة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

في هذا النموذج أُشِيرَ إلى كلا الجانبين الفرديّ والاجتماعيّ للدين: الإيمان والعمل الصالح. ينطوي هذا النموذج على الإيمان الفرديّ؛ لأنّ الجمع المعرّف بـ «أل»: ﴿الصّالِحَاتِ﴾ يفيد العموم، ويشمل جميع الأعمال الصالحة. المقصود من التواصي بالحقّ والصبر هو الإيمان الجماعيّ، لأنّ ﴿تَوَاصَوْا﴾ من باب «التفاعل» الذي يفيد المشاركة ومساهمة الأطراف في الأمر؛ لذلك ونظرًا لتجاور هذين البُعدين الدينيَّين وعطْف بعضهما على البعض فيمكن القول بأنّه ما لم نجعل من ديننا دينًا اجتماعيًّا، فإنّنا سنظلّ في خسران.

وكذلك التواصي بالحقّ؛ فإنّه أوسع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال الفقه والأحكام، ويشمل المعتقدَات أيضًا، كما أنّ الإيمان أمر اعتقاديّ أيضًا، لذلك ﴿ءَامَنُوا﴾ و ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يمثّلان مستوًى واحدًا من الإيمان، ويقعان في نطاق العلم، ولكن ﴿عَمِلُوا الصّالِحَاتِ﴾ و ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يقعان في نطاق العمل، خاصّةً أنّ كون الصبر مطلقًا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على الطاعة؛ والصبر على المعصية؛ والصبر على المصيبة.

وحريّ بنا في خاتمة الحديث أن نتطرّق إلى نقطة، وهي أنّ المراد من ﴿ءامَنوا﴾ في الآية الثالثة هو الإيمان بالوحي (القرآن) والرسالة، وليس الإيمان بالله ويوم القيامة؛ لأنّ المقصود في الاستعمالات القرآنيّة لكلمة «الإيمان» هو هذا المقصود.

النتيجة

تبدأ السورة بالقسم بالعصر، وتبيّن بذكر أهميّة الزمان الحقيقة المتمثّلة في أنّ الإنسان يتعرّض للخسران بشكل طبيعيّ على مرّ الزمن، وبالطبع تستثني السورة من هذا الحكم، أهلَ الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحقّ والصبر.

وبما أنّ أصل الكلام في أسلوب القسم يقع في جواب القسم، وتناول خسران جميع الناس في جواب القسم، وذكرت السورة في الآية الثالثة سبيل الخلاص من هذا الخسران، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ: « **مرور الزمن يقتضي خسران الإنسان؛ ماعدا أهل الإيمان**».

التدبّر في سورة التكاثر

التعريف بالسورة

سورة التكاثر هي السورة المائة والثانية من المصحف الشريف. تقع هذه السورة بعد سورة القارعة وقبل سورة العصر.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة التكاثر في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ
﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

تتكوّن سورة التكاثر بآياتها الثمانية من سياق واحد، وتقع آياتها في باقتين:

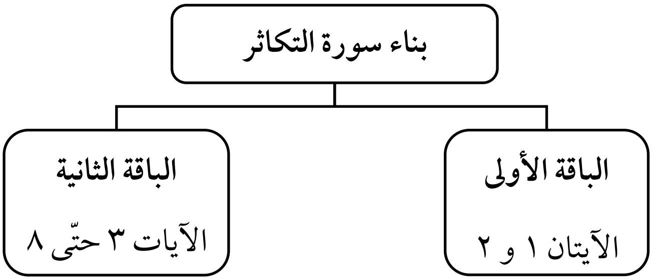

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أَلْهيكُمْ: «لَهْو» شَغَلكم عن الأهمّ.

التَكاثُرُ: «كثر» السعي الدائم للحصول على الزيادة، والتسابق في جمع الثروة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تتكوّن سورة التكاثر بآياتها الثمانية من سياق واحد، وتقع آياتها في باقتين:

الباقة الأولى. الآيتان الأولى والثانية: في الآية الثانية حرف جرّ ومجروره ﴿حتّى زُرتمُ﴾ يتعلّقان بـ ﴿أَلْهاكُمُ﴾ في الآية الأولى.

الباقة الثانية. الآيات من الثالثة حتّى الثامنة: الآية الثالثة ترتبط بالمجموعة السابقة بواسطة حرف الردع ﴿كَلّا﴾. و﴿ثُمَّ﴾ في الآية الرابعة عُطِفَ على الآية السابقة، كما أنّ ﴿كَلّا﴾ في الآية الخامسة تكرار، وتؤكّد ﴿كَلّا﴾ المذكورة في الآيتين السابقتين. ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ في الآية السادسة جواب الشرط ﴿لَوْ﴾ في الآية الخامسة، وحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في الآيتين الأخيرتين يربطهما بما قبلهما.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ ← لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في باقتين أيضًا:

لقد نزلت سورة التكاثر المباركة في أجواء كانت بعض القبائل العربيّة في زمن ظهور الإسلام تقول للرسول صلى الله عليه وآله: نحن لا نفهم قصدك من المعاد وعذاب الجحيم، ما هو؟ إنّنا لم نرَ جهنّم إلى الآن؛ لذلك كانوا غافلين عن حقيقة المعاد وعذاب الجحيم (جهنّم) التي كانت من أنباء القرآن وتبيين الرسول صلى الله عليه وآله. والله تعالى أنزل هذه السورة ليبيّن لهم أنّ التكاثر هو الذي يعيق انتباههم ويعطّل فهْمهم ويُضِلّ علْمَهم، كما وعدهم العلمَ بالمعاد وعذاب الجحيم. لذلك نتابع عمليّة فهم نصّ السورة ضمن باقتين من الآيات.

١ . غفلة الكفّار عن عذاب الجحيم جرّاء التكاثر (الآيتان ١ و ٢)

تبدأ سورة التكاثر المباركة بغية إيقاظ مخاطبيها من الغفلة عن موضوع المعاد والحساب يوم القيامة وعذاب الجحيم، كالتالي: تقول الآية الأولى للمتلقّين أنّ التكاثر بمتاع الدنيا وزينتها قد شغلكم به، ومنعكم من أمر هامّ للغاية: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. و﴿التَّكَاثُرُ﴾ هو

التظاهر بالكثرة؛ وهذه الكثرة تفتقر إلى الحقيقة والواقع؛ لأنّ متاع الدنيا بكلّ ما له من زخرف وزبرج تافه لايكاد يُذكَر. نظرًا إلى أنّ ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ مشتقّ من «لهو» بمعنى الانشغال عن الأمور الهامّة[1]، فالسؤال يدور حول الأمر الهامّ الذي شغلهم التكاثر عنه؟ على حسب مسار حديث السورة في الآيات الأخيرة التي تتعلّق برؤية الجحيم وحساب الأعمال، يكون تقدير الآية كالتالي: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ رُؤْيَةِ الْجَحِيمِ﴾.

لقد شغلكم التكاثر بالدنيا عن العلم بالمعاد وعذاب الجحيم، لدرجة أنّكم لم تتذكّروا المعاد أيضًا ولم يدبَّ خوف جهنم في قلوبكم حتّى عند زيارة القبور: ﴿حتّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حيث يُعقَد الأمل بصحوة القلوب وانتباهها. إنّ أحد مصاديق التكاثر الذي يمكن ذكره هو عدّ كثرة الأموات من أجل إثبات تفوّقهم الذي كانوا يسعون وراءه في المقابر.

٢. التذكير والمعرفة بعذاب الجحيم في الدنيا والآخرة (الآيات ٨-٣)

إلى هنا تقول السورة بأنّ الكافرين غافلون بسبب التكاثر بمتاع الدنيا وزينتها، ومحجوبون عن المعرفة والعلم بجزاء يوم المعاد، ومن هنا فما بعد تعلن بحرف ﴿كلّا﴾ أنّ هذه الغفلة لن تبقى وستزول، وأنّهم سوف ينتبهون شاؤوا أم أبوا.

وفي الآية الثالثة تبدأ السورة بالحديث عن العلم بالمعاد وعذاب الجحيم. بدأت هذه الآية بحرف ﴿كلّا﴾ الذي يُستخدَم لرفض ما قبله ونفيه؛ في حين أنّ الأمر السابق خبر صائب صحيح، وتكاثر الإنسان في الدنيا أمر واقعيّ لا يمكن نفيه، فإنّ الله تعالى لا يريد أن ينفيَ التكاثر، بل ينفي أسباب التكاثر بالدنيا مثل تجاهل عذاب الآخرة وعدم الإيمان

١. «اللَّهْوُ: ما يشغلُ الإنسانَ عمّا يعنيه ويَهُمُّه» (المفردات، ص ٧٤٨).

والتصديق به. لذلك تقول: سوف تعلمون هذه الحقيقة القيّمة عمّا قريب، وتؤكّد إمكانيّة تحقّقها بكلمة «سوف»: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾. والمرحلة الأولى في حصول العلم والمعرفة بالجحيم وجزاء يوم القيامة هي حالة الاحتضار وعند الموت. ويحمل قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ في القرآن دلالةً تحذيريّةً أشدَّ، ويُستخدَم في العلم بالمعاد.[١]

بعد حالة الاحتضار، تأتي المرحلة الثانية لمعرفة الجحيم والعلم بها، وهي عالم البرزخ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾. وبما أنّ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد الترتيب الرتبيّ والزمانيّ، فعندما تطرح الآية الثالثة العلم بالجحيم في حالة الاحتضار وعند الموت، فمن الأفضل أن يُقال إنّ المأخوذ بعين الاعتبار في هذه الآية هو العلم بالجحيم في البرزخ. بغضّ النظر عن ذلك فإنّ إيجاد دلالة جديدة أفضل من القول بالتكرار.

ويجب أيضًا ألّا نغفلَ عن الحقيقة الهامّة التي تتجسّد في وجود نوعٍ آخَر من المعرفة بالجحيم في هذه الدنيا، وهو نوع يمكن أن يتحقّق بالعلم الحصوليّ؛ أي يمكن بالعين البرزخيّة، وهي الرؤية القلبيّة التي تُعَدّ من آثار علم اليقين: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾، ويمكن نيل المعرفة بالمعاد وشهود الجحيم في هذه الدنيا: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾.

وحيث أنّ تكاثركم قد منعكم من القيام بمثل هذا العمل في الدنيا، فإنّكم لن تُحرَموا من معرفة المعاد ثانيةً، وسترونه في القيامة بعين اليقين: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ إذ ستشاهدونها بعيونكم لدى دخول نار الجحيم. وفي ذلك اليوم ستُسألون عن النعيم: ﴿ثُمَّ

١. مثل قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام، الآية ٦٧) وقوله عزّ من قائل: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة النحل، الآية ٥٥).

﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾. منهج الآيات في الحديث يدلّ على أنّ تلك النعم التي تتبوّأ الدرجة الأولى من الأهميّة، وبها يمكن العلم بالعذاب الأخرويّ وتلافي التكاثر، هما القرآن و الولاية.

النتيجة

في البداية تحذّر السورة المتلقّين من أنّ التكاثر بالدنيا وزينتها قد شغلكم وصدّكم عن أمر هامّ. ونظرًا إلى أنّ متعلّق ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ هو العلم بعذاب الجحيم، وبما أنّ تكرار حرف الردع ﴿كَلَّا﴾ وتكرار حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في آيات السورة يطرح كلّ واحد منهما مرتبة من اكتساب المعرفة والعلم بالمعاد وعذاب الجحيم، وبالنظر إلى التكرار ثانيةً ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ و﴿لَتَرَوُنَّ﴾ اللتين تَعِدان العلم بالمعاد وعذاب الجحيم، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ: «**التكاثر يمنع العلم بالمعاد وعذابِ الجحيم، وأنّ السورة تعد الإنسان العلم بذلك**».

التدبّر في سورة القارعة

التعريف بالسورة:

سورة القارعة هى السورة المائة والواحدة من المصحف الشريف، تقع هذه السورة بعد سورة العاديات، وقبل سورة التكاثر.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة القارعة في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَ تَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

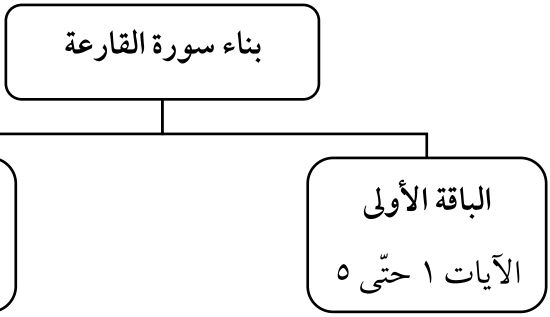

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

القَارِعَه: «قَرْع» الضرب.

المَبثُوث: «بَثّ» المنتشر.

كَالعِهنِ المَنفُوش: «نَفْش» مثل صوف مندوف للحيوان تطاير في الهواء.

مَوازَين: جمع «ميزان».

هاوِية: «هَوي» في الأصل بمعنى الميل إلى الأسفل والسقوط، وإنّها في هذه السورة اسم جهنم؛ لأنّ المذنبين يسقطون فيها.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تمّ تنظيم هذه السورة بإحدى عشرة آيةً، في سياق واحد وباقتين اثنتين:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الخامسة: والآيات الثلاث الأولى جميعها مشتركة في تكرار﴿ ٱلقارِعَةُ﴾، والآيتان الرابعة والخامسة تصفان القارعة.

الباقة الثانية. الآيات من السادسة حتّى الحاديةعشرة: الآية السادسة ترتبط بآيات المجموعة الأولى بفاء العطف. والآيتان السابعة والتاسعة جوابان للشرط المذكور في الآية السابقة لهما، أمّا الآيتان الثامنة والعاشرة أيضًا فترتبطان بما قبلهما بحروف العطف، في حين أنّ الآية الحاديةعشرة تجيب عن السؤال في الآية العاشرة، وتصف ﴿هاوِيَةٌ﴾ في الآية التاسعة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقَارِعَةُ (١)
مَا الْقَارِعَةُ (٢)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ — يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ← فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧)
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

كانت بعض الأمور التافهة في العصر الجاهلىّ، مثل: الأرستقراطيّة، والعبوديّة، والعصبيّة القَبليّة تُعتبَر ملاكًا ومعيارًا للقيمة والفضيلة، وسبب ذلك يعود إلى أنّ الناس ابتعدوا عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام، ونتيجةً لذلك كانوا يمارسون شتّى ألوان الظلم والقهر على الأبرياء، ويؤيّدون المظالم التي تُرتكَب ضدّ أولئك الأبرياء. في مثل هذه الظروف، نزلت سورة القارعة المباركة عسى أن يشرّد غفلتهم الخبرُ القارع المتعلّق بنهاية الدنيا وقيام القيامة، وعسى القوم يلتفتون إلى أنفسهم قليلًا مخافة أهوالها، ويتزوّدون لحياتهم الأخرويّة من خلال تبنّي المعايير الصحيحة في الدنيا، مادامت الفرصة سانحة؛ ومن هنا فنتابع عمليّة فهم نصّ السورة بباقتين من الآيات.

١ .التحذير بأهوال يوم القيامة، ورسم أجواء نهاية العالم (الآيات ٥-١)

هذه السورة في صدد لفت انتباه الإنسان إلى أهميّة معايير القيَم والتقييم في الدنيا، لذلك تقوم في الخطوة الأولى بإبراز «القارعة» في منظور المخاطب: ﴿القارِعَةُ﴾. والمقصود من ﴿القارِعَةُ﴾ هو سؤال يُطرَح في الآية الثانية: ﴿مَا القارِعَةُ﴾. وفي الآية الثالثة يُذكَر نفس

السؤال بتعبير مختلف ضمن خطاب للرسولﷺ، وما أدراك بحقيقة القارعة: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ لتُظهِر عظمة هذا الحدث. وسبق القول في حالة مماثلة (في سورة الهمزة) أنّ عبارة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يُستَفهَم بها عن حقيقةٍ لا سبيل إلى إجابتها إلّا الوحي والقرآن؛ إذ إنّ العلم والعقل عاجزان عن إدراكها.

والجواب أنّ «القارعة» يومٌ يكون فيه الناس كَالفَرَاشِ المـُتَطَايِرِ المـُنْتَشِر هنا وهناك[1]: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ وتكون الجبال كالصوف المتعدّد الألوان الذي يُنْفَش، فيتطاير في الهواء: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ وهذه العلامات تنبئ بنهاية نظام الكون.

٢. رسم أجواء الآخرة، وأثر الموازين الثقيلة والخفيفة (الآيات ٦-١١)

بعد وصف القارعة وأهوال ذلك اليوم، يدور الحديث من الآية السادسة حتّى نهاية السورة حول موازين[2] الأعمال:

أوّلًا: أولئك الذين ثقلت موازينهم في الدنيا والآخرة: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فيُوعَدون حياةً راضيةً في الآخرة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾. ثمّ يأتي تهديد أصحاب الموازين والمنظومة القيميّة الخفيفة في الدنيا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأنّ مأواهم في الآخرة هو

---

١. إنّ الفراشات عمرها قصير، وبعد الموت يسقطن في زاويةٍ ما. مع اقتراب يوم القيامة يتبعثر الناس بسبب قرع الأرض كالفراش المنتشر على الأرض يساورهم الخوف والهلع.

٢. «الموازين» جمع «الميزان» بمعنى معيار وملاك القياس (المفردات، ص ٨٦٨) ويُطلَق على المنظومة القِيَميّة ومجموعة المعايير التي يعترف بها كلّ إنسان، ويقيس بها الجيّد والرديء.

«الهاوية»: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.[١]

والآية العاشرة تسأل عن ماهيّة ﴿الهَاوِيَةُ﴾ لتجسّد أهميّة الهاوية وعظمتها كآخر مقصدٍ لأصحاب الموازين الخفيفة، قائلةً: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ وفي الجواب تصفها بأنّها نار شديدة الحرارة: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾. في الحقيقة تُعَدّ الآيات الأخيرة من السورة ضربًا من التحذير الموجَّه إلى الناس ليدقّقوا في اختيار موازينهم ومعاييرهم. ومن البديهيّ أنّ هذا الاهتمام يجب أن يكون في الدنيا. كما أنّ ماضويّة الفعلين ﴿ثَقُلَتْ﴾ و ﴿خَفَّتْ﴾ اللذين استُخدِما في شرح قياس الموازين، تؤيّد قولَنا هذا.

وضمير «الهاء» في عبارة ﴿مَوَازِينُهُ﴾ في الآيتين السادسة والثامنة، يوحي بأنّ مراتب الموازين لكلّ إنسان من الخفّة والثِقَل، تكون بحسب إمكاناته ومواهبه وقدراته الشخصيّة، وبالطبع فإنّ معايير الجميع وجميع المعايير تُقاس مقارنةً بالمعايير الأساسيّة والكلّيّة لكلٍّ من القرآن والعترة.

---

١. إنّ المنظومة القيميّة الثقيلة هي التي يُعتَدّ بها في ميزان القياس الإلهيّ وتُقبَل، والمنظومة القيميّة الخفيفة هي التي لا وزن لها في ميزان القياس الإلهيّ، ولا تُقبَل.كذلك تتعلّق خفّة المنظومة القيميّة بأنّها تأسّس على إيثار الدنيا والمصالح المادّيّة على الله، كما أنّها ستكون ثقيلة إذا كانت على أساس إيثار رضا الله على المصالح المادّيّة والفانية. لمزيد التوضيح راجع: الميزان، ج ٨ ، ص ١١.

النتيجة

تتحدّث السورة في البداية عن انتشار الناس من شدّة الخوف وتلاشي الجبال مشيرةً إلى قرع نهاية العالم وأهوالها وبدء القيامة لتثير انتباه الناس وتحذّرهم، ونهاية السورة التي يغلب عليها الطابع التحذيريّ، تُذكّر بمختلف الآثار الأخرويّة للموازين والمعايير القيّمة الثقيلة، والموازين الخفيفة العديمة القيمة.

نظرًا إلى أنّ المظروف مقارنةً بالظرف (الآيات ١١- ٦) يتمتّع بأهميّة كبرى، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**التحذير بأهوال يوم القيامة، ولفْت الأنظار إلى دور المعايير (الموازين) في مصير الإنسان في الآخرة**».

التدبّر في سورة العاديات

التعريف بالسورة

سورة العاديات هي السورة المائة من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الزلزال، وقبل سورة القارعة.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة العاديات في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ
ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

تضمّ سورة العاديات إحدى عشرة آية وسياقًا واحدًا، وتتألّف من باقتين

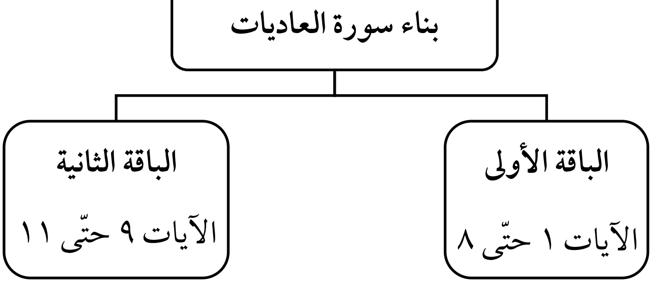

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

العَادِيات: جمع «عادِية» الخيل التي تعدو سريعًا.

ضَبْحًا: صوت أَنْفاس الخيل حين العَدْو البليغ.

المُورِيات قَدَحًا: الموريات جمع «المورية» وهي خيلٌ تقدح النّار باحتكاك حوافرها بالحجارة.

المُغِيرات: «غَوْر» الخيل التي تهجم على العدوّ مباغِتةً.

نَقْعًا: الغبار.

كَنُود: الكَفور.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تضمّ سورة العاديات إحدى عشرة آية وسياقًا واحدًا، وتتألّف من باقتين:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الثامنة: إنّ الآية الأولى قَسَمٌ، والآيتان الثانية والثالثة معطوفتان عليها، وهما بمنزلة القسم. والآيتان الرابعة والخامسة معطوفتان على الثالثة. أمّا الآية السادسة فجواب القسم، والآية السابعة إضافةً إلى العطف على السادسة، فهي مرجع ضمير «الهاء» في ﴿إِنَّهُ﴾، ويشير ﴿ذلِكَ﴾ إلى الآية السابقة. والآية الثامنة أيضًا ترتبط بالآيتين السابقتين من خلال العطف ومرجع الضمير، وجميعها في حكم القسم.

الباقة الثانية. الآيات من التاسعة حتّى الحاديةعشرة: ترتبط الآية التاسعة بالآيات السابقة بفاء العطف في: ﴿أفلا يَعلَمُ ﴾ كما أنّ أن ضمير «هو» في ﴿يَعلَمُ﴾ يرجع إلى «الإنسان» في الآيات السابقة،

والآية الحادية‌عشرة مظروف[١] لقوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ و﴿حُصِّلَ﴾ في الآيتين التاسعة والعاشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

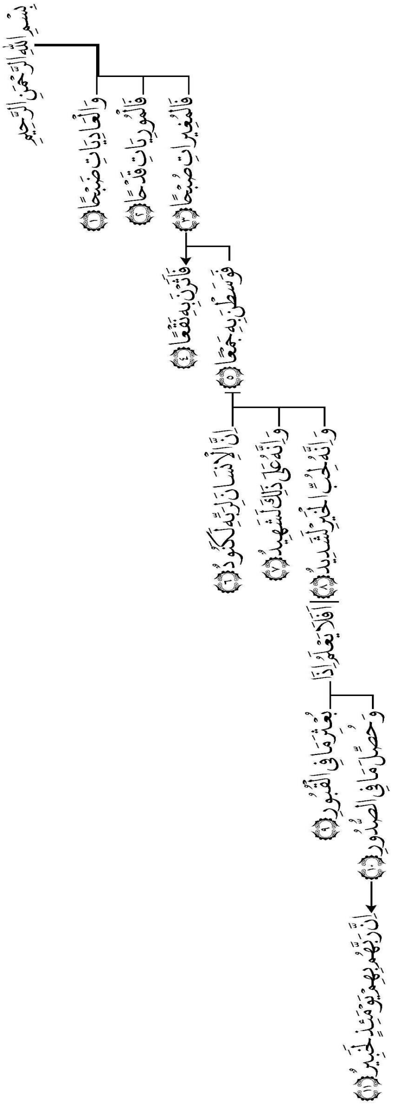

---

١. الظرف هو زمان أو مكان يفسح المجال ليتمّ فيه استعراض الطاقات والمهارات والقابليّات، والمظروف بدوره هو القابليات والطاقات التي تحتاج في حياتها وازدهارها وتفجُّرها إلى زمان أو أرضيّة ومكان.

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات، يتمّ كالتالي:

مع أنّ خالق الكون الرحيم قد خلق كلّ هذه النعم ووضعها بين يدَي الإنسان، إلّا أنّ الإنسان بسبب حبّه للدنيا، يغفل عن مظاهر الربوبيّة الإلهيّة، فيُظهِر الجحود والإعراض عن الله تعالى وعدم الرغبة. واعتبر الله أنّ جذور هذا الجحود الناجم عن حبّ الدنيا، تعود إلى غفلة الإنسان عن البعث والإحاطة الإلهيّة التامّة بذات الصدور في يوم القيامة، و لذلك أنزل السورة المباركة المسمّاة بـ العاديات.

١. حبّ الدنيا، سبب عزوف الإنسان عن الربّ (الآيات ٨-١)

إنّ الآيات النورانيّة الأولى للسورة تطرح عدة أقسام طنّانة، وتصوّر الحيويّة المتزايدة لمظاهر الربوبيّة الإلهيّة؛ ففي البداية تُقسِم بالخيل التي تعدو عدوًا بليغًا متلاحقة الأنفاس: ﴿وَالعادِياتِ ضَبْحًا﴾، وتقدح حوافرها النار لاحتكاكها بالحجارة: ﴿فَالمورِياتِ قَدْحًا﴾ وعقب ذلك تُغِير على العدوّ صباحًا: ﴿فَالمُغيراتِ صُبْحًا﴾ فتكون إغارتها سريعة وقويّة لدرجة أنّها تثير الغبار: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ وتتوسّط جموع الأعداء: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾. وهذه الأقسام بالعاديات تلمح إلى أهمّ وسيلة كان العرب يستعرضون بها قوّتهم في عصر النزول، وتصوِّر مشهدًا في منتهى الروعة والحيويّة المتزايدة لاستعراض قواهم. وقد أقسم الله بهذه النّعم التي وهبها الإنسان ليعرف قدرها وقيمتها فيشكر المنعم عليها، لكنّ الإنسان يتجاهل واهب تلك النّعَم، فيكفر به ويجحد النعمة، الأمر الذي ستشير السورة إليه تباعًا.

إنّ بدء جواب القسم بـ «إنّ» يوحي بأهميّة الحقيقة المذكورة في هذه الآيات. فالآية

الأولى في جواب القسم تخبر عن أمر هامّ، ألا وهو أنّ الإنسان القويّ والفعّال والنشيط يُعرِض عن ربّه، ويكفر بنعمة ربّه ويجحدها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾. ويؤكّد في الآية التالية وقوف الإنسان على صفته الذميمة هذه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وهو لا يخجل من كُنوده هذا. عندها يتحدّث عن شدّة حبّه للمال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ لِيعلمَ الجميع أنّ لهذه الصفة السلبيّة في الإنسان جذورًا في حبّ الدنيا.

أمّا ارتباط القسم بجوابه، فيتجلّى في أنّ الأقسام تشير إلى أجواء زاخرة بالحيويّة المتنامية في الطبيعة وتجلّيات الربوبيّة الإلهيّة، ويجيب على هذه الأقسام قائلًا: إنّ هذا الإنسان كنود جحود لكلّ هذه النعم التي وهبه الله إيّاها.

٢. الإحاطة الإلهيّة التامّة بأعمال الإنسان، وحالاته (الآيات ١١-٩)

إنّ الآيات التالية في السورة تضمّ بنية ظرفيّة (الظرف والمظروف)، وتبدأ باستفهام توبيخيّ عن زمن بعث الإنسان: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وتسأل عن حصول ما في الصدور وتجسُّده: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، ليتمّ تقصّي جذور النزعة الدنيويّة لدى الإنسان نظرًا لوجود فاء التفريع: ﴿أَفَلَا﴾، هذه النزعة التي هي السبب في كفران الإنسان وجحوده لربّه، لذلك تقول في الآية الأخيرة بأنّ الله في ذلك اليوم خبير بجميع أعمال الإنسان وأحواله بما لا يدع مجالًا للريب: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾. وتخبرنا هذه الباقة من الآيات أنّ جهل الإنسان بمعرفة الله الدقيقة في يوم القيامة هو السبب الرئيس لنزعته الدنيويّة وأنّ محبّة الدنيا هي السبب في جحوده لربّه. نعم، إنّ ذكر القيامة والالتفات إلى العلم الإلهيّ الدقيق في ذلك اليوم دواء معجز لمن يريد.

النتيجة

إنّ الآيات النورانيّة في بداية السورة بعد عدّة أقسام مدوّية، تؤكّد في جواب القسَم الذي فيه يكمن بيت القصيد، إعراضَ الإنسان عن ربّه وكُنوده لخالقه، معتبرةً هذه الرذيلة الكبرى ناجمةً عن نزعة الإنسان الدنيويّة. كذلك من الآية التاسعة حتّى الحاديةعشرة تبيّن الآيات العلم الإلهيّ الدقيق بأدقّ تفاصيل أعمال الإنسان وأحواله في القيامة، وبالتالي ترى أنّ السبب الأساس لجحود الإنسان في الدنيا هو غفلته عن المعاد وعن العلم الإلهيّ الدقيق به. لذلك، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة كالتالي: «**الغفلة عن العلم الإلهيّ الدقيق في القيامة تسبّب إعراض الإنسان وجحوده في الدنيا لربّه**».

التدبّر في سورة الزلزال

التعريف بالسورة

سورة الزلزال هي السورة التاسعة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة البيّنة، وقبل سورة العاديات. والاسم الآخر لهذه السورة هو «الزلزلة».

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الزلزال في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَ أَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَ قَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

تضمّ هذه السورة ثماني آيات في سياق واحد، وتقع الآيات في باقتين

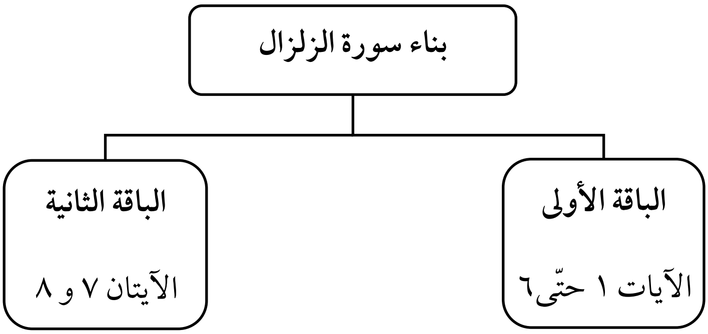

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أثقالها: جمع «ثِقْل» الأثقال.

يَصدُرُ: يخرج.

أشتاتًا: جمع «شَتات» متفرّقين.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تضمّ هذه السورة ثماني آيات في سياق واحد، وتقع الآيات في باقتين:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى السادسة: والآية الأولى ظرف، والآيتان الثانية والثالثة معطوفتان على الآية الأولى. تُعَدّ الآية الرابعة مظروفًا، والآية الخامسة تعليلًا للآية الرابعة بالنظر إلى الجار والمجرور في أوّلها: ﴿ بأنَّ ﴾ المتعلّق بالفعل ﴿تُحَدِّثُ﴾ في الآية الرابعة. أمّا الآية السادسة أيضًا فمظروف آخر يتعلّق بقيام الساعة. والضمير «ها» في آخر الآيات الخمسة يعود إلى ﴿ألارضُ﴾.

الباقة الثانية. الآيتان السابعة والثامنة، وأسلوبهما شرط: وحرف «الفاء» في بداية الآية السابعة: ﴿فَمَن يَعمَلۡ﴾ تربط آيتَي هذه الباقة بالباقة السابقة، والآية الثامنة معطوفة على الآية السابعة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا — زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ — يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ← فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

إنّ الغفلة هي المرض الذي يلازم البشر ملازمة الظلّ للظليل، ويمرّ الناس مرور الكرام بالخيرات والشرور الصغيرة غير آبهين بها. بينما الله سبحانه وتعالى يسجّل جميع أعمال الناس من سيّئات وحسنات مهما دقّت وصغرت، ليُرِيَ الإنسانَ أعمالَه كلَّها يوم القيامة. ونزلت سورة الزلزال لتزيل عن الإنسان غفلته. لذلك سنقوم بفهم نصّ السورة في سياق باقتين من الآيات.

١. مشاهدة الأعمال هي الغاية من قيام الساعة (الآيات ٦-١)

تبدأ السورة بوصف بعض الأحداث التي ستقع في نهاية العالم، لتكون براعة استهلالٍ وحُسن مطلعٍ للحقيقة التي تكون بصددها: عندما تتزلزل الأرض وترتجف بشدّة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وتُخرِج ما في جوفها من حُمَمٍ عقب هذا الزلزال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ في مثل هذه الظروف يتساءل الإنسان وقد ساوره الهلع والفزع: ما للأرض؟!: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾.

بعد هذه المقدّمة، تعلن أنّ الأرض تجيب الإنسان المندهش فتخبره بما حدث عليها:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها ﴾ أيّها الإنسان! إنّ ربّك قد أمرها بذلك: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾؛ أي أنّ الله تعالى من أجل إنهاء الدنيا وقيام الساعة، قد أوحى إلى الأرض أن تتزلزل وتُخرِج كل ما بجوفها من أثقال. بعد الزلزال وانتهاء هذا العالم، يموت الناس بمن فيهم أولئك الذين دُهِشُوا من وقوع هذه الأحداث، ويخرجون من قبورهم أصنافًا متفرّقين؛ ليُرِيَهم الله ما عملوا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتًا لِّيُرَوْا أَعْمالَهُمْ﴾.

٢. مشاهدة أدقّ الحسنات والسيّئات في يوم القيامة (الآيتان ٧ و ٨)

إنّ الآيتين الأخيرتين تبتعدان عن أجواء الآخرة والقيامة، لتعودا إلى أجواء الدنيا وتنصحان الجميع بأمر هامّ هو: بما أنّ الغاية من قيام الساعة مشاهدة الأعمال، فإنّ كلّ مَن عمل مثقال ذرّة من الخير فسيرى ذلك العمل في الآخرة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وكلّ من ارتكب مثقال ذرّة من الشرّ والسيّئات فسيراه في الآخرة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. يدلّ الفعل ﴿يَعْمَلْ ﴾ على زمن الحال والاستمرار، وهذا يعني أنّ هذا القول نصيحةٌ لنيل السعادة في الدنيا، ويؤكّد أنّ الآخرة ليس مجالًا للعمل بأيّ شكلٍ من الأشكال. فلا تغفلْ أيّها الإنسان! عن أدقّ الحسنات والسيّئات، ولا تمرَّ بها مرور الكرام.

النتيجة

إنّ بناء الباقة الأولى من آيات هذه السورة ظرف وَمظروف، أي أنّ الآيات الثلاثة الأولى تشير إلى أحداث ستقع في نهاية العالم؛ مثل الزلزال الشديد، وخروج أثقال الأرض، ودهشة الإنسان من الأحداث. ثمّ يُعبَّر في بداية الآيتين الرابعة والسادسة عن المظروف مرّتين بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ الذي يُعتبَر أصل الكلام مقارنةً بالظرف. كذلك بناء الآيات الأخيرة للسورة يتكوّن من الشرط، وإنّ الأصل في أسلوب الشرط، هو الجواب: ﴿يَرَهُ﴾.

بما أنّ الخبر عن شهادة الأرض وسبب تزلزلها وارتجافها أي امتثالها لأمر الله، يمثّل مقدّمةً لبعث الناس كي يشاهدوا أعمالهم في القيامة، ونظرًا إلى أنّ الغاية من يوم الحساب هو مشاهدة الأعمال، ومع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الآيتين السابعة والثامنة في المجموعة الثانية تطرحان موضوع مشاهدة الخير والشرّ من الأعمال في القيامة مهما دقّت وصغرت، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**لفت انتباه الإنسان إلى أنّه سيشاهد في القيامة أدقّ الحسنات والسيّئات وأصغرها**».

التدبّر في سورة البيّنة

التعريف بالسورة

سورة البيّنة هي السورة الثامنة والتسعون من المصحف الشريف. تقع هذه السورة بعد سورة القدر وقبل سورة الزلزال. لهذه السورة اسمان آخران، هما: «البريّة» و«القيّمة».[١]

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة البيّنة في إطار سياقين اثنين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَ مَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَ مَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَ يُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَ ذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَ عَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴿٨﴾

١. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٧٩١.

تتألّف سورة البيّنة بآياتها الثمانية من سياقين:

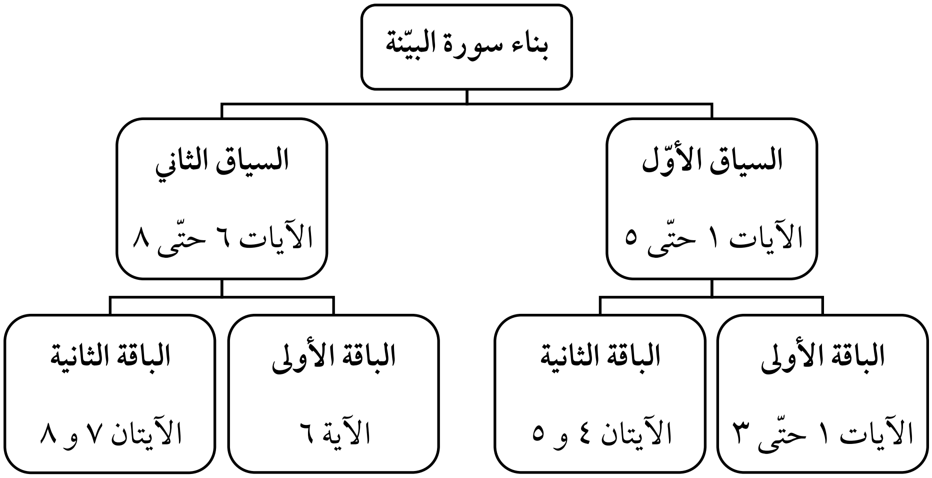

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

مُنفَكِّين: «فَكّ» منفصلين.

حُنَفاء: جمع «حَنيف» المائل إلى الحقّ، المتشبّث بالحقّ.

القَيِّمَة: «قَوَمَ» يُطلَق على الشئ المستقرّ بنفسه، والمعتمد على نفسه، وليس فيه أيّ انحرافٍ ونقص وعيب، مثل الدين الإلهيّ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ
﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَ مَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَ مَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَ يُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَ ذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥

يضمّ هذا السياق باقتين من الآيات:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الثالثة: ﴿رَسولٌ﴾ في الآية الثانية بدل من ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ في الآية الأولى، وضمير «ها» في بداية الآية الثالثة، في قوله: ﴿فيها﴾ يعود إلى ﴿صُحُفًا﴾ في الآية الثانية.

الباقة الثانية. الآيتان الرابعة والخامسة، وهما معطوفتان على بعضهما.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

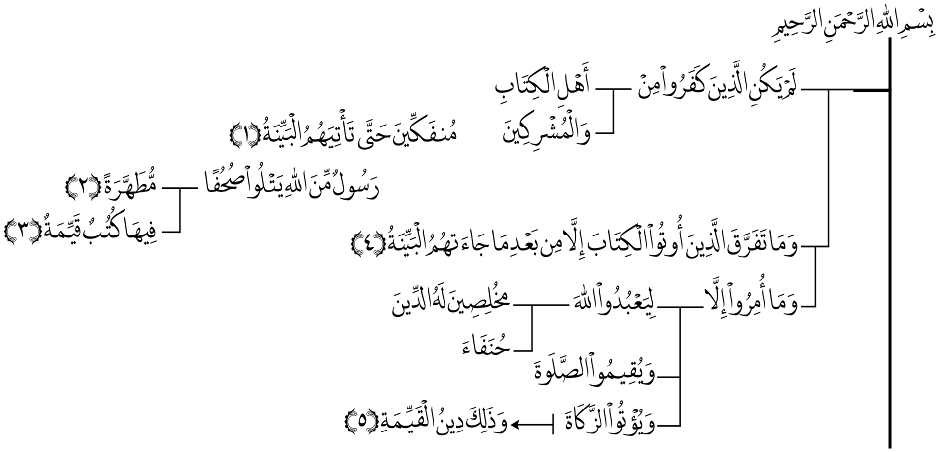

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في سياقين أيضًا:

تمثّل السورة بلاغًا نهائيًّا موجّهًا إلى العباد؛ خاصّةً أولئك الذين ينتهجون طريق الكفر، لذلك في السياق الأوّل تطرح مجئ خاتم الرسلﷺ، بمثابة بيّنة وإقامة الحجّة على الكفّار من أهل الكتاب والمشركين، وفي السياق الثاني تتناول ثواب المؤمنين بالرسولﷺ، وعقاب الكفّار به.

رسول الله ﷺ، يفرّق بين الإيمان والكفر، ويقيم الحجّة على الكفّار والمشركين (٥-١)

سنقوم بفهم نصّ السياق الأوّل من خلال باقتين من الآيات:

١. رسول الله ﷺ يحذّر الكفّار (٣-١)

في البداية تذكّر السورة أنّ الكفّار من أهل الكتاب والمشركين، لم يكونوا منفصلين عن سنّة الهداية الإلهيّة حتّى مجئ «البيّنة» (دليل واضح): ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾. بعد ذلك توضّح أنّ رسول الله ﷺ هو «البيّنة»: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾؛ يتلو عليهم صحفًا سماويّة طاهرة ومطهّرة من كلّ باطل؛ أي القرآن: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ وفي تلك الصحف أحكام وحِكَم ثابتة وقيّمة تقوّم أمر المجتمع الإنسانيّ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾. إذًا في الحقيقة مع مجئ الوحي والرسالة فقد خرج عن شمول سنّة الهداية الإلهيّة، أهلُ الكتاب والمشركين الذين لم يقبلوا بهما (الوحي والرسالة)، وهذان الاثنان (القرآن والرسول) هما البيّنة، والإيمان بهما يعيّن حدّ الإيمان والكفر.

٢. رسول الله ﷺ، يفرّق بين صفّ المؤمنين والكفّار (٤ و ٥)

إنّ الآية التالية تشير إلى أنّ التفرُّق الحاليّ في صفوف أهل الكتاب قد حصل بعد مجئ البيّنة: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، لأنّ البعض منهم قد آمنوا بهذا الرسول ودعوته، والبعض الآخر كفروا؛ بينما لم يُطالَبوا في هذه الدعوات إلّا بالعمل بالدين القيّم والتشريع القويم، وذلك يعني أن يعبدوا الله مخلصين له الدين دون الخروج عن طريق الاعتدال، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾. كانت هذه الأوامر هي نفس

الأوامر التي جاءتْهم في التوراة والإنجيل، وهذا الرفض يعود إلى ظلمهم وعنادهم اللذين يدفعان بهم إلى الوقوف في وجه البيّنة ودعوة الحقّ، والإلحاح على موقفهم المعارض.

وفي الآية الأولى جاء ذكر أهل الكتاب والمشركين معًا: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾؛ بينما لم يُذْكَرْ في الآية الرابعة إلّا الذين أوتوا الكتاب: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. هذا الاختلاف يُظهِر أنّ المراد من ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في الآية الرابعة هم علماء أهل الكتاب الذين أُوتُوا الكتاب ويعلمون مضمون الكتاب ومفاهيمه، والمقصود من أهل الكتاب في الآية الأولى هو عموم أهل الكتاب؛ بمن فيهم العالم بالكتاب والجاهل به.

ونستشفّ من مجموع آيات الباقتين الأولى والثانية، أنّ رسول الله ﷺ، في السياق الأوّل قد وُصِفَ بأنّه الفارق بين الإيمان والكفر، وأنّه أقام الحجّة على الكفّار والمشركين.

السياق الثاني: ٦ حتّى ٨

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

عَدْنٍ: جنّات الخلود.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

يضمّ هذا السياق باقتين من الآيات أيضًا:

الباقة الأولى. الآية السادسة بداية لسياق جديد. والسبب في انفصال هذا السياق عمّا

قبله هو غياب الاتصال الأدبيّ بما قبلها والارتباط اللفظيّ عن طريق الاشتراك الأسلوبيّ والتضادّ مع ما بعدها.

الباقة الثانية. تضمّ الآيتين السابعة والثامنة، حيث تقابل الآيةُ السابعة الآيةَ السادسة، والضمائر «هم» في الآية الأخيرة في قوله تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ و ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ تعود إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الآية السابعة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

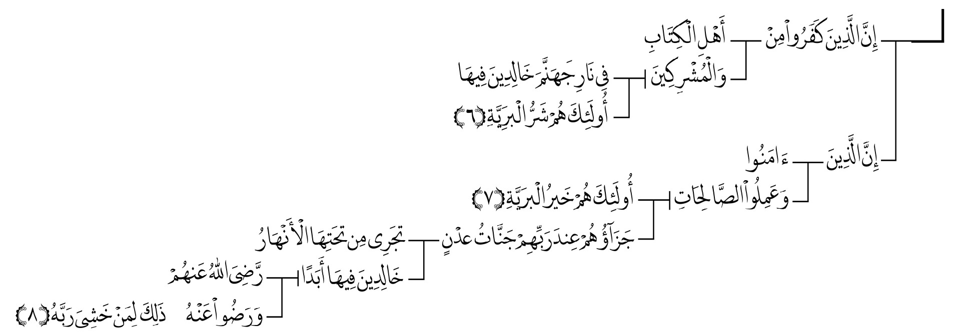

اختلاف عاقبة المؤمنين برسالة الرسول الأكرمﷺ عن عاقبة الكفّار والمشركين بها (٨-٦)

نتابع عمليّة فهم نصّ هذا السياق من خلال باقتين من الآيات، بغية تبيين عاقبة المؤمنين بالرسول الأكرمﷺ وبالقرآن الذي جاء به، وعاقبة المعرضين عن البيّنة (رسول اللهﷺ) والكفر بدعوة الحقّ التي جاء بها:

١. عقاب جهنّم، عاقبة الكفر برسول اللهﷺ (الآية ٦)

الآية السادسة تُنذِر الكفّار من أهل الكتاب، والمشركين الذين كفروا بحقيقة الوحي والرسولﷺ بأنّهم سيدخلون نار جهنّم خالدين فيها، كما وُصِفوا بكونهم شرَّ البريّة: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾.

٢. جنّات عدن ورضوان الله، عاقبة الإيمان برسول الله ﷺ (الآيتان ٧ و ٨)

في مقابل الكفّار والمشركين، فإنّ المؤمنين بالوحي ورسالة الرسول ﷺ، الذين يجعلون الصالحات نصب أعينهم، هم خير البريّة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لذلك، فإنّ جزاءهم جنّات عدن التي تجرى فيها الأنهار، وهم فيها خالدون: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وقد رضي الله عنهم ورضوا عن الله أيضًا: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وبالطبع، فإنّ رضا الله عنهم يشمل الذين يخشون عظمة ربّهم وهيبته، بالإضافة إلى الإيمان والعمل الصالح: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾. إنّ أسلوب التعبير في هذه الآيات يتميّز بذكر العلّة في النهاية، بحيث أنّ أهل الإيمان نظرًا لخشيتهم عظمة الله وهيبته، فإنّهم راضون عن الله تعالى يحمدونه ويشكرونه دائمًا، وهذا هو السبب في رضا الله عنهم، وفي النتيجة فإنّ رضا الله عنهم يُدخِلهم جنّة الخلد.[١]

وعلى ضوء آيات الباقة الأولى والثانية في السياق الثاني ندرك أنّ ثواب الإيمان برسول الله ﷺ، جنّات عدن، وأنّ عقاب الكفر به عذاب جهنّم، وهذا يُظهِر أنّ المعيار في كون المخلوق خيرًا أو شرًّا، وفي كون الشخص من أهل الجنّة أو النار هو الإيمان برسول الله ﷺ، والدين الإسلاميّ القيّم.

١. والدليل الآخر على هذا القول هو الآيتان ٢٧ و٢٨ من سورة الفجر، اللتان تعبّران عن الرجوع إلى الربّ، بتقديم رضا العبد عن الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾.

النتيجة

إنّ سُنّة الهداية الإلهيّة كانت دائمةً لإقامة الحجّة على الناس. ومادام الناس يؤمنون بالحجّة عند مجيئها فإنّهم غيرخارجين عن الهداية الإلهيّة، لكن إذا لم يؤمنوا وكفروا فقد خرجوا عن السنّة الإلهيّة، وتحوّلوا إلى شرّ الخلق، وكانوا من أهل النار. كذلك كان أهل الكتاب والمشركين في عصر الرسولﷺ؛ فمع أنّ الرسولﷺ، كان حقًّا إلّا أنّ طائفة آمنت به، ولم تؤمن طائفة أخرى. فأنزل الله تعالى سورة البيّنة في سياقين.

وفي السياق الأوّل يُفهِمهم أنّ مجيء الرسولﷺ، بمثابة البيّنة، وإقامة الحجّة عليهم. فإذا أعرضتم عن الرسولﷺ، وتعاليمه النورانيّة، فستخرجون عن شمول سنّة الهداية الإلهيّة.

وفي السياق الثاني يذكر القاعدة العامّة وثواب المؤمنين بالرسولﷺ، وعقاب المعرضين عنه؛ فالذين كفروا بالوحي والرسالة هم شرّ البريّة وأهل النار، وفي المقابل فإنّ المؤمنين بالوحي والرسالة وأهل العمل الصالح هم خير البريّة وأهل الجنّة.

وفقًا للسياقين المذكورين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ: «**الإيمان برسول اللهﷺ يفرّق بين الإيمان والكفر، ويوجِب الثواب والعقاب**».

التدبّر في سورة القدر

التعريف بالسورة

سورة القدر هي السورة السابعة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة العلق، وقبل سورة البيّنة.

ونظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة القدر في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ
٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥

تتألّف سورة القدر بآياتها الخمسة من سياق واحد

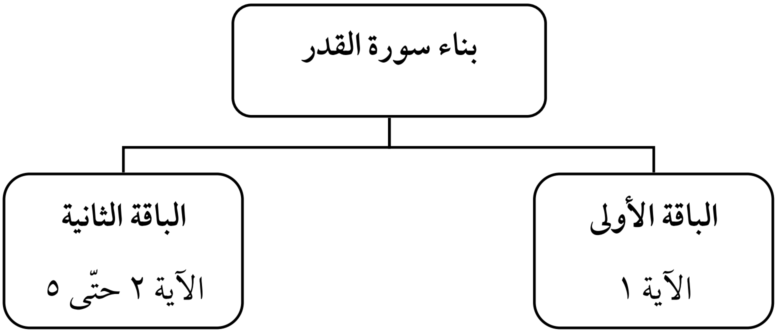

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

ما أدْريك: «دَرْي» ما أعلمك.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تتألّف سورة القدر بآياتها الخمسة من سياق واحد: الآية الأولى حتّى الثالثة مشتركة في ﴿لَيلَةُ القَدرِ﴾، والضمير «ها» في الآية الرابعة: ﴿فيها﴾ و«هي» في الآية الخامسة: ﴿هِيَ﴾ يعودان إلى ﴿لَيلَةُ القَدرِ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾
وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ — تَنَزَّلُ — الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾
سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ المنحى الإرشاديّ للآيات، يتمّ كالتالي:

على الرغم من أنّ القرآن كانت هديّة عظمى وهامّة من ربّ العالمين إلى الرسول الأكرمﷺ، إلّا أنّه كانت في المجتمع شكوك ومعارضة تُثار حول نزوله من عند الله. لذلك أنزل الله تعالى هذه السورة لكي يكسر أجواء الشكّ والإنكار، ويلفت انتباه المشركين إلى عظمة القرآن ومظاهر عظمة ليلة القدر. وعليه فنقوم بفهم نصّ السورة ضمن باقتين من الآيات:

١. تبيين عظمة القرآن (الآية ١)

يبدأ الحديث باستعراض عظمة القرآن الكريم المستمَدّة من نزوله من عند الله في ليلة

القدر، ويذكّر أنّ الله ونظام التنفيذ الإلهيّ في العالم أي الملائكة والروح، قد أنزلوا القرآن في ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. ولا شكّ في أنّ التأكيد على نزول القرآن من عند الله يمكن أن يؤدّيَ دورًا في إدراك عظمة القرآن، وأن يكسر أجواء الشكّ والمعارضة لنزول القرآن من عند الله في مجتمع يسوده الشكّ والمعارضة.

٢. بيان عظمة ظرف نزول قرآن (الآيات ٥-٢)

بعدئذٍ تطرح السورة على الرسول ﷺ سؤالًا كنائيًّا مفاده كالتالي: ما الذي أخبرك عن حقيقة ليلة القدر؟: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، فإنّها من جهةٍ تبيّن عظمة تلك الليلة، ومن جهة أخرى تدلّ على أنّ السبيل الوحيد للوصول إلى جواب هذا السؤال وتفاصيله هو الوحي والقرآن، وأنّ العقل والعلم لا يهتديان إلى جواب، كما توفّر السورة الأرضيّة لموضوع الآية الثالثة، وهو أنّ ليلة القدر خير من ألف شهر، أي ثلاثة وثمانين عامًا وأربعة أشهر: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وبعد تبيين عظمة ليلة القدر المستمدّة من نزول القرآن (التشريع)، فمازال الحديث يدور حول فضيلة ليلة القدر؛ فإنّ فضيلتها تتجسّد في نزول الملائكة والروح، حاملين التقدير التكوينيّ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ كما تتجسّد فضيلتها في أنّها كلّها سلام وأمن حتّى طلوع الفجر: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

النتيجة

يبدأ الحديث بتبيين عظمة القرآن الكريم لأنّه نزل من عند الله في ليلة القدر، ثمّ يبيّن عظمة ليلة القدر، وأنّها أفضل من ألف شهر (٨٣ عامًا وأربعة أشهرٍ)، كما أنّ التقدير ينزل في هذه الليلة، وأنّها سلام وأمن حتّى مطلع الفجر.

وينبغي العلم بأنّ تبيين خصائص ليلة القدر المميّزة يأتي كلّها ليبرهن على أنّ أهمية القرآن وعظمته بسبب نزوله في هذه الليلة. وإنّ التعبير المركزيّ لهذه السورة في الحقيقة هو الآية الأولى (نزول القرآن) التي تدلّ على المنحى الإرشاديّ للسورة. فهناك أربعة أدلّة تشير إلى محوريّة الآية الأولى من السورة كالتالي:

١. بدء الآية بـ «إِنَّ» في ﴿إِنَّا﴾ التي توحي بأهميّة الموضوع؛

٢. الضمير«نا» والفعل بصيغة المتكلّم معالغير في:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ يشيران إلى عظمة القرآن؛

٣. ضمير الغياب «ه» للقرآن في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، وبدون ذكر مرجع الضمير، فذلك كلّه يدلّ على تفخيم أمر القرآن وتعظيمه؛

٤. بداية السورة بتبيين هذه الحقيقة، وهي أنّ القرآن قد نزل في هذه الليلة.

لذلك، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة على حسب مركزيّة الآية الأولى هو: «**تبيين عظمة القرآن عن طريق مظاهر عظمة زمان نزوله (ليلة القدر)**».

التدبّر في سورة العلق

التعريف بالسورة

سورة العلق هي السورة السادسة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة التين وقبل سورة القدر.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة العلق في إطار سياقين اثنين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى
عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ
﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِى يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى
ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾
كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾
سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ﴿١٩﴾

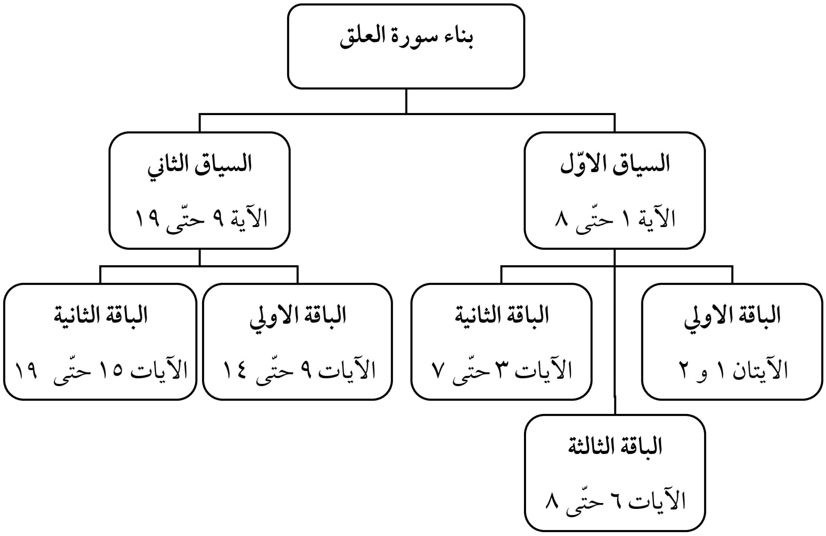

تضمّ هذه السورة تسع عشرة آية، وتتألّف من سياقين

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾
ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ
ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

عَلَق: دم غليظ جامد.

كَلّا: ليس الأمر كذلك.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

هذا السياق يضمّ ثلاث باقات من الآيات:

الباقة الأولى. الآيتان الأولى والثانية: الآيتان الأولى والثانية مشتركتان في تكرار ﴿خَلَقَ﴾، والفعل ﴿خَلَقَ﴾ في الآيه الثانية بدل من ﴿ خَلَقَ ﴾ في الآيه الأولى.

الباقة الثانية. الآيات من الثالثة حتّى الخامسة: تشترك الآية الثالثة مع الآية الأولى أسلوبيًّا بتكرار ﴿إقْرَأْ﴾. لكن بسبب الفصل البلاغيّ فإنّها تُعتبَر بدايةَ مجموعةٍ جديدةٍ. والآية الرابعة تصف ﴿رَبُّكَ﴾ في الآية الثالثة. وفي الآية الخامسة ﴿عَلَّمَ﴾ بدلٌ من ﴿عَلَّمَ﴾ في الآية الرابعة.

الباقة الثالثة. الآيات من السادسة حتّى الثامنة: الآية السادسة ترتبط بآيات الباقة الأولى بكلمة ﴿كَلَّا﴾ وهي ردٌّ لما قبلها. ويعود الضمير «ه» في ﴿رَءاهُ﴾ في الآية السابعة إلى ﴿ألإنسانَ﴾ في الآية السادسة، وفي الآية الثامنة وحدة أسلوبيّة مع الآية السادسة، وهي في المعنى حالٌ لفاعل ﴿لَيطغى﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

يأمر الله تعالى الرسول الأكرمﷺ، بتبليغ الوحي القرآنيّ (الدين) (الآيات ٨-١)

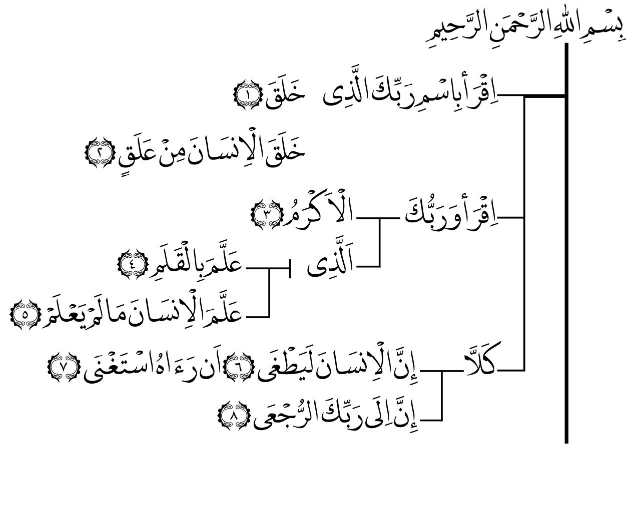

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للسورة يتمّ في سياقين أيضًا:

لقد نزلت سورة العلق المباركة في أجواء كانت أعوام كثيرة قد مضت على غروب كوكب الهداية المشعّ النبيّ عيسى المسيح، وقد عمّ ظلام الجهل والغفلة الأرجاء كلّها. في مثل تلك الظروف التي حلّت في ظلّها المعايير الدنيويّة والأغراض والتطلّعات الوضيعة محلّ معايير الحسن والفضيلة، شعر الإنسان الجاهل بالاستغناء عن ربّه، و تمرّد على التعاليم الإلهيّة بدلًا من أن يرحّب بها. عندها ربّى الله سبحانه وتعالى أَحَبَّ مخلوقات الكون وبعثه وفق سنّة الهداية الإلهيّة، ليقيم عليهم الحجّة.

سنقوم بشرح هذا السياق ضمن ثلاث باقات من الآيات:

١. يأمر الله الرسول بتلقّي الوحي منه تعالى (الآيتان ١ و٢)

سورة العلق هي بداية الوحي القرآنيّ، لذلك تدعو الرسول في الآيات الأولى إلى تلقّي الوحي من الله، قائلةً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؛ الله الذي خلق الإنسان من قطعة دم غليظ جامد: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، لتُخبِر بأنّ الله تعالى قادر على خلق الإنسان من علقة، كما أنّه قادر على هدايته أيضًا.

٢. يأمر الله تعالى بقراءة الوحي على الناس (الآيات ٥-٣)

وفي الآية الثالثة يُعاد الأمر بالقراءة: ﴿ اقْرَأْ ﴾، وبما أنّ التأسيس مقدَّم على التوكيد، وأنّ الآيات التالية تتحدّث عن تعليم الإنسان، فمن الأفضل أن نعتبر الأمر الثاني بمعنى قراءة الوحي الإلهيّ على الناس؛ على عكس الأمر الأوّل الذي كان بمعنى تلقّي الوحي. يتحقّق تأكيد هذا الأمر الإلهيّ بالإشارة إلى جلال الله وكرامته: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ وهذا

الربّ الكريم هو الذي علّم بالقلم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

ثمّ عمّم الله تعالى نعمة التعليم من رسول اللهﷺ، إلى عموم الناس، ويذكّر أنّ الله لم يعلّم جميع الناس فحسب؛ بل علّمهم ما لم يعلموا أيضًا:﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهذا بدوره يقوّي الرسول أكثر، ويعزّز ثقته بنفسه، ويجعله سعيدًا.

٣. شعور الإنسان الطاغي بالاستغناء عن الوحي (الآيات ٨-٦)

إنّ حرف الردع ﴿كَلَّا﴾ في بداية الآية السادسة، جواب على سؤال مقدّر هو: لماذا يتجاهل الناس الوحي على الرغم من وجود التعاليم الإلهيّة؟ والجواب أنّ التقصير لا يعود إلى مبلّغ الوحي بالتأكيد، بل إنّه ناجم عن طغيان الإنسان: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ عندما يشعر بالاستغناء: ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾، وعلى حسب منهج الآيات في البحث، فالمقصود هو أن يعتبر الإنسان نفسه مستغنيًا عن الوحي. لكن أيّها الرسول! لن يبقى الوضع كذلك، وفي النهاية سيعود الإنسان إلى ربّك، ويدرك ضرورة الوحي: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ وبطبيعة الحال، لن تجديه هذه المعرفة نفعًا.

ومن مجموع آيات السياق الأوّل يُستشَفّ الأمر الإلهيّ الموجّه للرسول الأكرمﷺ و الذي يهدف تبليغ الوحي القرآنيّ (الدين)؛ حيث يدعو الرسولﷺ في البداية إلى تلقّي الوحي من الله الخالق، وبعدئذٍ يتكرّر الأمر ﴿اقْرَأْ﴾، والأمر الثاني يعني قراءة الوحي الإلهيّ على الناس، على عكس الأمر الأوّل الذي كان المقصود منه تلقّي الوحي فقط، وهذه المرّة يُوصَف الله بأنّه معلّم الإنسان؛ لكنّ الإنسان يعتبر نفسه غنيًّا فيطغى ولا يقبل مشروع الهداية الإلهيّة.

السياق الثاني

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ
بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩ ۝١٩﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

تولّى: «وَلْي» أدبر.

لَنسفَعًا: «سَفْع» «اللام» في أوّله للتأكيد: سنقبض عليها ونجذبها بهوان وشدّة.

الناصِية: في الأصل بمعنى الأجزاء العلويّة من الجسم، ولهذا يطلقون «الناصية» على مقدَّم الرأس، وشَعر مقدَّم الرأس.

نادِيه: يعني الشخص الذي كان يدعوه سابقًا، مثل القوم والعشيرة.

الزَبانِية: جمع «زِبنِيَة» ملائكة العذاب، وخزنة جهنّم.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات هذا السياق تتوزّع على ثلاث باقات:

الباقة الأولى. الآيات من التاسعة حتّى الرابعةعشرة: الآية التاسعة بداية السياق الجديد، ولا ترتبط أدبيًّا بما قبلها. و﴿عَبْدًا﴾ في الآية العاشرة مفعولٌ به لـ ﴿يَنهَى﴾ في الآية التاسعة. وتخضع الآيات التاسعة والحاديةعشرة والثالثةعشرة لأسلوب واحد هو: ﴿أَرَأيتَ﴾، والضمير المستتر في ﴿كانَ﴾ في الآية الحاديةعشرة وفي ﴿أَمَرَ﴾ في الآية الثانيةعشرة يعود إلى ﴿عَبدًا﴾ في الآية العاشرة، والضمير المستتر «هو» في الآية الثالثةعشرة: ﴿كَذَّبَ وتَوَلَّى﴾

والرابعةعشرة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يعود إلى الناهي في الآية التاسعة: ﴿أَلَّذِي يَنْهَى﴾.

الباقة الثانية. الآيات من الخامسةعشرة حتّى الثامنةعشرة: ﴿كَلَّا﴾ في الآية الخامسةعشرة ردّ لما قبلها، وبهذا ترتبط بآيات الباقة السابقة. والآية السادسةعشرة توضيح ﴿النّاصية﴾ في الآية السابقة. والآية السابعةعشرة ترتبط بالآيات السابقة عن طريق الضمائر المستترة والظاهرة في ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ إضافةً إلى ارتباطها بالفاء العاطفة: ﴿فَلْيَدْعُ﴾، والآية الثامنةعشرة في مقابل الآية السابعةعشرة.

الباقة الثالثة. الآية التاسعةعشرة: هذه الآية تتّصل بما قبلها بحرف الردع ﴿كَلَّا﴾ وبالضمير «ـه» في: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

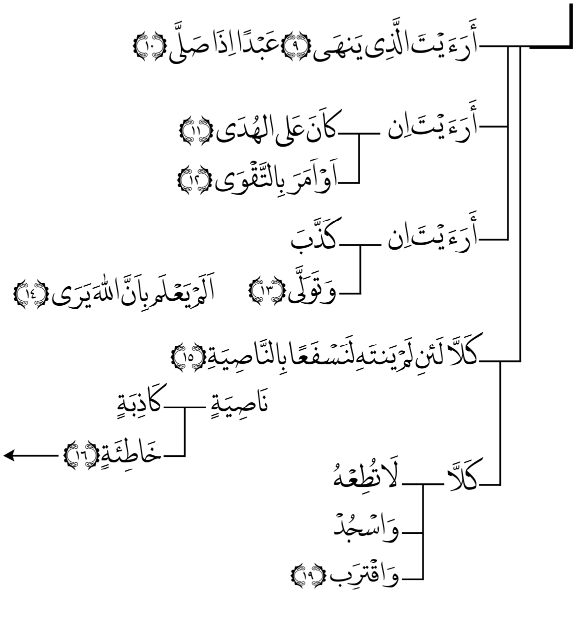

مقاومة العراقيل والتحدّيات (الآيات ١٩-٩)

شرح السياق الثاني سيتمّ ضمن ثلاث باقات من الآيات أيضًا:

١. ذكر مصاديق عن الإنسان الطاغي، وأنّ العالم محضر الله (الآيات ١٤-٩)

بعد الحديث عن تمرّد الإنسان على الخالق، والذي يُعتبَر سبب رفض الوحي، يتطرّق القرآن إلى ذكر الطغاة الذين كانوا يعيقون طريق الرسول ﷺ: أيّها الرسول! أرأيت ذلك الذي ينهى: ﴿أَرَءَيْتَ الَّذِي يَنْهَى﴾ العبد الذي يصلّي: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾؟ أرأيت إن كان ذلك المصلّي على هُدًى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أو دعا إلى تقوى الله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ فإنّه لا يجوز منْعه؟ أرأيت أيضًا إن كذّب هذا الشخص الناهي وتولّى عن الأوامر الإلهيّة: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أفلا يستحقّ العذاب الإلهيّ؟ أفلا يعلم ذلك الطاغي الذي يستغني عن الوحي الإلهيّ أنّ الله يراه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؟

٢. تهديد الإنسان الطاغي (الآيات ١٨-١٥)

وأردف يقول مهدِّدًا بأنّه ليس الأمر كما يظنّ [ذلك الطاغي]: ﴿كَلَّا﴾؛ فالله يعلم تكذيب الطغاة وعصيانهم، وكذلك يعلم أمر العباد بالتقوى والورع، لذلك إذا لم يكفَّ الطاغي عن التكذيب والتمرّد والنهي عن الصلاة، فلنأخذنَّ بشعر مقدَّم رأسه أخذًا عنيفًا، وسنجرّه إلى النار بشكل مهين:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾؛ ناصية إنسان كاذب، يخطئ في أقواله وأفعاله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. حينئذ إنْ ظنّ أنّ هناك شيئًا ينفعه، فليستنصر بأهل ناديه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾. فإنّنا نحن أيضًا سندعو ملائكة العذاب: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾.

٣. التقرّب إلى الله يرفع المعنويّات (الآية ١٩)

وفي الختام يشير إلى فشل مساعي الطغاة بحرف الردع ﴿كَلَّآ﴾، وينهى الرسولﷺ، عن طاعة ذلك الطاغية، ويأمره أن يسجد ويتقرّب إلى الله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ لأنّ التقرّب إلى الله يعزّز معنويّات رسول اللهﷺ، في مواجهة العراقيل والتحدّيات، ويثمر الكمال. إذا أردنا الوصول إلى النجاح والكمال فعلينا أن نعرض عن الطاغوت والكفر، ونتوجّه إلى الله تعالى.

مما مرّ من آيات السياق الثاني الذي يخاطب الرسولﷺ، كالسياق السابق، نستخلص المنحى الإرشاديّ لهذا السياق الذي يتمثّل في الصمود أمام العراقيل والمعارضات والتحدّيات، إذ إنّ السياق يخاطب الرسولﷺ، ثلاث مرّات بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ فيذكر الشخص الذي يمنع عبادته [الرسول الأكرم]، ويهدّده بالعذاب بعد كشف النقاب عنه، وفي الختام يطلب من الرسول الأكرمﷺ، أن لا يعير العراقيل التفاتًا، وأن يستمرَّ في عبادته وتقرّبه إلى الله، لأنّ التقرّب إلى الله وطاعته يؤدّيان إلى مواجهة العراقيل.

النتيجة

في السياق الأوّل يأمر الله تعالى الرسولﷺ بأن يتلقّى الوحي، ويمضي قائلًا بإعادة الأمر ﴿اقْرَأْ﴾، فيأمره بقراءة الوحي الإلهيّ على الناس. ومع ذلك، فالإنسان الطاغي لا يقبل الهداية.

وفي السياق الثاني يتوعّد الذي ينهى الرسول الأكرم ﷺ عن العبادة بالعذاب، ويدعو الرسولﷺ إلى أن لا يكترث بالعراقيل، وأن يستمرّ في عبادة الله؛ لأنّ التقرّب إلى الله وطاعته سبب لمواجهة العراقيل.

على حسب السياقين المذكورين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**الدعوة لتبليغ الدين على الرغم من المعارضات**»

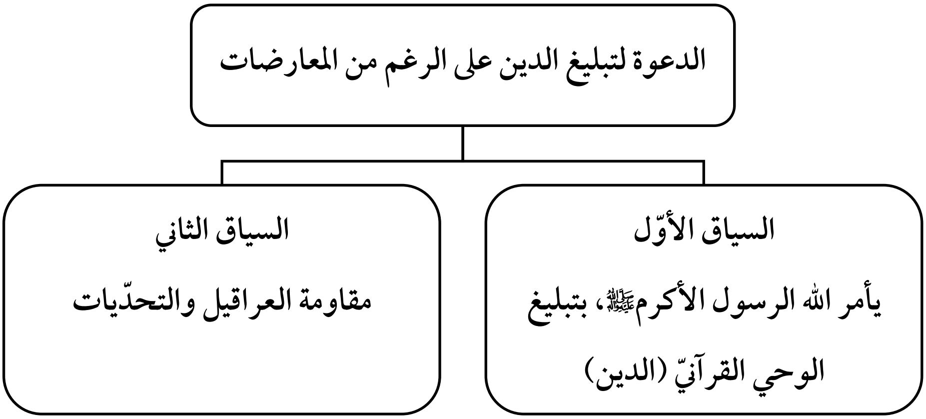

التدبّر في سورة التين

التعريف بالسورة

سورة التين هي السورة الخامسة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الشرح وقبل سورة العلق.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة التين في إطار باقتين من الآيات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
وَ ٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَ طُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَ هَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ
أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

تضمّ هذه السورة ثماني آيات، وتتألّف من سياق واحد

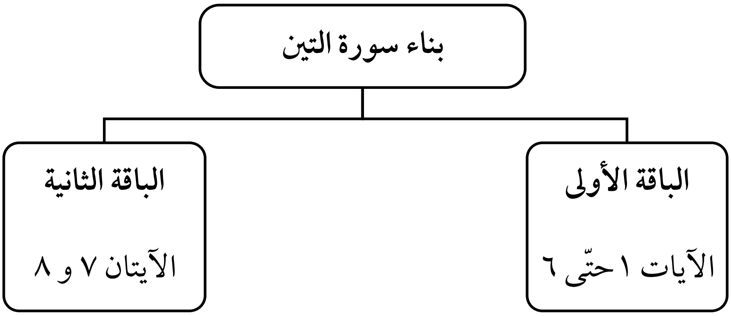

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

مَمْنُون: «مَنّ» أجر دائم غير منقوص، وغير مقطوع.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى السادسة: ﴿وَالتِّينِ﴾ في الآية الأولى قَسَم، وما يليه حتّى الآية الثالثة معطوف عليه وهو في حكم القسم. والآية الرابعة جواب القسم، والخامسة معطوفة عليها، والآية السادسة مستثناة من الحكم المذكور في الآية الخامسة.

الباقة الثانية. الآيتان السابعة والثامنة: الآية السابعة ترتبط بآيات الباقة السابقة بالفاء العاطفة، والآية الثامنة امتداد للآية السابعة بالاستفهام التقريريّ.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

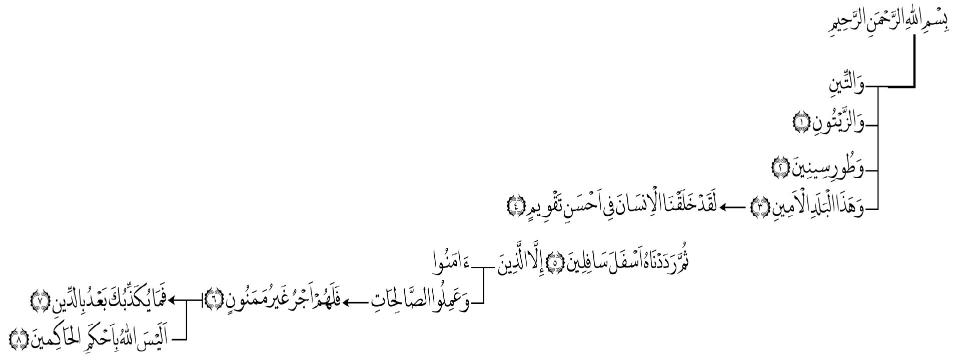

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

بعد مرور فترة على ظهور الرسول الأكرمﷺ، راح جماعة يكذّبون الرسول الأكرمﷺ، لأنّه جاء بدين الإسلام، ويزرعون الشكّ والإنكار في قلوب الناس قائلين: إنّ هذا الدين لا يناسبنا. فأنزل الله تعالى سورة التين مؤكّدًا أنّنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم لتلقّي

الوحي ودين الحقّ، وأنّ الدين فطرة كلّ إنسان، كما أنّه يوبّخ المكذّبين ويتوعّدهم. لذلك سنقوم بفهم نصّ السورة من خلال باقتين من الآيات:

١. خلق الإنسان بأحسن تقويم من أجل الإيمان بالوحي (الآيات ١-٦)

إنّ السورة تبدأ بأربعة أقسام لتشير إلى صياغة الوحي والدين وفق فطرة الإنسان الرّبانيّة وإيقاظها وازدهارها، أمّا القَسَم الأوّل فهو القسم بالتين والزيتون: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وبعده القسم بطور سيناء مهبط الوحي إلى النبيّ موسى عليه السلام: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، و من ثمّ القسم بأرض مكّة الآمنة محلّ نزول الوحي على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾. والقسم بمكّة وطور سيناء يدلّ على أنّ المراد من التين والزيتون في الآية الأولى هو أرض دمشق والقدس أيضًا، حيث لهاتين الفاكهتين دور هامّ في توفير الغذاء هناك، وكما أنّهما تشيران إلى محلّ بعثة سيّدنا نوح عليه السلام في دمشق والنبيّ عيسى عليه السلام في القدس. وفي الواقع حلف الله في هذه الأقسام بمراكز نزول الوحي ومواطن الرسل.

إضافةً إلى أنّ جواب القسم هو الأصل في الكلام، فقد جاء الجواب مؤكّدًا بتوكيدين اثنين هما: «اللام» و«قد»، حيث يؤكّد أنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وشكل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. والعلاقة بين القسم وجوابه تُظهِر حقيقةً هي أنّ الخَلْق الإلهيّ الأحسن يقتضي قبول الوحي والرسالة؛ لأنّه تعالى أقسم بمواضع تجلّي الوحي، وذلك يفيد أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان بأحسن تقويمٍ ليقبل الوحي، وهذا

نفس الكلام القائل بأنّ لغة الوحي هي لغة فطرة الإنسان، والدين فطرة الإنسان.[١]

مع أنّ قبول الوحي فطريّ، إلّا أنّ هناك فئةً لا تقبله، لذلك يردّها الله إلى أسفل السافلين: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. وتكشف الآية التالية عن سبب هذا الانحطاط، إذ تستثني الذين آمنوا وعملوا الصالحات من عداد السافلين، وتَعِدُهم أجرًا غير ممنون: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

إنّ التقدير الإلهيّ يجري ليصبح الإنسان سماويًّا، لكن بما أنّ العالم الترابيّ هو دار بلاء وامتحان، فإنّ من يخالف فطرته ويُؤْثِر أهل الأرض على أهل السماء، ولا يؤمن مخالفًا عقلَه وفطرته، فإنّ الله يرميه في وادي الظلمة والبؤس ليسقط في أسفل السافلين، ويوضّح أنّ الإنسان خليفة الله فإذا تحرّك خلافًا لفطرته المطابقة للدين والوحي، فإنّ مكانه في الدرك الأسفل من النار[٢]؛ إلّا الذين تزيّنوا بثوب الهداية القشيب، وتتوّجوا بهداية الإيمان والعمل الصالح، فإنّ لهم في دار الخلود أجرًا غير مقطوع.

٢. تهديد مكذّبي الوحي والرسالة (الآيتان ٧ و٨)

تواصل الآية الحديث بلهجة توبيخيّة تقريعيّة قائلةً: يا رسول الله! والآن إذ وهب الله الحكيم جميع الناس خلقةً متناسبة مع الوحي، فمن ذا الذي يكذّبك بعد هذا الخلق

١. كما عبّر في آية أخرى عن تلاؤم الدين والفطرة كما يلي: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم/ ٣٠).

٢. للتعرّف على الجماعة التي أُطلِقت عليها «أسفل سافلين» في القرآن، يمكن أن نجد الجواب في الآية ١٤٥ من سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾.

الأحسن من أجل إتيان الدين (الوحي والرسالة): ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾. أفلا يعلم أنّ الله أفضل حكَمٍ؟: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ وأنّه يعلم بأولئك الذين يسعون لتكذيب الوحي؟ فالذين يعملون على تكذيب الوحي يسيرون في الحقيقة على خلاف فطرتهم، لأنّ خلقة الإنسان الأولى على أحسن تقويم، وتنطبق بشكل كامل مع الإيمان بالوحي.

إذن اتّضح أنّ معنى الآية ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ليس هذا: ما الذي يقودك إلى التكذيب بيوم القيامة، لأنّ:

١. هيئة ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ التي تتكوّن من فعل وفاعل ومفعول، تعني يُكذّبك أنت، وليس ما يقودك للتكذيب.

٢. في الاستعمال القرآنيّ «يومُ الدين» يعني يومَ القيامة مثل: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[١] و«دين» كما يقتضى ظاهر اللفظ بمعنى الدين في المصطلح مثل: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلامُ﴾.[٢]

فإذا أُشكِلَ أنّ «ما» الموصولة تُستخدَم لغير ذوي العقول، لذلك لا يجوز تفسيرها بذوي العقول، فالجواب أنّ «ما» الموصولة في القرآن الكريم تُستعمَل في ثلاثة وجوه: الأوّل لغير ذوي العقول مثل: ﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عليكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[٣]؛ والآخر لذوي العقول مثل: ﴿وَالسَّماءِ وَما بَناها وَالْأَرْضِ وَما

١. سورة الحمد، الآية ٤.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٩.

٣. سورة الأنعام، الآية ١١٩.

طَحَاها﴾[١] والثالث أعمّ من ذوي العقول وغير ذوي العقول مثل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[٢]

النتيجة

كما نشاهد في الآيات النورانيّة لسورة التين، بعد الأقسام الأربعة في بداية السورة، يؤكّد الله تعالى في جواب القسم الذي هو بيت القصيد، أنّه خلق الإنسان في أحسن تقويم ليقبلَ الوحي، بحيث يطّلع الجميع على أنّ هذا الدين إلهيّ، ويعترفون بعظمته وجلاله.

وتواصل الآية الحديث بالتوبيخ والوعيد قائلةً: يا رسول الله! من ذا الذي يكذّبك بإتيان الدين بعد أن خلقه الله في أحسن تقويم؟ أَوَلا يعلم أنّ الله أحكم الحاكمين؟

على حسب جواب القسم الذي يفيد بأنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم من أجل قبول الوحي والرسالة، وطبقًا للآيات الأخيرة من السورة التي توحي بأنّ الله أحكم الحاكمين، ونظرًا إلى توجيه اللوم والتوبيخ إلى الذين يكذّبون بالدين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**تهديد المكذّبين بالوحي والنّبوة على الرغم من تلاؤم الدين مع خلقتهم (فطرتهم) للإيمان بالوحي**».

١. سورة الشمس، الآيتان ٥ و ٦.

٢. سورة الحشر، الآية ١.

التدبّر في سورة الشرح

التعريف بالسورة

سورة الشرح هي السورة الرابعة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الضحى وقبل سورة التين.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الشرح في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَ وَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

تضمّ هذه السورة ثماني آيات، وتتألّف من سياقين:

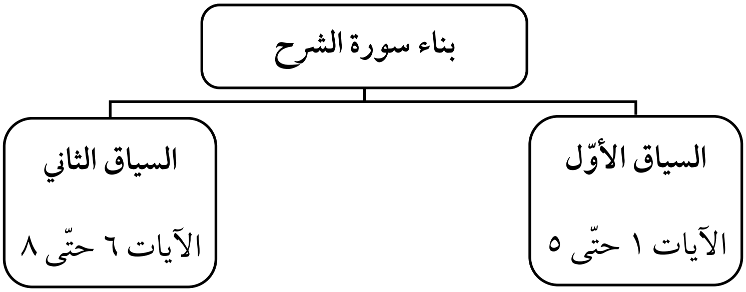

لقد نزلت سورة الشرح المباركة في أجواء كان فيها الرسولﷺ، يستعين بالله ليتمكّن من تأدية الرسالة إلى غاية القصد، وذلك كلّه على الرغم من الشدائد والصعاب الكثيرة التي كان يلقاها في سبيل هداية المجتمع؛ لأنّه كان يتعامل مع أعتى الناس في الكفر والجمود والتعصّب.

لذلك نزلت سورة الشرح المباركة لتشجّع على مواجهة المشاكل في سبيل الله، وتحثّ على إعادة بذل الجهود، وتنير الدرب علينا ضمن سياقين:

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَ وَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أَلَمْ نَشْرَحْ: ألم نوسّع، (توسيع صدر الإنسان ورفع ضيقه ليكون مستعدًّا لقبول النور الإلهيّ والإيمان).

وِزرَكَ: الحمل الثقيل الذي كان يُرهِق كاهل الرسولﷺ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

السياق الأوّل: الآيات من الأولى حتّى الخامسة: الآية الثانية معطوفة على الأولى. الآية الثالثة بحسب الموصول﴿أَلَّذي﴾ تصف ﴿وِزرَكَ ﴾ في الآية السابقة. كما أنّ الآيتين الرابعة والخامسة معطوفتان على الآيات السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

الإنجازات الراهنة للرسول صلى الله عليه وآله ثمرة تحمُّل الصعاب السابقة (٥-١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾
وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ← فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾

إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ﴿٦﴾ ← فَإِذَا فَرَغۡتَ — فَٱنصَبۡ ﴿٧﴾
وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴿٨﴾

تبدأ السورة بمقدّمة التفضّل على الرسول صلى الله عليه وآله، وبدايةً تذكّره بثلاث نِعَم مهداة له:

إنّ شرح الصدر أوّل نعمة يذكّر بها الله رسوله صلى الله عليه وآله عبر الاستفهام التقريريّ، ويقول: ألم نشرح لك صدرك لتقدر على تحمّل حقائق الوحي ومعارفه وتحمُّل أذى الأعداء: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾؟ فالله تعالى وهبه سعة الصدر ليكون قادرًا على احتمال حقائق الوحي ومعارفه، وتحمُّل أذى الأعداء. بعبارة أخرى فقد جعل الله نفسه الشريفة قويّة بحيث تنال أقصى مراتب الاستعداد لقبول الفيوضات الإلهيّة.

النعمة الثانية هي أنّه تعالي رفع الرسالة عن كاهل الرسول صلى الله عليه وآله باعتبارها حملًا ثقيلًا: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾، لأنّ أمر الرسالة ودعوة الناس أثقل ما يمكن إلقاؤهما من حمْلٍ على عاتق إنسان. لقد كان ذلك الحمل ثقيلًا ومهمًّا لدرجة أنّه كاد أن يحني ظهر الرسول: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾.

النعمة الثالثة، إعلاء ذكر رسول اللهﷺ تيسيرًا لأمر الدعوة: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾، لدرجة أنّ اسمه مازال يفوق الأسماء كلّها.

ومع أنّ الفعل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ في المعنى ماضٍ، ويُفسَّر بـ «ما شَرَحْنا»، لكن هذه البنية تختلف عمّا إذا كان اللفظ ماضيًا أيضًا، لذلك فإنّ كون الفعل مضارعًا في النعمة الأولى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ وكونه ماضيًا في النعمتين الأخريين: ﴿وَضَعْنَا ﴾ و﴿رَفَعْنَا ﴾ يدلّ على أنّ شرح الصدر قد حصل بعد أن خفّ حملُ الرسالة الثقيل عن كاهل الرسولﷺ، ورَفَعَ ذكره، فشرْح الصدر أكثر ما يكون في الأمور الفرديّة والشخصيّة للرسول الأكرمﷺ، والنعمتان الأخريان تكونان أكثر تعلّقًا بالقضايا الاجتماعيّة والشؤون المرتبطة بالناس.

ولم يتحقّق كلّ هذا الانتصار واليسر إلّا بناءًا على السنّة الإلهيّة الجارية الثابتة القائلة بأنّ مع كلّ عسرٍ يسرًا و فرجًا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ والتنكير في ﴿يُسْرًا﴾ للتنويع[1] ويوحي بأنّ مع كلّ عسرٍ نوعًا من الفرج. كما أنّ تقدّم ﴿الْعُسْرِ﴾ على ﴿ يُسْرًا﴾ يُفهِمنا أنّ الأصل هو العسر، واليسر أمر فرعيّ يعقب العسر.

وفي السياق الأوّل، في ضوء التذكير بالعنايات الإلهيّة الخاصّة بالرسول الأكرمﷺ بعد أن تحمّل الكثيرَ من العوائق والعُقَد في سبيل الدعوة إلى الإسلام وتأدية الرسالة، فإنّ السورة تشير إلى السنّة الإلهيّة المتمثّلة في تلازم العسر واليسر وتواؤمهما، وبهذا تعتبر أنّ إنجازاته وانتصاراته الراهنة هي ثمار لتحمّل المصاعب السابقة.

---

١. الميزان، ج ٢٠، ص ٣١٦.

السياق الثاني:

إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

فَٱنصَبْ: فاجتهِدْ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآيات من السادسة حتّى الثامنة: لا تمتّ الآية السادسة بصلة أدبيّة إلى الآيات السابقة، كما أنّها لا تُعَدّ من حيث الموضوع تأكيدًا للآية السابقة، بل لها دلالة وإفادة جديدة مستقلّة؛ لذلك فهي بداية لسياق السورة الثاني. كذلك الآيتان السابعة والثامنة معطوفتان على الآية السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

مواجهة الصعوبات لإحراز مكاسب جديدة (الآيات ٨-٦)

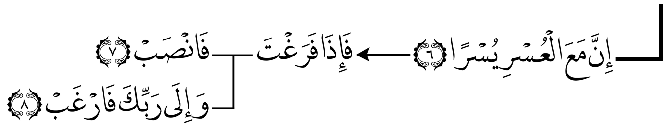

وفيما يلي، تبيّن السورة قاعدة عامّة تفيد بأنّ هذه السنّة الإلهيّة لاتزال جاريةً على الجميع، وأنّ مع كلّ عسر يسرًا: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وبالطبع فإنّ زمام العسر واليسر بيد الله دون غيره، إذًا أيّها الرسول! عليك أن تتحمّلَ صعوبات جديدة لتحقيق اليسر والمكاسب الجديدة.

وبما أنّ الآية الخامسة قد بدأت على عكس الآية السادسة بالفاء العاطفة، وبيّنت نتيجة الآيات السابقة، فيمكن القول بأنّ التأكيد حتّى الآية الخامسة كان على العسر والمصاعب الماضية التي تحملّها الرسولﷺ قبل شرح الصدر، والتي انتهت أخيرًا إلى اليسر والسهولة، والآية السادسة توضّح قاعدة عامّة هي أنّ بعد كلّ عسرٍ يسرًا سيأتي، لذلك فالأحرى بنا أن نعتبر الآية السادسة نظرة جديدة على معنى الآية الخامسة، تفيد بأنّ: هذه السُّنّة يا أيّها الرسول! لاتزال مستمرّة، وأنّ إنجازاتك المستقبليّة رهينة بها.

بعد بيان هذه القاعدة القائلة بأنّ مع كلّ عسرٍ يسرًا، ومع التأكيد على استمرار السُّنّة الإلهيّة المتمثّلة في تلازم اليسر والعسر، فإنّه يطلب من الرسولﷺ أن يستعدّ لمواجهة تحدّيات جديدة لتحقيق مكاسب جديدة، لذلك يقول: عندما تنتهي من القيام بواجبك حفِّز نفسَك على السعي مرّة أخرى، وواجِه التحدّيات: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾. وبالطبع فقد اشترط أمرًا آخر أيضًا، وهو أنّ مواجهة التحدّيات والمصاعب من أجل تحقيق الفوز، يجب أن يتمّ لابتغاء مرضات الله والفوز بها: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ وإلّا فلن تكون له قيمة.

وفي هذا السياق أيضًا بعد بيان قاعدة تلازُم اليسر والعسر، فإنّه يحثّ الرسولﷺ، ويشجّعه على مواجهة تحدّيات جديدة لإحراز نجاحات جديدة.

النتيجة

في السياق الأوّل يذكّر الربّ الرحيم الودود ببعض العنايات الخاصّة بالرسول ﷺ، وأنّها نتيجة السُّنّة الإلهيّة لتلازُم العسر واليسر، وبهذا يعتبر نجاحاته السابقة ثمرةً لتحمُّله المشقّات السابقة، وفي السياق الثاني يبيّن القاعدة العامّة مؤكِّدًا استمرار تلك السُّنّة الإلهيّة القائمة على تلازُم العسر واليسر، ويرغّب الرسول ﷺ، في مواصلة سيره رغم العقبات التي تواجهه، وفي بذل مساعيه الحثيثة في سبيل الله؛ لذلك وفي ضوء هذين السياقين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**التشجيع على مواجهة الصعاب في سبيل الله، والحثّ على تجديد المساعي**».

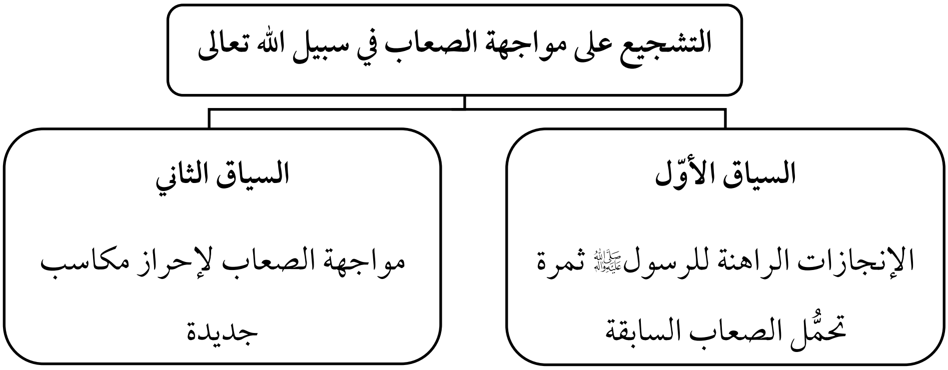

التدبّر في سورة الضحى

التعريف بالسورة

سورة الضحى هي السورة الثالثة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الليل، وقبل سورة الشرح.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الضحى في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ
مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ
ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا
تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

تضمّ هذه السورة إحدى عشرة آية، وتتألّف من سياق واحد في باقتين

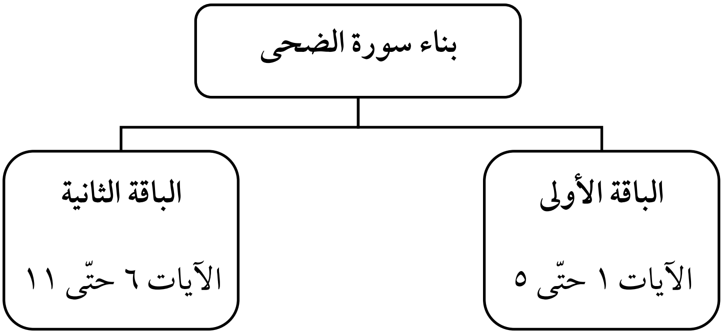

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الضُّحى: وقت طلوع الشمس وانتشار ضيائها.

سَجى: سكن، أو اشتدّ ظلامه وادلهمّ.

ما قلى: مصدره «القِلَى» بمعنى البغض الشديد الذي تظهر أماراته في سلوك الشخص، وفي هذه الآية بمعنى: « ما تركك ربّك، وما أبغضك بإبطاء الوحي عنك».

عائِلاً: «عَيْل» فقير.

لا تَنْهَرْ: «نَهْر» زجره وردعه بعنف.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تضمّ هذه السورة إحدى عشرة آية، وتتألّف من سياق واحد في باقتين:

المجموعة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الخامسة: الآية الأولى قَسَم، والآية الثانية معطوفة عليها، وهي في حكم القسم. الآية الثالثة جواب القسم، والرابعة والخامسة معطوفتان عليها.

المجموعة الثانية. الآيات من السادسة حتّى الحاديةعشرة: ترتبط الآية السادسة بالآيات السابقة بضمير «هو» المستتر في ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ﴾. لكن بسبب تغيُّر نمط التعبير تُعَدّ بدايةَ مجموعةٍ جديدةٍ. الآيتان السابعة والثامنة معطوفتان على الآية السادسة. والآية التاسعة لوجود «الفاء» في صدرها: ﴿فَأَمَّا﴾ فهي متفرّعة على الآيات السابقة، وللآيتين العاشرة والحاديةعشرة نفس الحكم بسبب عطفهما على الآية التاسعة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

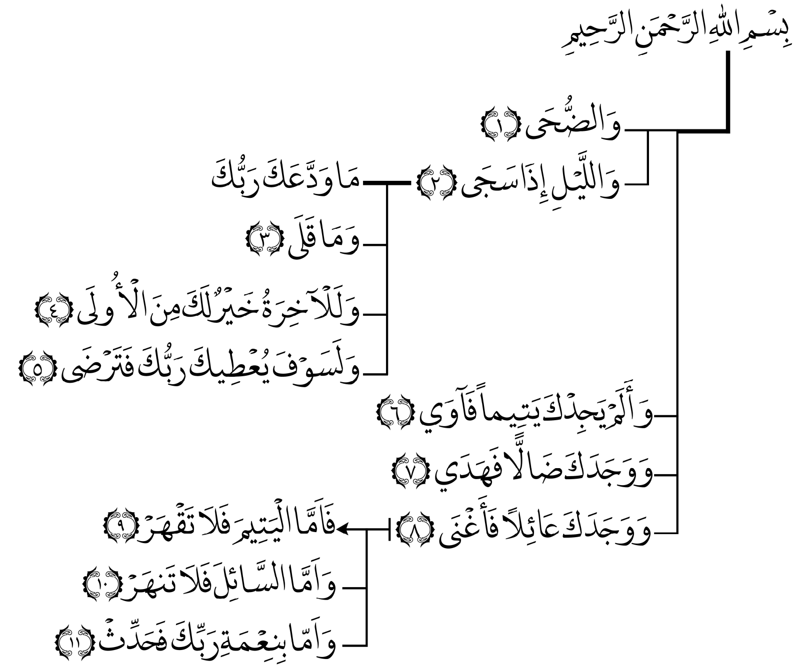

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ المنحى الإرشاديّ للآيات، يتمّ كالتالي:

لقد مرّت فترة من الزمن ولم ينزل فيها ملك الوحي على رسول الله ﷺ، ولم يأت بوحي من عند الله. فاستغلّ مشركو مكّة هذه الفرصة للطعن في الرسالة، وكانوا يقولون: لقد تركك ربّك، وبذلك كانوا يزرعون الشكّ في قلوب حديثي العهد بالإسلام، ويمارسون على الرسول ﷺ، ضغوطًا روحيّة ونفسيّة كثيرة. فأنزل الله سورة الضحى ليرفع عن الرسول ﷺ الضغوط النفسيّة والروحيّة التي خيّمت عليه بسبب انقطاع الوحي فترةً قصيرةً، وليمنحَه الأمل والسعادة، وليحثَّه أيضًا على مواصلة طريق الدعوة ومواجهة الضّجة

المفتعلَة.

من أجل مواجهة الشائعات والضجّة المثارة حول رسول الله ﷺ، وإظهار مكانته ومنزلته وعظمته عند الله، وكذلك لأجل مواساته والتعاطف معه، فقد بدأت هذه السورة بباقتين من الآيات كما يلي:

١. إزالة الأجواء المثقَّلَة بالحزن الناجمة عن انقطاع الوحي وإعطاء الرسول ﷺ، الأملَ بمستقبلٍ أمثلَ (الآيات ٥-١)

تستهلّ السورة بالقسم بضياء النهار: ﴿وَالضُّحَى﴾، ويعقبه القسم بالليل إذا ادلهمّ واشتدّ ظلامه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾. يؤكّد جواب القسم حقيقةً مفادها: أيّها الرسول! إنّ ربّك لم يدَعْك لحظةً واحدةً ولم يُبغِضْك: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾. كما أنّ مجيء «ما» النافية مرّتين في جواب القسم، يبدّد ويزيل أجواء الحزن الناتجة عن انقطاع الوحي.

والآيتان الرابعة والخامسة بجملتين موجبتين تُكمِّلان الآية الثالثة (جواب القسم) بأنّه يا رسولنا! لم يبغضك ربّك فحسب؛ بل إنّ حياتك الدنيا بما لها من أهمّيّة وعظمة ليست شيئًا يُذكَر أمام حياتك الأخرويّة، فحياتك تلك ستكون أفضلَ بكثير من حياتك هذه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ وهناك سيعطيك ربّك حتّى ترضى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وعلى هذا الأساس، يُستشَفّ من مضمون الآيتين الأخيرتين أنّه إضافةً إلى القضاء على الأجواء المأساويّة الناتجة عن انقطاع الوحي المذكورة في بداية السورة، فإنّ هاتين الآيتين تبعثان الأمل في الرسول الأكرم ﷺ بمستقبل أفضل. وإلى ذلك، فإنّ نزول الوحي يتناغم مع ضياء النهار (الضحى) وانقطاع الوحي يتناغم مع ظلمة الليل، وكلاهما يدلّ على الربوبيّة

والإدارة الإلهيّة، لذلك فإنّ انقطاع الوحي ليس مدعاةً للقلق. وتؤيّد العلاقة بين القسم وجوابه هذا المفهوم.

٢. الإمدادات السابقة دليل مؤكّد على التأييدات اللاحقة (الآيات ٦-١١)

وتتابع السورة بتوجيه عدّة أسئلة واضحة الإجابة إلى رسول الله ﷺ؛ لذلك فهي استفهام تقريريّ: ألم يجدك ربّك يتيمًا فآواك: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَي﴾؟ أولم تكن محرومًا من الوحي والهداية الإلهيّة فهداك الله بالبعثة ونزول الوحي: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَي﴾[١]؛ أوَ لم تكن فقيرًا فأغناك الله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾. من المشتركات اللفظيّة في هذه الآيات الثلاث، كلمات ﴿يَجِدْكَ﴾، ﴿وَجَدَكَ﴾ و﴿وَجَدَكَ﴾ وثلاثتها من جذر «وجد»، وتُختتم بكاف الخطاب. إنّ الربّ الكريم في هذه الأسئلة بالإشارة إلى النعم التي أعطاها الرسولَ ﷺ حتّى تلك اللحظة، ينفي كلّ انفصال وغضب وبغض بعبارات تعجّ بالمحبّة، وتزيد الرسول ﷺ تفاؤلًا وأملًا كي يُكمِل المسلك الوعر الشائك أمامه بأمن وسلام.

والله تعالى يطالب الرسول ﷺ، بمهامّ مقابل النعم المعطاة: لا تقهر اليتيم: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ولا تنهر السائل الذي يطلب منك حاجةً: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وحدّث الناس بالقرآن الذي هو نعمة الله عليك: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾. ومن السمات اللفظيّة

---

١. «الضالّ» في الاستعمال القرآنيّ هو المحروم من الهداية السماويّة. وهذا المفهوم يُطلَق على من حرموا أنفسَهم من هداية أنبياء الله ﷺ بسوء اختيارهم، وكذلك على الأنبياء ﷺ قبل بعثتهم بالرسالة ونزول الوحي. طبعًا في المفهوم الثاني تُطلَق كلمة «الضّال» على الأمم التي لم يأتِهم نبيّ من الله. كما كان العرب يسمّون قبل بعثة الرسول الأكرم «الضالّ»: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران/ ١٦٤).

للآيات الثلاث ابتداؤها بـ﴿أَمَّا﴾.

إنّ مجئ هذه الأوامر الثلاثة بعد تلك النّعم الثلاثة، نظرًا لتناسب كلّ اثنين منها، يوحي للرسولﷺ، بأنّه ينبغي أن يكون خليفة الله على الأرض؛ بمعنى أنّه كما آواك الله تعالى عندما كنت يتيمًا فعليك أن تكون إلهيًّا وتتعامل مع اليتيم بنفس الطريقة، وكما أنّ الله لم يطردك عندما كنت فقيرًا بل أغناك، فكذلك لا تنهر أنت السائل، وأخيرًا كما أنعم الله عليك وهداك بإلقاء القرآن عليك، فاهدِ الضالّين - المحرومين من الرسول والهداية - بقراءة القرآن عليهم.

إنّ الأوامر الثلاثة المذكورة في الآيات من التاسعة حتّى الحاديةعشرة ليست على مستوى واحد، لأنّ النعم والأوامر رُتِّبَت بطريقة اللفّ والنشر المشوّش، وتُستخدَم هذه المحسّنة (اللفّ والنشر المشوّش) للإبراز والتضخيم أو التأكيد؛ أي كما أنّنا لاحظنا آنفًا، تتناسب نعمة الآية السادسة مع الأمر المذكور في الآية التاسعة، والآية السابعة مع الآية الحاديةعشرة، والآية الثامنة مع الآية العاشرة. وأمّا فيما يتعلّق بالأمر المؤكَّد من بين هذه الأوامر الثلاثة، فيمكن القول بأنّه الأمر المذكور في الآية الحاديةعشرة، أي: تبليغ القرآن: ﴿وَأَمَّابِنِعۡمَةِرَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾، وذلك بثلاثة أدلّة:

١. السورة اختتمت بهذا الكلام، ولخاتمة الكلام أهميّة خاصّة.

٢. الأمر بتبليغ القرآن يتناسب مع أصل استمرار الوحي، وبثّ التفاؤل لدى الرسولﷺ، في بداية السورة.

٣. كان مقتضى ترتيب اللفّ والنشر أن تأتي الآية الحاديةعشرة أوّلًا، وبعدها الآية العاشرة، وفي الحقيقة جاء الأمر بتبليغ القرآن في غير مكانه، وحكمة هذا التغيير هي

التأكيد على هذا الأمر (تبليغ القرآن).

النتيجة

إنّ الله يؤكّد في مستهلّ السورة بأسلوب القسم حقيقةً تقول بأنّه لم يتخلَّ عن حبيبه، وليس غاضبًا عليه، وبهذا كما يواسي الرسولﷺ، يبعث فيه الأمل بمستقبلٍ أمثلَ.

بعد ذلك، ولمواجهة موجات التأليب وافتعال الأجواء ضدّ الرسولﷺ، يحثّ الله تعالى الرسولﷺ، على مواصلة الرسالة وتبليغ القرآن، من خلال تذكيره بالنعم التي حَظِيَ بها في الماضي، وأهمّها هو الهداية القرآنيّة وإعطاء الشريعة.

ونظرًا لارتباط القسم وجوابه والتذكير بالنعم الموهوبة للرسولﷺ، وإصدار ثلاثة أوامر له، وأهميّة الأمر الأخير وهو تبليغ القرآن، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو «**خلق وتعزيز الأمل و النشاط لدى الرسولﷺ، من أجل تبليغ القرآن**».

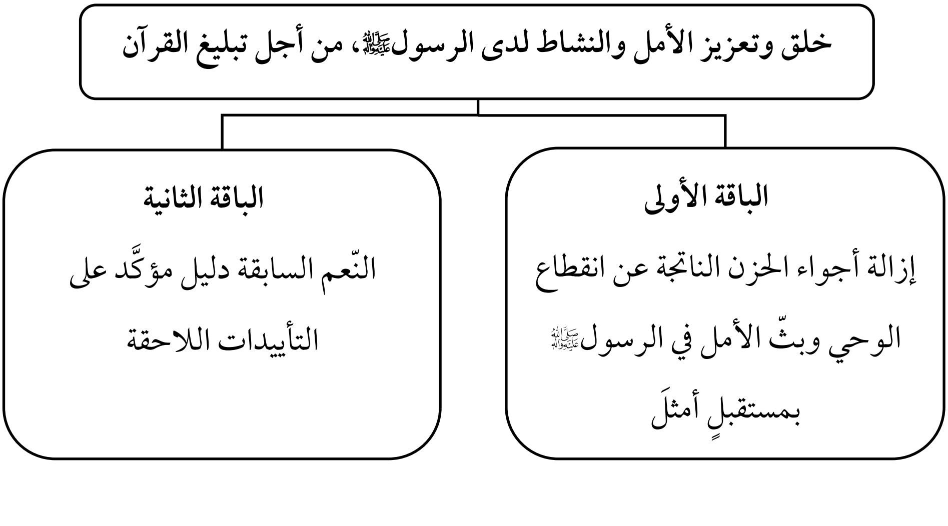

التدبّر في سورة الليل

التعريف بالسورة

سورة الليل هي السورة الثانية والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الشمس وقبل سورة الضحى.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الليل في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ
لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ
بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا
تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا
يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ
١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١

تضمّ هذه السورة واحدة وعشرين آية، وتتألّف من سياقين

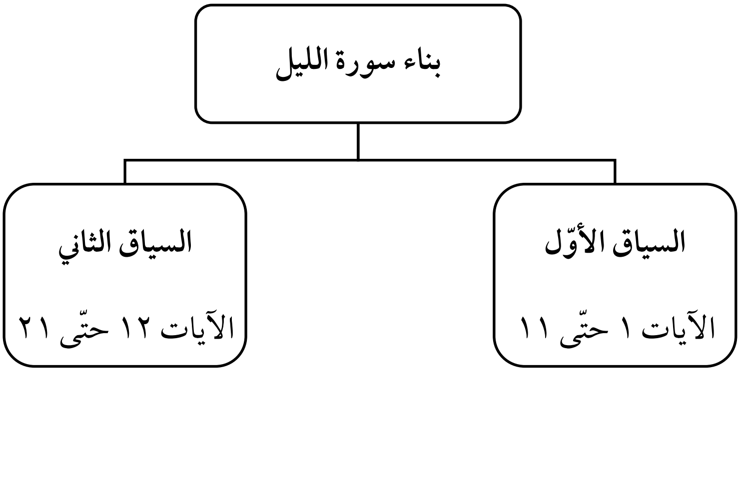

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

شَتّى: جمع شَتيت، المتفرِّق.

الحُسنى: اسم تفضيل، بمعنى الأحسن، وفي هذه السورة تعني الوعد الإلهيّ الحسَن.

تَرَدّى: أصلها «رَدْى» سقط في الهلاك.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ
لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ
بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا
تَرَدَّىٰٓ ١١

الآية الأولى قَسَمٌ، والآيتان الثانية والثالثة أيضًا في حكم القسم، لكونهما معطوفتين على الآية الأولى. الآية الرابعة جواب القسم، ويتفرّع عنها قِسمان: الفرع الأوّل هو الآيات من الخامسة حتّى السابعة، والفرع الثاني هو الآيات من الثامنة حتّى الحاديةعشرة. والآيات في كلا القِسمين معطوفة على بعضها بحرفَي «الفاء» و«الواو».

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في سياقين أيضًا:

الإنفاق الصادق يسبّب اليسر في الدنيا، والبخل المكذّب يثير المشاكل في الدنيا (١١-١)

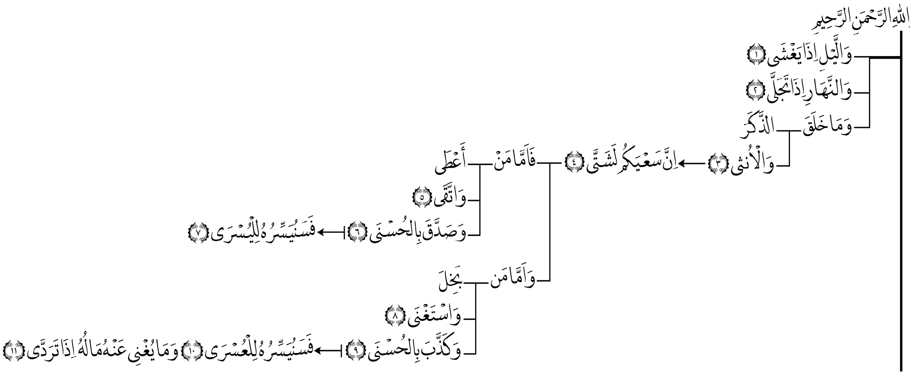

لقد نزلت سورة الليل المباركة في أجواء اختار فيها الناس للحياة الدنيويّة مسالك مختلفة. فطائفة ينفقون في سبيل الله لأنّهم صدّقوا الوعود الإلهيّة الحسنى، وطائفة أخرى يبخلون ويستغنون عن الله من منطلق تكذيبهم بتلك الوعود، فيحجمون عن الإنفاق في سبيل الله. فقد فنّد الله تعالى هذا الزعم القائل بأنّ الإنفاق سيجعلنا محتاجين، وعدم الإنفاق سيُغنِينا، كما أدحض الزعم بتساوي أثر الأعمال في الدنيا والآخرة.

كما أنّه سيتمّ في ثلاث باقات من الآيات البرهنة على أنّه كيف يمكن للإنفاق الخالص في الدنيا أن يسبّب اليسر في حياة الإنسان، وكيف يورث البخل المكذِّب المشاكلَ.

١ . سعي الإنسان مختلف (الآيات ٤-١)

تفتتح السورة بالقسم بالليل حينما يعمّ الكون بظلامه: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ وبالنّهار إذا أسفر فأضاء كلّ شيء: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وبالله الذي خلق الذكر والأنثى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. ثمّ يؤكّد على الحقيقة القائلة بأنّ الناس مختلفون في سعيهم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾.

لقد أقسم الله بالليل والنهار وبالذكر والأنثى، وهذه الظواهر أمور متباينة ومختلفة عن

بعضها، ولها آثار متضادّة، وبعد ذلك بيّن اختلاف الناس في سعيهم. كما أنّ اختلاف المساعي كبير جدًّا أحيانًا ويسير أحيانًا أخرى، تمامًا مثل الليل والنهار اللذين اختلافهما كبير؛ ولكنّ اختلاف الذكر والأنثى قليل.[١] بمقارنة الآيات المتعلّقة بالقسم وجوابها نستنتج بأنّه يمكن أن يكون اختلاف أعمال الإنسان كبيرًا مثل الليل والنهار، أو يسيرًا مثل الذكر والأنثى.

٢. الإنفاق المخلص يسبّب اليسر في الدنيا (الآيات ٧-٥)

بعد ذلك تشير الآيات إلى صنفين من الناس مختلفين في السعي، حيث إنّ العطاء النابع عن التقوى يرافقه تيسير الأمور في الدنيا، ولكن البخل المصحوب بشعور الاستغناء عن الله يسهّل الطريق ويمهّده نحو المشاكل في الدنيا.

والآية الخامسة تبيّن ضربًا واحدًا من سعي الإنسان في الدنيا: ذاك الشخص الذي يعطي على أساس تقوى الله: ﴿فأمّا مَن أعطى واتّقى﴾ ويصدّق بالوعد الإلهيّ الحسن المتعلّق بثواب عطائه: ﴿وصَدَّقَ بِالحُسنَى﴾، فإنّ الله سيسهّل أمره في الدنيا وييسّره: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسرَى﴾. ثمّ إنّ وقوع ﴿إتّقَى﴾ بعد ﴿أعطى﴾ يصف الإنسان الذي يتّسم بالتقوى في عطائه، وهذا هو الإخلاص في الإنفاق.

٣. البخل المكذّب يثير المشاكل في الدنيا (الآيات ١١-٨)

إنّ الضرب الثاني من السعي أنّ الإنسان يبخل بماله ويرى نفسه مستغنيًا بأمواله: ﴿وأمّا مَن بَخِلَ وَاستَغنَى﴾. نظرًا للآية الخامسة التي تقابل هذه الآية، فيمكن وضع ﴿بَخِلَ﴾

١. يختلف الرجل والمرأة في البنية والوظيفة، لكن قيمتهما واحدة، وكلٌّ منهما يمكن أن يغدو إنسانًا كاملًا.

مقابل ﴿أَعطى﴾ و﴿إسْتَغنَى﴾ مقابل﴿إتَّقى﴾، وبفضل مقارنة الآيات يمكن أن نستنتج أنّ الاستغناء المذكور يجب أن يكون استغناءًا عن الله، كما أنّ تقوى الله ذُكِرَت في ﴿إتَّقى﴾. ويفيد مجيء ﴿إسْتَغنَى﴾ بعد ﴿بَخِلَ﴾ بأنّ البخيل يريد ببخله الاستغناء عن الله.

والميزة الأخرى للبخيل أنّه يعدّ أفضل الوعود الإلهيّة بشأن ثواب الإنفاق كاذبًا وينكره: ﴿وكَذَّبَ بِالحُسنَى﴾. كذلك الله سييسّر عمله في الدنيا نحو المشاكل والعوائق: ﴿فسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرَى﴾ لتتولّد لديه ظروف تجعل من فعل الخير أمرًا شاقًّا متعذّرًا عليه.

كذلك توجّه الآيات تحذيرًا إلى البخيل بأنّ المال الذي يبخل بإنفاقه لن يغني عنه شيئًا عندما يموت ويتردّى في الهلاك: ﴿وما يُغنى عَنهُ مالُهُ إذا تَرَدَّي﴾، لأنّه لا يستطيع أن يأخذ معه ذلك المال من هذه الدنيا، وليس لهذا المال أن يقيه السقوط في جهنّم.[1]

ومن آيات الباقتين الأولى والثانية نستشفّ أنّ الإنفاق الخالص يسبّب اليسر في الدنيا، والبخل المكذّب يجلب العسر والمشاكل في الدنيا.

السياق الثاني

إِنَّ علَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ
إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا
لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

---

١. وقد قال الإمام الباقر عليه السلام في رواية موضِّحًا هذا المقطع من الآيات: ﴿عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ- فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي بِالْوَاحِدَةِ عَشَرَةً إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ فَمَا زَادَ- فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى، قَالَ لَا يُرِيدُ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا يَسَّرَهُ اللَّهُ لَهُ﴾ (الكافي، ج٤، ص ٤٧)

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

تَلَظّى: « لَظي» نار تتوقّد.

سَيجَنَّبُها: «جَنْب» سيبُعَد عنها.

اِبْتِغاءَ: الطلب الحثيث والإرادة الأكيدة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

إنّ الآية الثانيةعشرة تبدأ بحرف الاستئناف ﴿إِنَّ ﴾، وتغيير الموضوع من هذه الآية إلى ما بعدها يُظهِر أنّها بداية سياق جديد. والآية الثالثةعشرة معطوفة على الآية السابقة، والآية الرابعةعشرة متفرّعة عنها. الآية الخامسةعشرة وصف آخر لكلمة ﴿ نارًا﴾ في الآية الرابعةعشرة. الآية السادسةعشرة تصف ﴿أَلاشْقَى﴾ في الآية السابقة. الآية السابعةعشرة معطوفة على الآية الخامسةعشرة، وهي مثلها وصف لكلمة ﴿ نارًا﴾. ﴿ أَلَّذي﴾ في بداية الآية الثامنةعشرة تصف ﴿ألاتْقَى﴾ في الآية التي سبقتها.

والآية التاسعةعشرة حال من الفاعل لـ ﴿يَتَزَكَّى﴾ في الآية الثامنةعشرة، والآية العشرون استثناء لها. والضمير المستتر في قوله: ﴿يَرْضَى﴾ في الآية الأخيرة مثل الضمير في الآيات الثلاثة التي سبقتها يعود إلى ﴿ ألاتْقَى﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

الإنفاق يستلزم الرضوان في الآخرة، والبخلُ النارَ (الآيات ٢١-١٢)

سيتمّ بمجموعتين من الآيات إثبات أنّه كيف يستوجب الإنفاق الرضوان الإلهيّ في الآخرة، وكيف يسبّب البخل الدخول في النار.

البخل يوجب النار في الآخرة (الآيات ١٢-١٦)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾
وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ ← فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ــ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي ــ كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾

آيات القسم الثاني من السورة تجيب على سؤال يقول: هل الحكم الإلهيّ واحد في حقّ هذين الصنفين المختلفين من الناس؟

أوّلًا تؤكّد الآيات أنّ الهداية بيده القادرة: ﴿إِنَّ علينا لَلهُدَى﴾ وتقيم الحجّة على الناس بإظهار الهداية لهم. كما أنّ الدنيا والآخرة لله دون غيره: ﴿وإِنَّ لَنا لَلأَخِرَةَ والأولى﴾، إذًا لا أحدَ يستطيع أن يمنع الإرادة الإلهيّة من ترتيب نتائج مختلفة على الأعمال. يفيد تقدُّم ﴿ألأخِرَةَ﴾ على ﴿الأولى﴾ فضل الآخرة على الدنيا؛ لأنّ الغاية القصوى والمقصود الرئيس هو الآخرة، وإن كانت الدنيا مقدَّمة على الآخرة من حيث الزمان.

والآية الرابعةعشرة تستنتج من المقدّمتين المذكورتين، بتوجيه الخطاب المباشر إلى أشقى الناس، تخوّفه من دخول نار جهنّم: ﴿ فأنذَرتُكمْ نارًا تَلَظّى*لا يَصلَيها إلَّا الأشقَى ﴾ وتعتبره إنسانًا يكذّب و يتولّى: ﴿ألَّذي كَذَّبَ وتَوَلَّى﴾. نظرًا للآية ﴿وكَذَّبَ بالحُسنَى﴾ وبمقارنة الآيات، فإنّ التكذيب هو نفس اعتبار الوعود الإلهيّة الحسنى، كذبًا.

٢. الإنفاق يستلزم الرضوان في الآخرة (الآيات ١٧-٢١)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

إنّ أتقى الناس سيُبعَدون عن تلك النار: ﴿وَسَيُجَنَّبُها الاتقَى﴾. فهذا المتّقي هو الذي ينفق أمواله في سبيل الله ابتغاء التزكية والزيادة: ﴿أَلَّذي يُؤتي مالَهُ يَتَزَكَّى﴾ وبمقارنة هاتين الآيتين مع الآية الخامسة نستنتج أنّ أهمّ مصداق عمليّ للتقوى يتمثّل في إنفاق الأموال بإخلاص، والهدف منه أيضًا هو التزكية والنموّ الروحيّ، لأنّه كلّما ازداد الإنسان رغبةً واستعدادًا للترفّع عن مال الدنيا وأنفقه من صميم وجوده في سبيل رضا الله، فإنّه يتمتّع بالتقوى بالقدر نفسه.

وهذا الـمُنفق ينفق أمواله وليس لأحدٍ من الخلق حقٌّ على عاتق هذا الأتقى، لكي يجزيَه على ذلك: ﴿وما لِأحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعمَةٍ تُجزَي﴾؛ بل إنّما ينفق أمواله طلبًا لرضا ربّه الأعلى: ﴿إلَّا ابتِغاءَ وَجهِ رَبِّهِ الاعلى﴾. والسبب في هذا الكلام يعود إلى أنّ معظم الإنفاق بين الناس هو ردّ على إنفاق مماثل قام به شخص آخر. بالطبع فإنّ عرفان الجميل والردّ على الإحسان بالإحسان عمل طيّب، لكنّ حسابه منفصل عمّا ينفقه المتّقون بإخلاص.

وأخيرًا، فإنّ الثواب الجزيل لمثل هذا الإنسان هو أنّه سيرضى عمّا قريب عندما ينال مكافأة كريمة من الله: ﴿ولَسَوفَ يَرضَى﴾؛ بالضبط كما كان ينفق هو لرضا الله.

النتيجة

كما نشاهد في آيات القسم الأوّل للسورة (الآيات ٤-١١) فبعد أن أقسم الله في الآيات الثلاثة الأولى، يؤكّد على هذا أمر خطير هو أنّ سعي الناس مختلف، ولإثبات هذا الأمر يذكر موضوع الإنفاق الخالص والبخل المكذّب كمثال، وكيف أنّ الإنفاق الخالص في الدنيا ييسّر حياة الإنسان، والبخل المكذّب يعسّرها.

وفي القسم الثاني أيضًا ومع التأكيد على أنّ الهداية في يده القادرة، فينذر الناس بنار جهنّم، وبعد ذلك يجسّد الصورة الأخرويّة للإنفاق الخالص والبخل المكذّب.

نظرًا إلى أنّ السورة قد بيّنت في قسم منها مثالًا على اختلاف مساعي الناس في الدنيا، وفي قسم آخر بيّنت هذا الاختلاف في الآخرة، فيمكن اعتبار المنحى الإرشاديّ للسورة «**التنبيه إلى اختلاف نتيجة مساعي الإنسان في الدنيا والآخرة عبر مثال الإنفاق**».

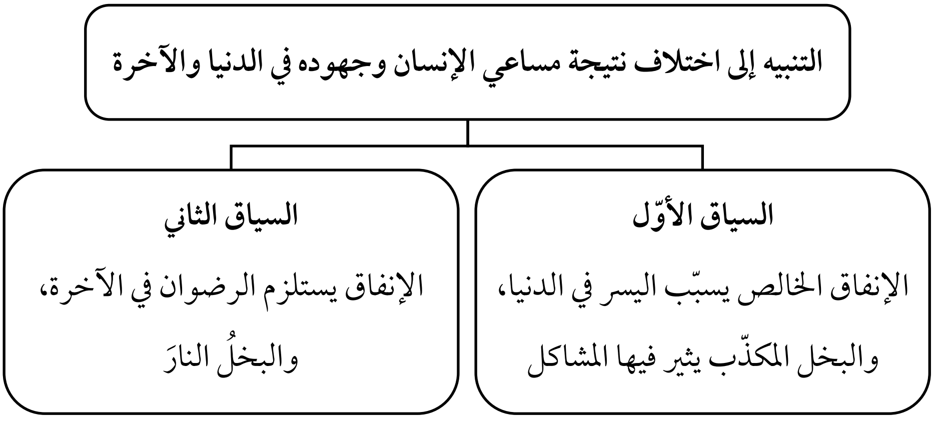

التدبّر في سورة الشمس

التعريف بالسورة

سورة الشمس هي السورة الواحدة والتسعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة البلد وقبل سورة الليل.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الشمس في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ
ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ
عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥

تضمّ هذه السورة خمس عشرة آية، وتتألّف من سياقين:

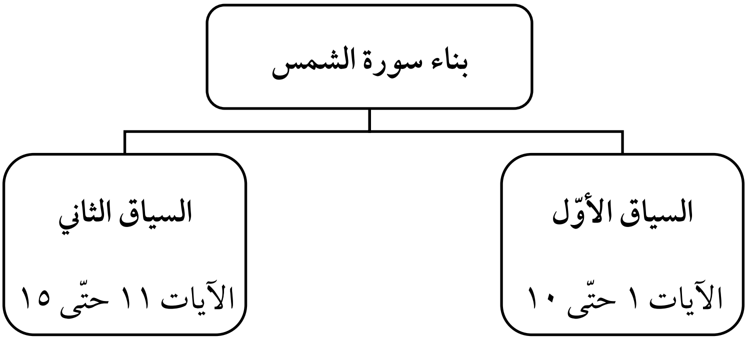

لقد نزلت سورة الشمس المباركة في أجواء كان بعض الناس يجترحون فيها أعمالًا تتّسم بميسم العتوّ والطغيان، مهمِلين لنداءات فطرتهم، تاركين تزكية نفوسهم، ومتجاهلين تعاليم القرآن، والأسوأ والأدهى من ذلك كلّه مخالفين لرسولهم، والسبب أنّهم دسّوا نفوسهم. لذلك تتناول السورة في سياقَيْها الوقاية من الانحراف الفرديّ والاجتماعيّ، وتنبيه الإنسان إلى رأسماله القيّم أي مرآة النفس الإلهيّة.

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا۝٤
وَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

تَلاها: «تُلُوّ» الوقوع بعد شيء، بحيث يكون الواحد تلو الآخر؛ وهو في الآية «والقَمَرِ إذا تَلاها» بمعنى إذا تلا القمرُ الشمسَ في الطلوع، وجاء بعدها.

طَحاها: «طَحْو» المدّ والبسط، في هذه الآية بمعنى بسْط الأرض وخلْقها.

سَوّاها: الوسطيّة والاعتدال؛ و«التسوية» تعني أن تعدّل الشيء وتجعله منظّمًا سويًّا.

خابَ: «خَوْب» مُنِعَ، حُرِمَ.

دَسّاها: الإخفاء والإخمال. الآية الشريفة تعني: «وكلّ مَن أخفى نفسَه بالمعصية والذنوب فسيخيب ويُحرَم».

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

إنّ الآية الأولى قَسَم، والآيات التالية معطوفة عليها حتّى الآية السابعة، وجميعها في حكم القسم. والآية الثامنة معطوفة على السابعة، والضمير «ها» في كلٍّ من ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ و ﴿فُجُورَهَا﴾ و﴿تَقْوَاهَا﴾، يرجع إلى ﴿نَفْسٍ﴾ في الآية السابعة، وأخيرًا الآيتان التاسعة والعاشرة جواب القسم.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

الفلاح ثمرة تزكية النفس، والخسران والخيبة مغبّة دفن المرآة الإلهيّة المتمثّلة في النفس (الآيات ١٠-١)

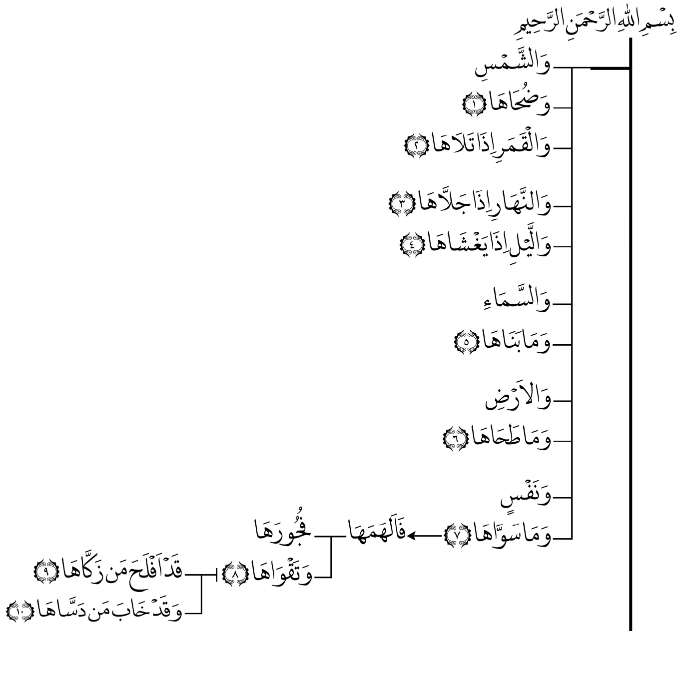

تستهلّ السورة بالقَسَم بأمور حسّيّة وغير حسّيّة:

ففي الآيات الأربعة الأولى، تقسم السورة بالظواهر الحسّيّة وتعرّفها مع ما لها من آثار: بالشمس وانتشار نورها وسط النهار: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾، وبالقمر عندما يعقب الشمس: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ ويستمدّ نوره منها، وبالنهار حين يُظهِر الشمس ويجليها: ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ وبالليل عندما يغشى وجه الشمس في أرجاء الأرض: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾. ومن منظور أوسع يمكن اعتبار النهار والليل نتيجة حركة الشمس والقمر وأثرهما.

والتعابير في هذه الآيات الأربعة تبيّن نظام الظواهر الحسّيّة ونظامها الداخليّ وأثرها، كما أنّ ﴿الشَّمْسِ﴾ في تضادّ مع ﴿الْقَمَرِ﴾ و﴿النَّهَارِ﴾ مع ﴿اللَّيْلِ﴾، بينما هناك تناسب بين ﴿الشَّمْسِ﴾ و﴿النَّهَارِ﴾ وبين ﴿الْقَمَرِ﴾ و﴿اللَّيْلِ﴾.

وفي الآيات من الخامسة حتّى السابعة تُقسِم السورة بعدّة ظواهر حسّيّة مصحوبة بقدرة خالقها غير الحسّيّة، وهي كالتالي: القسم بالسماء والقدرة التي بنتْها: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾، وبالأرض والقدرة التي بسطتْها: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾، وأخيرًا بنَفْس الإنسان والقدرة التي خلقتْها وسوّتها وعدّلت قواها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾. و اللهُ تعالى هو المراد من «ما» الموصولة في هذه الآيات ومن تلك القدرة التي خلقت الظواهر المذكورة. إنّ مجئ «ما» بدلًا من «مَن» يرمز إلى عظمة خالق هذه الظواهر والتعجُّب من قدرته العظمى.[1]

إنّ التعبير القرآنيّ في أقسام هذه السورة يلفت انتباه المتلقّي في الآيات الأربعة الأولى إلى المحسوسات، ومن ثمّ في الآيات من الخامسة حتّى السابعة يلفت انتباهه من المحسوس إلى

١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ج ١٥، ص ٣٥٩.

المعقول، وبهذه الطريقة يدلّ القارئَ على المنهج القويم في التفكير الذي يتمثّل في الانتقال من المحسوس إلى المعقول.

والآية الثامنة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ لذكر الفاء العاطفة في صدرها، تعتبر الميل إلى التقوى والابتعاد عن الفجور نتيجةَ تسوية النفْس المذكورة في الآية السابقة؛ مما يعني: أنّ الله أودع الروح وألهمها النزوعَ إلى الخير والتقوى والابتعاد عن السيّئات؛ لأنّه تعالى قد سوّى الروح وعدّلها. وبمقتضى هذه الآية فقد دلّ الله تعالى الإنسان على نهج السعادة من خلال الإلهام الفطريّ، ليسموَ الإنسان ويزدهر بفضله؛ لا أن يضمن فلاحه.

بعد أحدعشر قَسَمًا متتاليًا بعالم الإمكان والخالق والنفس البشريّة ينحصر جواب القسم في آخر القَسَم الأخير أي النفس، وبهذا يجعل النفْس البشريّة أعظم من عالم الوجود. وجواب القسم باعتباره ذروة السياق يفيد أنّ الفلاح لمن يربّي نفسَه ويزكّيها بما يتناسب والإلهامَ الإلهيّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وأنّ الخيبة والحرمان من الكمال والفلاح نصيب الذي يئد نفسه بارتكاب الذنوب: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. ومن الوضوح بمكان أنّ الإنسان إذا قاد نفسه في الاتجاه المعاكس لِطبعه، فإنّه في الحقيقة قد دفن نفسه وأخفاها، ولن يبلغ المقصود أبدًا.

ويتجلّى ارتباط الأقسام المذكورة بأجوبتها في أنّ الله الذي أعطى الشمس ذلك الأثر والقمر ذلك الفعل، ودبّر الأرض والسماء بتلك الطريقة ونظّمهما، وألهم النفس ذلك الإلهام ﴿(فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)﴾، هو الذي قرن الفلاح والفوز بتزكية النفس، والخسران

والخيبة بدسّ النفس. وفي الحقيقة يمكن القول أنّ نظام التكوين في خدمة نظام التشريع[1]؛ أعني أيّها الإنسان! لقد وفّرتُ كلّ مستلزمات سعادتك، وخلقت الشمس والقمر والسماء والأرض لخدمتك، والليل والنهار للاستراحة والعمل، ونفخت في جسمك من روح عظيمة، وألهمتُك الرغبةَ في الحسنات ومجانبةَ السيّئات لتتجنّب بتهذيب النفس وتطهير القلب، الأهواءَ والشهوات وأخلاق السوء، وبهذا الطريق تحظى بالفلاح والسعادة.

وفي هذا السياق الذي يتكوّن من القسم وجوابه، على حسب أصالة جواب القسم، يقدّم الله تعالى الفلاح بوصفه نتيجةً لتزكية النفس والخسران، والخيبة بوصفها نتيجةً لدفن المرآة الإلهيّة المتمثّلة في النفس.

السياق الثاني

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَ سُقْيَٰهَا
﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عليْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

إِذِانبَعَثَ: عندما أُرسِلَ.

دَمْدَمَ: الشمول والإحاطة والإطباق، وهو في الآية بمعنى أنّ العذاب الإلهيّ قد أطبق على قوم ثمود وأحاط بهم.

---

١. المقصود بعالم ونظام التكوين هو عالم الخلقة والوجود والقوانين التي تسوده أو نفس الفعل الإلهيّ. في المقابل نجد نظام التشريع، والمراد به نفس الشريعة، أي الأوامر والنواهي الإلهيّة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

يعود الضمير «ها» في الآية الثانيةعشرة: ﴿أَشْقَاهَا﴾ إلى﴿ثَمُودُ﴾ في الآية الحاديةعشرة. كما يعود الضمير «هُم» في كلٍّ من الآية الثالثةعشرة: ﴿لَهُمْ﴾ والرابعةعشرة: ﴿عليهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ إلى ﴿ثَمُودُ﴾ في الآية الحاديةعشرة[١]، وهو الرابط بين هذه الآيات. وفي الآية الخامسةعشرة أيضًا يرجع «هو» المستتر في ﴿لَا يخافُ﴾ باعتباره فاعلاً له، إلى ﴿رَبُّهُم﴾ في الآية السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

التنبيه إلى العاقبة المشؤومة لقوم ثمود الطغاة (الآيات ١٥-١١)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ـــ نَاقَةَ اللَّهِ

ـــ وَسُقْيَاهَا (١٣) ← فَكَذَّبُوهُ ← فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ← فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)

إنّ دسّ النفس يمكن أن يتطوّر إلى مرحلة الظهور والبروز على الصعيد الاجتماعيّ، و من شأنه أن يحرف مسار مجتمعٍ برمّته، في مثل هذه الظروف يصبح الطغيان والانسياق وراء الأهواء محورًا لاتّخاذ القرارات، حتّى أنّه لا يستطيع وضوح علامات الحقّ وحماته وحرّاسه الحيلولة دون ذلك، لهذا ذُكِرَت قصّة طغيان قوم ثمود وعاقبتهم كمصداق وشاهد على هذا الانحراف:

لقد غابت آيات الحقّ عن أعين هؤلاء القوم جرّاء طغيانهم، وفي النهاية كذّبوا رسولهم صالحًا عليه السلام :﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾. فكانت قصّة طغيانهم بحيث أنّ أشقاهم قد بُعِثَ

١. أسماء القبائل مذكّرة ومؤنّثة.

بسبب دسّ النفس وطغيانها: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ والآخرون من القوم اتّجهوا إلى هاوية العذاب الإلهيّ نتيجة صمتهم ورضاهم بذلك.[١]

لقد أخبرهم رسول الله صالح ﷺ وقد ساوره القلق، عن الخطر المحدق بهم، ونهاهم محذّرًا إيّاهم من مخاطر عَقْر تلك المعجزة الإلهيّة أي ناقة الله، ومنْعها من الشرب في دورها: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾[٢]. لكن هؤلاء الطغاة العتاة تجاهلوا تعاليم رسولهم على الرغم من تناغمها مع الإلهام الفطريّ لنفوسهم، وهكذا دسّوا أنفسهم، ولم يُعِيروا كلام هذا الرسول العظيم وتحذيراته سمعًا، وعقروا ناقة الله وقتلوها بعد تكذيبهم الرسول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾. فعاقبهم الله بذنوبهم، وأطبق عليهم بالعذاب، وأهلكهم جميعًا ليُسكِتَ بذلك حركات المذنبين والطغاة وأصواتهم، وسوّى بهم الأرض: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

في هذه السورة تعابير مثل: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ و﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ تُبرِز مظاهر محاربة الحقّ في ذلك التكذيب. كما أنّ تجدّد الإشارة إلى تكذيب قوم ثمود في الآية الرابعةعشرة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد ذكرها في الآية الثانيةعشرة: ﴿كَذَّبَتْ﴾ يُظهِر أنّهم كذّبوا رسولهم هذه المرّة عمليًّا، الأمر الذي يؤكّده مجيء ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مباشرةً. كما أنّ تحوُّل الضمائر المتعلّقة بقوم ثمود من المفرد في الآية الحاديةعشرة: ﴿كَذَّبَتْ﴾، و﴿بِطَغْوَاهَا﴾ وفي الآية الثانيةعشرة: ﴿أَشْقَاهَا﴾، إلى الجمع

---

١. «إذ» في هذه الآية تعليليّة، لأنّ هذه الآية تبيّن دوافع تكذيب قوم ثمود في الآية السابقة؛ أي أنّ ذاك الرجل قد حرّض قوم ثمود على الطغيان والتكذيب، وقد اتّبعوه حينما رضوا بتصرُّفه.

٢. نصب ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ من باب التحذير، وهو مفعول به لفعل محذوف، تقديره: «أحذّركم».

في الآية الثالثةعشرة: ﴿ لَهُمْ ﴾ والآية الرابعةعشرة: ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾، و﴿ فَعَقَرُوهَا﴾، و ﴿ عليهِمْ﴾، و﴿رَبُّهُمْ ﴾، و﴿بِذَنْبِهِمْ﴾ يوحي لنا هذا التحوّل بموضوع خطير هو أنّ قوم ثمود كانوا شركاء متعاونون في كلّ مرحلة من مراحل التكذيب وعقر الناقة، وكذلك في استحقاق العذاب.

وأخيرًا يريد الله تعالى أن يوجّهَ تحذيرًا حادًّا صارمًا، إلى جميع الذين يتمادون في تكذيب الحقّ انطلاقًا من دسّهم لنفوسهم، فيقول: إنّ ربّهم جلّت قدرته لا يخاف من العذاب الذي أحلّه بهم، كما لا يخاف من تبعة ما أنزله بهم من شديد العقاب: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، لأنّ عذاب الله على حسب الحكمة و بالحقّ.

ومن مجموع آيات السياق الثاني الذي يتحدّث عن مصير قوم ثمود الطغاة بعد تكذيب رسولهم على الرغم من تحذيراته لهم، ندرك أنّ الله يلفت انتباهنا إلى مصير قوم ثمود الطغاة، لئلّا نُصابَ - لا سمح الله - بإخفاء المرآة الإلهيّة المتمثّلة في النفس، ونتعرّضَ للعذاب الإلهيّ جرّاء ذلك.

النتيجة

كما يُلاحَظ في آيات السياق الأوّل للسورة، فإنّ الله بعد القسم بالظواهر الحسيّة وغير الحسيّة ومن خلال الإخبار بأنّه ألهم النفسَ الإنسانيّة ملازمةَ التقوى ومجانبة الفجور، يعتبر الللہ تعالى بعد ذلك أنّ الفلاح لمن يزكّي نفسه وفق الإلهام الإلهيّ، وأنّ الخسران والحرمان من الكمال والفلاح حصيلة دفن المرآة الإلهيّة المتمثّلة في النفس؛ وفي السياق الثاني يخبر عن العاقبة الوخيمة المشؤومة لقوم ثمود الطغاة، ويقدّم رسولهم على أنّه رمز ومصداق للمفلحين، ويقدّم أشقى القوم رمزًا ونموذجًا للمحرومين من الكمال والفلاح، لذلك فالسياق الأوّل يسلّط الضوء على التزكية والهلاك على الصعيد الفرديّ، والسياق الثاني يبيّن التزكية والهلاك على الصعيد الاجتماعيّ، لهذا فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**التحذير من دسّ النفس على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ**».

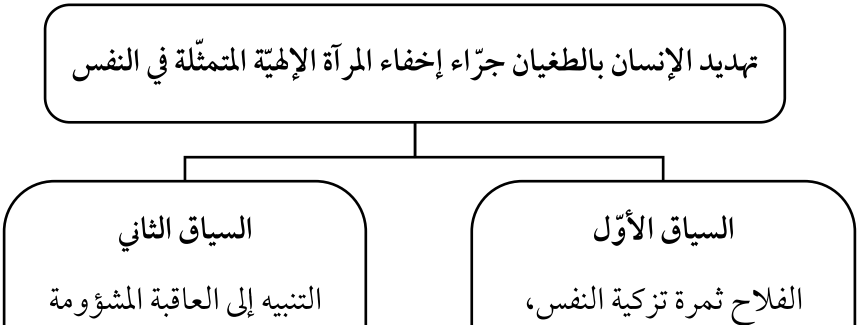

التدبّر في سورة البلد

التعريف بالسورة

سورة البلد هي السورة التسعون من المصحف الشريف، وتقع بعد سورة الشمس و قبل سورة الفجر.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة البلد في إطار سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا
ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾
أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ
ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي
يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

تضمّ هذه السورة عشرين آية، وتتألّف من سياق واحد:

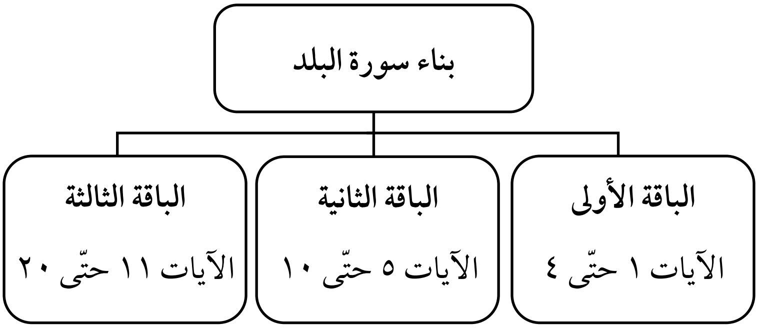

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

كَبَد: مشقّة وعناء.

لُبَداً: في الأصل تعني الاجتماع والتلاحم والتزاحم والالتفاف، و﴿مالاً لُبَداً﴾ في الآية الشريفة تعني الأموال الطائلة التي يكدَّس بعضُها على بعض.

النَّجْدَين: «نَجْد» في الأصل بمعنى العلوّ والمكان المشْرِف المرتفع، والمقصود منه في الآية صدر الأمّ.

اِقْتَحَمَ: «قَحَم» الدخول في عمل صعب شاقّ، وفي الآية يعاتب الله الإنسان على عدم اقتحامه عقبة الإنفاق بإخلاص، على الرغم من النعم الإلهيّة الكثيرة عليه.

مَسْغَبَه: «سَغَب» الجوع الشديد مع انعدام الطعام.

مَترَبَه: «تُراب» في الأصل بمعنى الخضوع الكامل والانخفاض، ولهذا يقال للتربة «تراب»؛ أمّا قوله تعالى: «مسكيناً ذا متربة» أي الفقير الذي يعاني شدّةَ الفقر والمسكنة.

الميمَنَه: «يمْن» القوّة، والبركة والزيادة في الخير.

المَشئَمَه: «شُؤْم» نقيض «المـَيمَنَه» وبمعنى الشرّ والضعف الشديد.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الرابعة: تشترك الآيتان الأولى والثانية، لفظيًّا في عبارة ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾. و«الواو» في صدر الآية الثالثة قَسَمٌ، والآية الرابعة جوابه.

الباقة الثانية. الآيات من الخامسة حتّى العاشرة: طرأ تغيير من الآية الخامسة على أسلوب التعبير. والآيات الخامسة والسابعة والثامنة تبدأ بهمزة الاستفهام، وتشترك

أسلوبيًّا. وهمزة الوصل اللفظيّة في آيات هذه الباقة، هي الضمير الظاهر «هـ» والمستتر «هو» اللذان يعودان إلى ﴿الإنسانَ﴾ في الآية الرابعة.

الباقة الثالثة. الآيات من الحاديةعشرة حتّى العشرين: أسلوب التعبير في الآية الحاديةعشرة يتغيّر إلى النفي: ﴿فلَا اقتَحَمَ﴾، و«الفاء» في بدايتها والضمير المستتر «هو» في ﴿ إقْتَحَمَ﴾ العائد إلى ﴿ألإنسانَ﴾ في الآية الرابعة، يربطان آيات هذه الباقة بآيات الباقة السابقة. والآية الثانيةعشرة استفهام عن ﴿ألعَقَبَةُ﴾ في الآية السابقة، والآيتان الثالثةعشرة والرابعةعشرة جواب الاستفهام. ويُعرَب ﴿يَتيمًا﴾ في الآية الخامسةعشرة و﴿ مِسكينًا﴾ المعطوف عليه في الآية السادسةعشرة مفعولين لـ ﴿إطعامُ﴾ في الآية الرابعةعشرة. عُطِفت الآية السابعةعشرة على الآية الرابعةعشرة لوجود ﴿ثُمَّ﴾ العاطفة في صدرها. واسم الإشارة ﴿أولئك﴾ في الآية الثامنةعشرة يشير إلى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية السابقة. الآيتان الأخيرتان أيضًا تقابلان الآيتين السابعةعشرة والثامنةعشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
- لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢)
- وَوَالِدٍ
- وَمَا وَلَدَ (٣) ← لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)
- أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦)
- أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧)
  - أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ
    - عَيْنَيْنِ (٨)
    - وَلِسَانًا
    - وَشَفَتَيْنِ (٩)
  - وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢)
- فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣)
- أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤)
  - يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥)
  - أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦)

ثُمَّ كَانَ — مِنَ الَّذِينَ
- آمَنُوا
- وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
- وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ← أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
- هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩)
- عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠)

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ كالتالي:

لقد نزلت سورة البلد المباركة لتعالج النظام العقائديّ للذين كانوا يظنّون أنّ الله لن يشدّد عليهم أبدًا، أو أنّه لا سلطان ولا هيمنة له عليهم، فكانوا يسعون وراء السعادة الحقيقيّة والمطلقة في الدنيا الفانية.

ومع أنّهم كانوا قادرين على المشاركة في تحرير العبيد وعتقهم، أو مساعدة اليتامى والمستضعفين، لكنّهم لم يكونوا يقومون بذلك. فالله في هذه السورة يشطب على عقائدهم الباطلة، ويعتبر السبيلَ إلى السعادة الحقيقيّة هو الإنفاق المصحوب بالإيمان الفرديّ والاجتماعيّ. لذلك سنقوم بفهم نصّ السورة في ثلاث باقات من الآيات:

١. خُلِقَ الإنسان في مشقّة لينالَ الرقيّ والهداية (الآيات ٤-١)

لم يُقسِم الله تعالى في بداية السورة بالأرض التي يقطنها الرسول الأكرمﷺ، أي مكّة المقدّسة: ﴿لا أُقسِمُ بِهَذَا البَلَدِ، وأنتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ﴾ لأنّ قوله تعالى: ﴿لا أُقسِمُ﴾ من حيث المضمون أبلغ من القسم؛ ويعني أنّ الموضوع التالي على حدّ من البداهة والوضوح، بحيث لا يحتاج معه إلى القسم.

ثمّ يقسم بالوالد وولده: ﴿ووالِدٍ وما وَلَدَ﴾ ويمكن أن نستنتج من الأسلوب التعبيريّ في آيات القسم أنّ المقصود من الأب هو النبيّ إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل عليه السلام، لأنّ الوالد والولد المنسوبين إلى مكة المعظّمة، هما هذان العظيمان اللذان بنيا بيت الله في مكّة.

ويشير الله في جواب القسم إلى حقيقة جليلة هي أنّنا خلقنا الإنسان في عناء ومشقّة:

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾. ولا يخفى على أيّ لبيب وجود المشقّة والعناء في خلقة الإنسان وجميع شؤون حياته. كذلك من الواضح أنّ هذه المشاقّ ضروريّة لتقدّم الإنسان وسعادته، لذلك يجب على الإنسان أن يعلم أنّه لا يمكن تأسيس بنيان السعادة المطلقة في الدنيا أبدًا.

ويرتبط القسم بجوابه لأنّ الجواب يبيّن خلقة الإنسان في عناء، والحالات الـمُقسَم بها، هي شواهد وأمثلة حيّة على مشاقّ الإنسان ومعاناته ومساعيه: فقد كانت مكّة أرضًا قاحلة لا ماء فيها ولا كلأ، وكان العثور فيها على أدنى مقوّمات الحياة عسيرًا. لقد كان رسول الله ﷺ، شاهدًا على تلك الشدائد وعاشها لأنّه سكن في هذه المدينة. كما أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللذين بنيا الكعبة، كانا في تلك الأرض وقد تحمّلا الكثير من المشقّات للوصول إلى الرشد والهداية؛ تمامًا كالماس الذي يتحوّل إلى ماسة ثمينة تحت ضغط وحرارة شديدين.

٢. بيان موقفَيْن باطلين؛ عدم التضييق والمراقبة من جانب الله، مع ذكر النِّعَم الموهوبة للإنسان (الآيات ٥-١٠)

بما أنّ جميع شؤون حياة الإنسان ممزوجة بالمشقّة، فلا يصحّ الظنّ بأن لا أحد يتشدّد عليه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾. ونظرًا لأسلوب الحديث في الآيات التالية المتعلّقة بالإنفاق، فإنّ المقصود من التضييق والتشدّد في هذه الآية هو الشؤون الاقتصاديّة والماليّة، ومثل هذا الشخص انطلاقًا من تصوُّره الخاطئ يظنّ الإنفاق بمثابة إتلاف المال الكثير، فيقول: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ ويظنّ أن لا أحد يراقب أعماله: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

أي أنّه يظنّ الله في غفلة وجهل عن إنفاقه.

وتستمرّ السورة لتردَّ على هذين الموقفين الباطلين وتقوّمهما وتثبت الحقيقة القائلة بأنّ الله تعالى عالم وبصير بإنفاق الإنسان، ومن هنا، فإنّه بدايةً يذكّر الإنسان بالنِّعم التي وهبها له: أنّه كان رضيعًا عاجزًا فأعطاه الله عينين: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ ورزقه لسانًا وشفتين: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ودلّه على النجدين (صدره والدته)[1]: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وهكذا وفّر الظروف لتربية هذا الرضيع العاجز.

٣. ضرورة اجتياز عقبات الحياة لتحقُّق السعادة (الآيات ٢٠-١١)

بعد هذه المقدّمة، تشير السورة إلى أمر هامّ، وهو أنّ الإنسان مع ما أُوتِيَ من النعم، فقد كان من المتوقَّع أن يقتحم عقبة الإنفاق الكأداء ليفوز بالسعادة الحقيقيّة، لكنّه لم يُقدِم على عقبة الإنفاق الكؤود: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾. وفي الآية التالية يُستفهَم عن ماهيّة العقبة: وما هو الشئ الذي جعلك تعرف حقيقة العقبة: ﴿وما أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾؟ في الحقيقة يكشف مثل هذا السؤال أنّ معرفة هذه العقبة خارجة عن نطاق فهم الإنسان، لأنّه لا أحد يعلم جوانب الإنسان النفسيّة كما يعلمها الله، إذن ينبغي للوحي هنا أن يعرّف تلك العقبة.

---

١. يُستدَلّ على أنّ المقصود من ﴿النَّجْدَيْنِ﴾ هو صدر الأمّ، وليس طريق الخير والشرّ بأمور: أ) «النجد» في اللغة يعني العلوّ والمكان المرتفع (المفردات، ص٧٩١) والعلوّ والارتفاع قابلان للتصوّر في حالة الخير؛ أمّا الشرّ فليس أكثر من السفالة والوضاعة؛ ب) لا يصحّ تثنية نوعين متقابلين؛ بينما الخير والشرّ نوعان متضادّان ومتناقضان؛ ج) إذا كان أحد هذين النجدين شرًّا، فهذا يستوجب أن يهديَ الله إلى الشرّ، ومثل هذا الشئ غير مقبول؛ د) الكلام عن إعطاء الإنسان الشفاه والفم في الآية السابقة، أكثر ملاءمة مع هداية الطفل الفطريّة إلى صدر الأمّ لرضاعته وشرب الحليب.

وتلك العقبة هي الإسهام في تحرير عبد: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أو الإطعام في يوم جوع ومشقّة: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾. والإطعام في يوم النعمة مجرّد قوّة وتفاخر، ولا قيمة له. فالفضيلة هي أن يُطعِم المرء حينما يقلق بنفسه من المشقّة. للإطعام المنظور مصاديق أخرى أيضًا: إطعام اليتيم من ذي القربى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أو الفقير البائس الملتصق بالتراب: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾. وعليه، فإنّ «العقبة» هي عقبة السعادة والميمنة التي تحصل عن طريق الإنفاق؛ وإنّ التنازل عن المال والتضحية به من أجل تحرير إنسان، والإنفاق في سبيل الله لرعاية الذين يعانون مصاعب مضنية في الحياة. و إنّ تحرير الإنسان مقدَّم في هذا السياق على إشباع بطنه بالطبع.

وفي الآيات السابقة، دار الحديث حول الإنسان والإنسانيّة، ومن هنا تقول: لا يكفيكم الإنفاق لوحده؛ بل يجب أن تتحلّوا بالإيمان (الإيمان الفرديّ)، وأن تتواصوا بالصبر على طاعة الله، والتراحم والتعاطف: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾. تفيد ماضويّة ﴿كَانَ﴾ وجوب تقدّم الإيمان على الإنفاق، والإنفاق بدون الإيمان لا يترك التأثير المنشود المتوقَّع منه، سواء في الجانب الفرديّ أو الاجتماعيّ. وخلاصة القول أنّ الذين يجتازون عقبة الإيمان والإنفاق بسلامٍ هم السعداء الميامين: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾.

وفي المقابل، فإنّ الذين كفروا بآيات الله (الآيات السابقة الذكر) هم أصحاب المشئمة وأهل الشقاء: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ وتحيط بهم نار مطبقة: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾.

ولو أخذنا بعين الاعتبار تقابل الفريقين السعداء والأشقياء، ودقّقنا في الآية

السابعةعشرة التي توصي المؤمنين بالصبر والمرحمة تجاه بعضهم، وبما أنّ السورة تخاطب الذين رحمهم الله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، فمن الممكن اعتبار الثواب الأخرويّ لأهل السعادة كما يلي: «**عليهم رحمةُ الله**».

النتيجة

تشير السورة في البداية بأسلوب القسم إلى الحقيقة القائلة بأنّ الله قد خلق الإنسان في مشقّة وصعوبة. بعد ذلك تُبطِل في إطار الاستفهام عقيدتين باطلتين للبعض تتمثّلان في انعدام رقيب على أعمال الإنسان، وأنّه لا أحد يقدر عليه؛ ثمّ تذكّر بالنعم التي وهبها الإنسانَ، وبعد هذه المقدّمة تبيّن أنّه في ظلّ وجود هذه المواضيع، لم يقتحم هذا الإنسان عقبة الإنفاق الصعبة للوصول إلى السعادة.

واستكمالًا للمواضيع السابقة، تتابع السورة أنّ الإنفاق وحده لا يكفي لتحقيق السعادة؛ بل يجب أن يكون له جذور في الإيمان الفرديّ والاجتماعيّ، وفي هذه الحالة يصبح الإنسان من أصحاب الميمنة، ولكنّ الذين يكفرون بآيات الله، فهم من أصحاب المشئمة.

وبما أنّ عبارات مثل: ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (أرض مكّة)، ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام)، و﴿كَبَدٍ﴾، و﴿يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، و﴿اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، و﴿مَسْغَبَةٍ﴾ و﴿بِالصَّبْرِ﴾ جميعها تذكّر بالصعوبات، فيمكن أن نستنتج أنّها تؤكّد محوريّة جواب القسم وأصالته في الآية؛ الأمر الذي يؤكّد أنّ خلقة الإنسان قائمة على العناء والمشقّة، ولا يخلو شأن من شؤون الحياة من العناء والمشقّة، وأنّ الإنسان لن يظفر بالراحة والسعادة المطلقة إلّا في

الآخرة وعند الله، فإذًا المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ: «**نيل السعادة الحقيقيّة في الآخرة سيأتي بعد تحمُّل مشاقّ السير في سبيل الله واقتحام عقبة الإنفاق**».

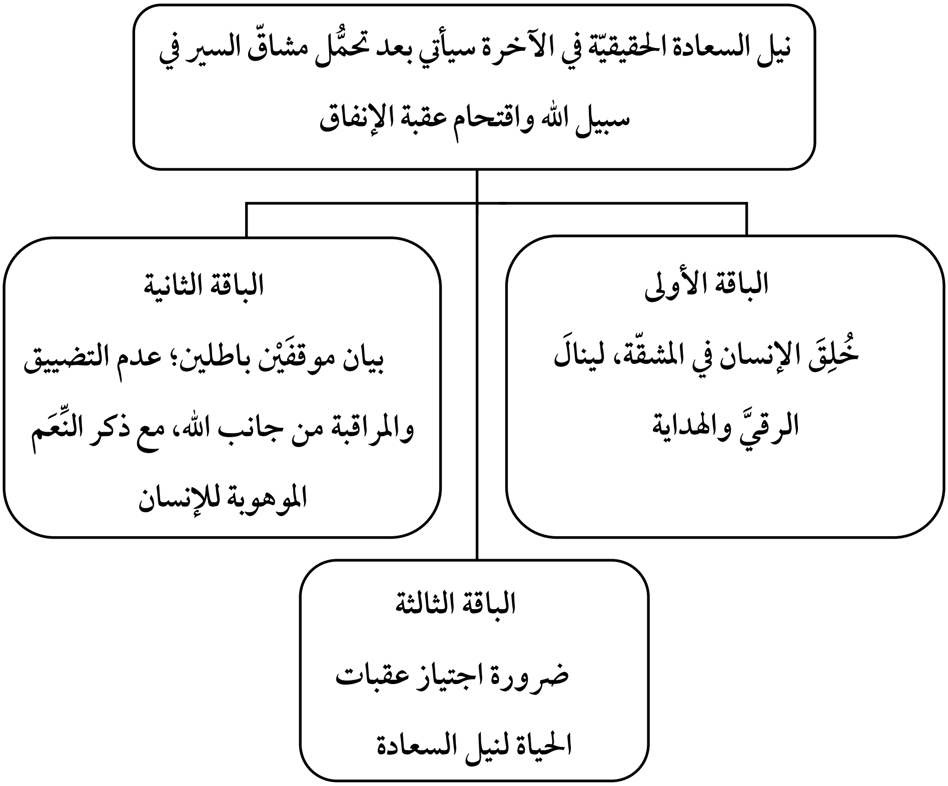

التدبّر في سورة الفجر

التعريف بالسورة

سورة الفجر هي السورة التاسعة والثمانون من القرآن الكريم، تقع بعد سورة الغاشية وقبل سورة البلد.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الفجر في إطار ثلاثة سياقات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِى حِجْرٍ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِى ٱلْبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟
فِى ٱلْبِلَٰدِ ١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ
١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ
ٱلْيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩ وَ
تُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ
صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ٢٦
يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ٢٩
وَ ٱدْخُلِى جَنَّتِى ٣٠

تضمّ هذه السورة ثلاثين آية، وتتألّف من ثلاثة سياقات:

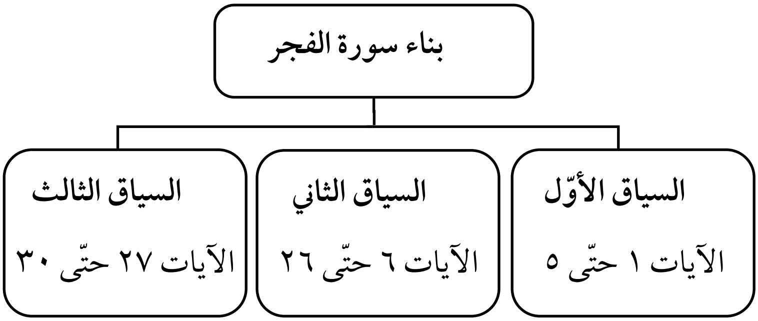

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِى حِجْرٍ ۝٥

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الشَّفْع: الزوج.

الوَتْر: الفرد.

يسْرِ: أصل هذه الكلمة «يسرِي» حُذف حرفها الأخير ومصدرها «سُرى» بمعنى السير والحركة خفيةً، وهنا تعني: انقضاء الليل.

حِجْر: هذه الكلمة في الأصل بمعنى الحفظ والصيانة والمنع والتحديد، وفي هذه الآية تعني العقل، لأنّ العقل يصون الإنسان من الضلال، كما أنّه يقيّد ويحدّد أفكاره وأعماله.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآيات من الأولى حتّى الرابعة قسم، واسم الإشارة ﴿ذلِكَ﴾ في الآية الخامسة يشير إلى الآيات السابقة. وجواب القسم لم يُذكَر.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في ثلاثة سياقات:

تتناول سورة الفجر المباركة في ثلاثة سياقات حلّ مشكلة الذين قد جعلوا الدنيويّة غايةً واتّخذوها قضيةً لهم:

السياق الأوّل: نهاية الليل الحالك هو الفجر (الآيات ٥-١)

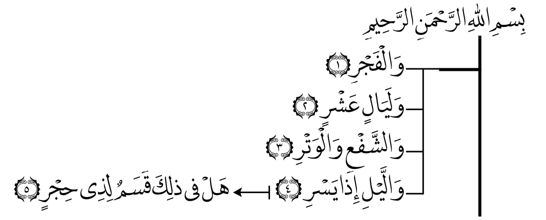

تبدأ السورة بالقسم بنور الفجر، عندما يشقّ ظلمة الليل: ﴿والفجرِ﴾ والقسم بالليالي العشر: ﴿ولَيالٍ عَشرٍ﴾. تتجسّد العلاقة بين القسَمَين في أنّ الليالي العشر هذه، تتعلّق بالفجر السابق؛ الفجر الذي يأتي بعد عشرة ليالٍ، لذلك يمكن اعتبار الفجر صبيحة عيد الأضحى، والليالي العشر هي العشرة الأولى من شهر ذي الحجّة.[١]

١. وهذا هو المقصود أيضًا في آيات أخرى، مثل الليالي العشر لنهاية ميقات موسى‌ؑ مع الله في طور سيناء: ﴿وواعَدنا مُوسَى ثَلاثينَ لَيلَةً وأتمَمناها بِعَشرٍ فتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أربَعينَ لَيلَةً﴾ (سورة الأعراف١٤٢)، كما يُستحَبّ في العشرة الأولى من ذي الحجّة بعد صلاة المغرب إقامة صلاةٍ تشتمل على هذه الآية من سورة الأعراف. (راجع: مفاتيح الجنان،

والقسم بالزوج والفرد: ﴿والشَّفعِ والوَترِ﴾ نظرًا إلى تنكير ﴿لَيالٍ عَشرٍ﴾ وتشابههما (الشفع والوتر) في التعريف مع ﴿ألفَجرِ﴾، لذلك يجب أن يكونا من جنس الفجر (النهار) وليس الليل، وعليه فنعتبر «الشفع» و«الوتر» أيام التشريق؛ أي أنّ «الشفع» هو اليوم الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجّة، و«الوتر» هو اليوم الثالث عشر من ذي الحجّة؛ حيث تنتهي أعمال الحجّ في اليوم الأخير.[1]

والقَسَم الآخر قسم بالليل؛ عندما يسير نحو وضح النهار: ﴿وَالَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وينقضي هكذا.

وعلى الرغم من أنّ الليل يمضي أوّلًا، ومن ثمّ يطلع الفجر، لكن ذُكِرَ الفجر أوّلًا؛ لأنّ المطلوب هو بعْث روح الأمل.

ومجموع الأقسام يوحي بزوال الليل وانقضائه: فالفجر في البداية يشكّل هاجسًا ومصدرَ قلقٍ، لهذا فقد ذُكِرَ ما يظهر بعد انقضاء الليل، وهو الفجر والشفع والوتر. ثمّ يتركّز توكيده على مرور الليل دون أن يتطرّق إلى طلوع الفجر. والداعي إلى هذا أنّ بعض المطالع الكبرى هي أيام الله التي لا بدّ لوصولها أن تنقضيَ ليالٍ عدّة، مثل عيد الأضحى الذي يجب قضاء عشرة ليالٍ من أجل الوصول إليه؛ لكنّ من الفجر ما يكفي لطلوعه

أعمال العشرة الأولى من ذي الحجّة).

١. تسمّى هذه الأيام بالتشريق لسطوع الشمس على الأضاحي. كما نعتبر «الشفع» اليوم الثامن (التروية) و«الوتر» اليوم التاسع أي يوم عرفة، فالزوج والفرد سيكونان العدد المقصود؛ بينما لا يريد القرآن الزوج والفرد الرياضيّين؛ بل الزوج والفرد الحقيقيّ: الزوج يعني اثنين، والفرد يعني واحد.

مرور ليلة واحدة، لذلك انتهى القسم في المرّة الثانية دون التأكيد على طلوع الفجر.

وبعد هذه الأقسام، يُطرَح هذا السؤال على بساط البحث: ألا تنطوي هذه الحالات على قسم لذي عقل: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ وهكذا يشير إلى عظمة الأقسام وأهميّتها، لأنّ: ١.الاستفهام التقريريّ يأتي للتأييد والتأكيد؛ ٢. الإشارة إلى البعيد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى الأقسام، ويدلّ على التفخيم والتعظيم؛ ٣.تخصيص الأقسام بأصحاب العقول: ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾؛ لأنّ أصحاب الخسّة والرعونة لا يفهمون هذه الأقسام والشواهد حقّ الفهم.

ونظرًا لعدم التصريح بجواب القسم، فيمكن اعتبار الجواب المحذوف تأكيدًا على مضمون السورة كلّها والتي تتركّز على العاقبة الدنيويّة والأخرويّة المشؤومة لمحبّي الدنيا الطغاة، والعاقبة السعيدة لعباد الله المخلصين. والعلاقة بين القسم وجوابه المحذوف كالتالي: تمّ توظيف المحسوسات في الأقسام لإيضاح أمر عقليّ (تشبيه المعقول بالمحسوس)؛ حيث يمكن اعتبار الفجر رمزًا للتوحيد، وظلمة الليل رمزًا لحبّ الدنيا والطغيان، ولأنّ الظلمات زائلة: ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾، فإنّ الظلم والطغيان زائلان أيضًا، وهذا الفجر والتوحيد يتمتّعان بالأصالة والبقاء، ففي خاتمة المطاف سيكون الخير والحقّ ظافرَيْنِ منتصرَيْنِ دون غيرهما (غَمراتٌ، ثمَّ ينْجَلينَ).

إنّ الآيات في السياق الأوّل تشير إلى قدوم النهار وتؤكّد ذهاب الليل والظلمة. لذلك نجد أنّ منحى هذا السياق هو القسم بأنّ نهاية الليل المظلم هي الفجر، وأنّها آتية لا محالة، ليعقبها طلوع فجر الانتصار.

السياق الثاني

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ
۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ
۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ
۝١٤ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا
مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا
تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَ تُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا
جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ ۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِا۟ىٓءَ
يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي
۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

جابُوا: «جَوْب» في الأصل بمعنى القطْع والنقب؛ وفي هذه الآية يعني قطْع الأحجار الكبيرة من الجبل والنقب فيه.

الأوتاد: «وَتَد» وفي الأصل بمعنى إدخال شئ في مكان وتثبيته بإحكام، لذلك يقال «للمسمار» «الوتد»، وفي هذه الآية أيضًا «الأوتاد» جمع «وتد» بمعنى المسامير، لأنّ فرعون كان يسمّر الناس بأربعة مساميرَ، تنكيلًا بهم.

صَبَّ: الإراقة من الأعلى إلى الأسفل؛ وهنا بمعنى نزول العذاب الإلهيّ عليهم.

اِبتَلاه: «بَلَو» إيجاد تحوّل وتغيّر لتحقيق النتيجة المنشودة، وفي هذه الآية يعني «عندما يغيّر الله تعالى حالات الإنسان فيجعله غنيًّا وثريًّا أو فقيرًا...».

لَمَّا: «لَمّ» جمع الأشياء المنفصلة وضمّها إلى بعضها؛ و«أكلًا لَمًّا» يعني أنّه كان يجمع ذلك

المال ويأكله من أيّ مصدر كان، سواء حلال أم حرام.

جَمًّا: «جَمَم» الكثرة والزيادة مصحوبة بالملء و﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ يعني أنّكم تحبّون المال حبًّا يملأ قلوبكم.

دُكَّت: دقّت.

لا يوثِقُ: في الأصل بمعنى الإحكام والشدّ، وهنا بمعنى: لا يشدّون أحدًا شدَّه في وثاق.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

هذا السياق يضمّ ثلاث باقات من الآيات:

الباقة الأولى. الآيات من السادسة حتّى الرابعةعشرة: الآية السادسة فاتحة سياق جديد، ولا يربطها بالآيات السابقة رابط لفظيّ. والآيتان السابعة والثامنة تقعان في مجموعة واحدة، وهما تصفان قوم عاد. و﴿ثَمُودَ﴾ في الآية التاسعة معطوفة على ﴿عَادٍ﴾ في الآية السادسة، وحُرِّكَت بالفتح نيابةً عن علامة الجرّ الأصليّة لامتناعها من الصرف. الآية العاشرة معطوفة أيضًا على ﴿ثَمُودَ﴾ في الآية التاسعة. والآيات من الحاديةعشرة حتّى الثالثةعشرة تصف الأقوام المذكورة في الآيات السابقة، كما أنّ ضمائر الجمع المذكورة في الآيات الثلاثة تعود إلى تلك الأقوام. والآية الرابعةعشرة أيضًا قد بدأت بحرف ﴿إِنَّ﴾ لتفيد بأنّها في مقام التعليل للآيات السابقة. ناهيك عن أنّ الآيتين الثالثةعشرة والرابعةعشرة مشتركتان في لفظ ﴿رَبَّكَ﴾.

الباقة الثانية. الآيات من الخامسةعشرة حتّى العشرين: تغيّر أسلوب التعبير في الآية

الخامسةعشرة؛ لكنّ ابتداءها بحرف «الفاء»: ﴿فَأَمَّا﴾ يربطها بالباقة السابقة. والآية السادسةعشرة معطوفة على الآية الخامسةعشرة، وتضادّها في المعنى. الآية السابعةعشرة ردع عن الآيتين السابقتين كما أنّ الآيات المعطوفة عليها حتّى الآية العشرين هي استمرار للعطف أيضًا.

الباقة الثالثة. الآيات من الواحدة والعشرين حتّى السادسة والعشرين: حرف ﴿كَلَّا﴾ في صدر الآية الواحدة والعشرين ردعٌ للآيات من السادسة حتّى الرابعةعشرة. والآيتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون معطوفتان على الآية الواحدة والعشرين. والفعل ﴿يَقُولُ﴾ في الآية الرابعة والعشرين بدلٌ من الفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ في الآية السابقة، وضمير «هو» المستتر في ﴿يَقُولُ﴾ فاعل ويعود إلى ﴿الْإِنسَانُ﴾ في الآية السابقة. الآية الخامسة والعشرون ترتبط بالآيات السابقة بحرف «الفاء» وتكرار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، والآية السادسة والعشرون معطوفة عليها أيضًا.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

تهديد أتباع الدنيا والطغاة في الدنيا والآخرة (الآيات ٦-٢٦)

سنكمل فهم نصّ السياق الثاني من خلال ثلاث باقات من الآيات:

١. تهديد أتباع الدنيا الطغاة بالعذاب الدنيويّ (الآيات ٦-١٤)

في هذا السياق يستمرّ الاستفهام التقريريّ بطريقة أخرى، وهذه المرّة يُسأل الرسول الأكرمﷺ، عن عاقبة قوم عاد وثمود وفرعون: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؟ هذا التعبير يدلّ على أنّ الرسولﷺ، كان على معرفة دقيقة بمصيرهم المهلك. فقوم عاد (قوم النبيّ هودعليه السلام) أصحاب مدينة «إرم»؛ ذات الأعمدة العالية: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ التي لم يُبنَ لها

نظير في أيّ بلد آخر: ﴿الَّتِى لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى الۡبِلَادِ﴾. إنّ أسلوب وصف قوم عاد (يعني أنّ مدينة «أرم» بدل من قوم «عاد») يدلّ على أنّ الله قد أفنى قوم عاد بتدمير مدينتهم؛ وليس أنّهم هلكوا أنفسهم.

كما يُطرَح السؤال عن قوم ثمود (قوم النبيّ صالح‏ؑ)؛ أولئك الذين كانوا يبنون منازلهم بين الوديان بقطع الحجارة: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخۡرَ بِالۡوَادِ﴾[1] ويُثار السؤال عن فرعون صاحب الأوتاد: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِى الۡأَوۡتَادِ﴾. و﴿ذِى الۡأَوۡتَادِ﴾ كناية عن قوّة فرعون الشديدة، لأنّها تصف أوامر فرعون بتعذيب معارضيه من خلال تثبيتهم بأربعة مساميرَ إلى الأرض أو إلى خشبة.[2]

إنّ الأوصاف المذكورة للأقوام الثلاثة تنمّ عن قوّتهم النوعيّة الظاهريّة والدنيويّة (التقدّم الصناعيّ) وبالتالي تمتُّعهم بالنعم والإمكانات المادّيّة مقارنةً بغيرهم من الأقوام. لكن هؤلاء الأقوام بدلًا من أن يشكروا الله بعد امتلاكهم كلّ تلك القوّة والنعمة، طغوا في البلاد: ﴿الَّذِينَ طَغَوۡا فِى الۡبِلَادِ﴾ ووفّر تمرُّدهم هذا، الأرضيّة لطغيان الفساد وتفشّيه في البلاد: ﴿فَأَكۡثَرُوا فِيهَا الۡفَسَادَ﴾، لذلك فإنّ الدنيويّة والطغيان والفساد هي قواسم مشتركة للأقوام الثلاثة المذكورة، ولذلك استحقّوا العذاب الشديد في الدنيا، فقد صبّ عليهم الله أسواط العذاب: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾. إنّ استعارة العذاب ومجيء ﴿عَذَابٍ﴾

---

١. كان قوم ثمود يبنون منازلهم وسط الوادى، لا في قلب الجبل. ففى الخطوة الأولى كانوا يقطعون الصخور من قلب الجبل، ثمّ يحملونها إلى السهل ويقطعونها ثانيةً ليبنوا المنازل.

٢. الميزان، ج٢٠، ص٢٨١.

نكرةً يدلّان على شدّة العذاب الإلهيّ. هذه الآية في الحقيقة شرح تفصيليّ لاستفهام سابق: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾. والسبب في هذا المصير المؤلم للأقوام المذكورة أنّ الله يراقب أعمال العباد: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وهذا التحذير بمثابة تحذير لغيرهم من الطغاة الغافلين عن المرصاد الإلهي.

٢. توبيخ محبّي الدنيا الأنانيّين فكريًّا وعمليًّا (الآيات ٢٠-١٥)

بعد ذلك يسوق الله الحديث إلى القضايا المادّيّة التي تنبئ بوجود الرؤية المادّيّة لديهم: فكلّما أراد الله اختبار الإنسان من أجل النموّ والازدهار من خلال إكرامه للإنسان وإنعامه عليه، اعتبر الإنسان ذلك دليلًا على قيمته وعزّه، ويقول: إنّ الله أكرمني: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وانطلاقًا من هذا التوهّم، فإنّه يفعل ما يحلو له. ويوحي عطف ﴿نَعَّمَهُ﴾ على ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بأنّ النعمة الإلهيّة لون من الإكرام الابتدائيّ، فإذا اجتاز الإنسان الامتحان بنجاح، فإنّ النعم ستدوم.

ولكن عندما يضيّق الله الرزق على هذا الإنسان الدنيويّ امتحانًا وختبارًا له ولكي ينمو ويزدهر، فإنّه يقول: إنّ الله أهانني: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ فيحسب سلب النعمة هذا، تجريدًا لقيمته وإهانةً له. والسرّ في تقديم الامتحان مع النعمة على الامتحان مع الفقر هو أهميّة الأوّل وصعوبة الثاني.

ومثل هذا الأنانيّ المستبدّ المتبجّح بنفسه، والذي يقول: ﴿رَبِّي﴾، و﴿أَكْرَمَنِ﴾، و﴿رَبِّي﴾ و ﴿أَهَانَنِ﴾، إنّه على الرغم من إيمانه بالله - إذ يقول: ﴿رَبِّي﴾-، غافل عن ذلك الابتلاء والاختبار في النعم الإلهيّة، كما أنّه غافل عن قدرة الله تعالى على استعادة هذه النعم،

ويُصاب بالطغيان والفساد جرّاء هذا التوهُّم (الإكرام والإهانة)؛ بينما إعطاء النعمة وسلبها هما ابتلاء وامتحان من أجل النموّ والازدهار: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ وليس إكرامًا وإهانة؛ وإنّ الصبر على الفقر والشكر على الثروة، فكلاهما مظهر للإيمان وفوز في الامتحان الإلهيّ.

ثمّ يفنّد الله تعالى العقيدة المذكورة بحرف الردع ﴿كَلَّا﴾ وكما يشير بحرف الإضراب ﴿بَل﴾ إلى بقاء الحكم السابق، فإنّه يدخل في تناول غرض جديد وهو شرح التصرّفات والسلوكيّات التي تؤدّي إلى نشوء التفكير الدنيويّ: أحدها أنّهم لا يكرمون اليتيم رغم امتلاكهم للمال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾. نظرًا للاشتراك اللفظيّ ﴿لا تُكْرِمُونَ﴾ مع ﴿أَكْرَمَنِ﴾ المذكورة آنفًا، فيمكن القول أنّ سبيل الفوز بالكرامة الإلهيّة هو إكرام اليتيم؛ وليس التمتّع بالرفاهيّة والثروة.

إضافةً إلى ذلك لا يحضّ بعضهم البعض الآخر على طعام المسكين[1]: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ وليس أنّهم لا يكرمون اليتيم فحسب؛ بل إنّهم ينهبون إرثهم، ولا يميّزون بين حلال وحرام: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾. والمصدر الأساس لهذا النوع من التفكير والسلوك هو حبّهم الشديد للمال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وهو أمر قلبيّ.

وعلى هذا الأساس، فإنّ التعلّق بمال الدنيا والحبّ الشديد له هما اللذان يمنعان حتّى رحمة اليتيم والمسكين، ويسفران عن مدّ يد النهب إلى تراث اليتامى، إنّهما أمران واقعان

١. تتحدّث الآية عن الحثّ على طعام المسكين: ﴿طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الأمر الذي يدلّ على أنّ هذا الطعام حقّ للمسكين وطعام له، وجُلّ ما في الأمر أنّ الله قد جعل رزقه في رزق الآخرين.

يخلقان هذه المزاعم والأوهام الباطلة لدى الإنسان؛ ذلك التصوّر الذي يعتبر إعطاء النعمة إكرامًا، وضيق الرزق إهانة.

لقد تحوّلت ضمائر الآيتين الخامسةعشرة والسادسةعشرة من المفرد إلى الجمع في الآيات الأربعة الأخيرة، وذلك يحيلنا إلى أنّ منشأ الانحرافات وحبّ الدنيا هو المجتمع. على الرغم من أنّه يمكن أن لا يستحسن الإنسان في البداية حبّ الدنيا، ولكن أجواء المجتمع تسوقه نحو ذلك، وبناءًا على هذا، فإنّ الفكرة الكامنة في الآيات هي الدنيويّة الاجتماعيّة.

٣. تهديد أتباع الدنيا الطغاة بالعذاب الأخرويّ (الآيات ٢٦-٢١)

يوحي تصعيد العذاب المذكور في الآيات التالية بأنّ المعنيّين بهذه الآيات هم أقوام عاد وثمود وفرعون الطغاة الفاسدون المذكورون في مستهلّ السورة؛ وليس الإنسان الذي يخضع لله بصفته ربًّا. ويفيد ابتداء الكلام بحرف الردع ﴿كَلَّا﴾ بأنّ الطغاة لا يُبتلَون بالعذاب الدنيويّ فحسب؛ بل إنّ عذابهم الأخرويّ شديد للغاية أيضًا؛ ممّا يعني أنّه كما لم يكن لهم مثيلٌ في القوّة والصناعة، وطغوا وأفسدوا كثيرًا جرّاء ذلك، فإنّ عذابهم عذاب لا مثيل له أيضًا.

واستهلال الكلام بهذا العذاب يمثّل وعيدًا وتهديدًا من خلال تسليط الضوء على أحداث نهاية الدنيا وبداية يوم القيامة: فعندما تُقرَع الأرض وتُدَقُّ إيذانًا بنهاية العالم: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ويتجلّى الله في بداية قيام الساعة، ويجئ الملائكة الكرام صفوفًا صفوفًا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وفي ذلك اليوم العظيم يُجاء بجهنّم: ﴿وَجِايءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾، بعد هذه الأحداث، يتذكّر الإنسان في ذلك اليوم ويعرف: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ﴾

أنّ محبّة الدنيا والطغيان لم يجدياه نفعًا؛ بل تسبّبا في دخوله نار جهنّم. لكن لن تنفعه هذه الذكرى والصحوة المفاجئة في لحظات المعاد العصيبة: ﴿وأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾. عندئذ يقول بحسرة و أسف وهو يمرّ بساعة شديدة، ويداه فارغتان من كلّ شئ: يا ليتني أخذتُ خطوةً تنفعني في حياتي الأخرويّة التي هي حياتي الحقيقيّة: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾. وفي تعبيره ﴿لِحَيَاتِي﴾ يخصّص الحياة بالآخرة، وكأنّ حياته في الدنيا لم تُعتبَر حياةً.

إنّ العذاب غيرالمسبوق الذي يمارَس على هؤلاء الطغاة المحبّين للدنيا الذين لا مثيل لهم في الطغيان وحبّ الدنيا، عذابٌ لا أحد يستطيع ممارسته مثل الله تعالى، على ذلك الطاغي: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ولا يستطيع أحد أن يوثِقَ ذلك الطاغي مثل وثاق الله: ﴿ولَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾.

لقد أشار الله تعالى في السياق الثاني إلى عاقبة الطغاة المحبّين للدنيا، وقد ذكر على سبيل المثال أقوام عاد وثمود وفرعون، ومن خلال تقديم مشهد للقيامة يذكّر أنّ الطغاة لا يعذَّبون في الدنيا فحسب؛ بل إنّ عذابهم الأخرويّ سيكون أشدّ بكثير. لذلك نرى أنّ المنحى الإرشاديّ لهذا السياق هو توعّد محبّي الدنيا الطغاة في الدنيا والآخرة.

السياق الثالث

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾
وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

رَاضِيَةً: راضية عن الله

مَّرۡضِيَّةً: رضا الله عنها

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية السابعة والعشرون بداية سياق جديد، ولا علاقة لها بالآيات السابقة. والأفعال ﴿إِرجِعِى﴾ في الآية الثامنة والعشرين، و﴿فَادۡخُلِى﴾ في الآية التاسعة والعشرين و﴿أُدۡخُلِى ﴾ في الآية الثلاثين، تخاطب ﴿ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ في الآية السابعة والعشرين.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

يٰٓاَيَّتُهَا النَّفۡسُ الۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارۡجِعِىۡۤ اِلٰى رَبِّكِ — رَاضِيَةً
— مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾ — فَادۡخُلِىۡ فِىۡ عِبٰدِىۡ ﴿٢٩﴾
— وَادۡخُلِىۡ جَنَّتِىۡ ﴿٣٠﴾

أضواء على حسن عاقبة أصحاب النفوس المطمئنة (المؤمنين) بغية التشجيع (٣٠-٢٧)

يقف المؤمنون ذوو النفوس المطمئنّة مقابل الطغاة ومحبّي الدنيا، وهم يتمتّعون بسكينة كاملة في خضمّ الحياة الدنيويّة وإغراءاتها، ويخاطبهم الله بمنتهى اللطف والمحبّة فيقول: ﴿ يأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ عودي إلى ربّك مباشرة، إلى مقام الرضا عن الله تعالى، والله سبحانه قد رضي عنك: ﴿إرجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ راضيةً مَّرۡضِيَّةً﴾. يشير قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ إلى الطمأنينة التي تحصل للعبد في ظلّ الإيمان بالله وذكْره تعالى؛ إزاء محبّي الدنيا الذين يريدون طمأنة نفوسهم بالقوّة وبماديّات الحياة، ولو فازوا بالسكينة لكانت سكينةً زائلةً عابرة. كما أنّ الأمر بالرجعة يشمل وقت الموت حتّى لحظة الوصول إلى الجنّة.

وفي ضوء الآيات السابقة، فإنّ هذا المؤمن يعتبر الدنيا دار مجازٍ، ويرى النعمة وضيق

الرزق ابتلاءً وامتحانًا يؤدّي إلى سموّه وازدهاره، لهذا السبب؛ فإنّ وفور النعمة لا يجرّه إلى الطغيان والفساد والاستكبار، كما أنّ الفقر والعوَز لا يرميانه في شَرَك الكفر وترْك الشكر؛ بل إنّه يستقرّ في مقام العبوديّة، ولأنّ الله راضٍ عنه فهو راضٍ عن الله أيضًا.

استهلّ الخطاب الأخير بحرف «الفاء» لذلك يُعتبَر نتيجةً لما قبله ممّا يعني بأنّه يا صاحب النفس المطمئنة! لأنّك ترجع إلى ربّك راضيًا ومرضيًّا، إذًا فادخل بين عبادي: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ فكما كنت وصلت قبل ذلك إلى مقام العبوديّة، فادخل في جنّتي: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. ونسبة «الجَنَّة» إلى الله تشير إلى أفضليّتها بالنسبة لبقيّة الجنان.[١]

على حسب آيات السياق الثالث نستنتج أنّ المنحى الإرشاديّ للآيات هو الدعوة وتبشير المؤمنين والفوز بالهدف (لقاء الله).

١. يُفهَم تعدّد الجنّات من تثنيتها وجمعها في الآيات الأخرى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن/ ٤٦)؛ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (المائدة/ ٦٥).

النتيجة

لقد نزلت سورة الفجر المباركة في أجواء كانت فيها ظلمة الدنيويّة سادت كلّ مكان، وكانت هناك فئة تمتلك السلطة والثروة فتعيث فسادًا وطغيانًا. كان ادّخار المال معيارًا لكسب الشرف والاحترام، وكلّ شخص يعتبر نفسه محظيًّا بالكرامة الإلهيّة بمقدار ما يملك، ومن ضُيِّق عليه الرزق اعتبر نفسه مهانًا من قبل الله؛ بينما كان حقّ اليتيم والمسكين مهضومًا والناس يتّخذون الدنيا مبتغاهم ومناهم دون أن يلتفتوا إلى هذه المظالم. تسعى سورة الفجر المباركة إلى حلّ هذه المشكلة ضمن ثلاثة سياقات:

ففي السياق الأوّل، يذكر الله خمسة أقسام، وبعد ذلك يسأل باستفهام تقريريّ عمّا إذا كانت هذه الحالات قسمًا لذي عقلٍ؛ والجواب بالطبع هو: نعم.

وفي السياق الثاني، يبدأ الله باستفهام تقريريّ موجَّه إلى رسوله ﷺ، متسائلًا عن عاقبة قوم عاد وثمود وفرعون، ويذكر الطغيان والفساد كقاسم مشترك بينهم؛ ولهذا استحقّوا العذاب الدنيويّ الأليم. بعد ذلك، تطرح السورة نوعًا من المحبّين للدنيا رؤيتهم تماثل رؤية الأقوام السابقة الذكر، وتعتبر أنّ السبب الرئيس لمثل هذا التفكير هو الحبّ الشديد للمال. في نهاية السياق تقدّم صورةً عن مشهد القيامة، وتذكّرنا أنّ الطغاة لا يُبتلَون بعذاب الدنيا فحسب، بل إنّ عذابهم الأخرويّ سيكون أشدّ بكثير.

في السياق الثالث، خوطبت النفس المطمئنّة التي ترجع مباشرةً إلى ربّها راضية مرضيّة، بمعزل عن جميع دواعي القلق والخوف في المحشر.

نظرًا إلى أنّ سورة الفجر سورة واعدة تبعث على الأمل والرجاء، وهي في صدد حلّ

مشكلة الذين لا يبالون بالظلم، ويجعلون من حبّ الدنيا هدفًا وتطلُّعًا لهم، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: « **عقد الآمال على زوال محبّي الدنيا الطغاة في الدنيا والآخرة، وفوزالموحدّين المؤمنين بلقاء الله**».

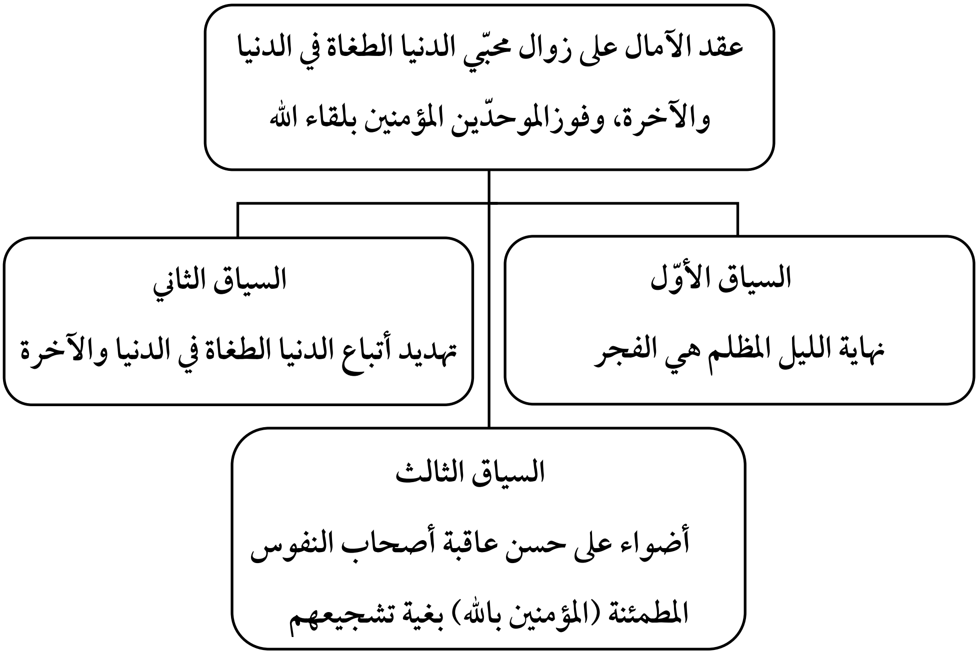

التدبّر في سورة الغاشية

التعريف بالسورة

سورة الغاشية هي السورة الثامنة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر.

ونظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الغاشية في سياق واحد.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ﴿٣﴾ تَصۡلَىٰ نَارًا
حَامِيَةٗ ﴿٤﴾ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ﴿٥﴾ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ﴿٦﴾ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا
يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴿٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ﴿٨﴾ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿١٠﴾ لَّا تَسۡمَعُ
فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴿١٣﴾ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ﴿١٤﴾
وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى
ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾
فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ
ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

تضمّ هذه السورة ستًّا وعشرين آية، وتتألّف من سياق واحد

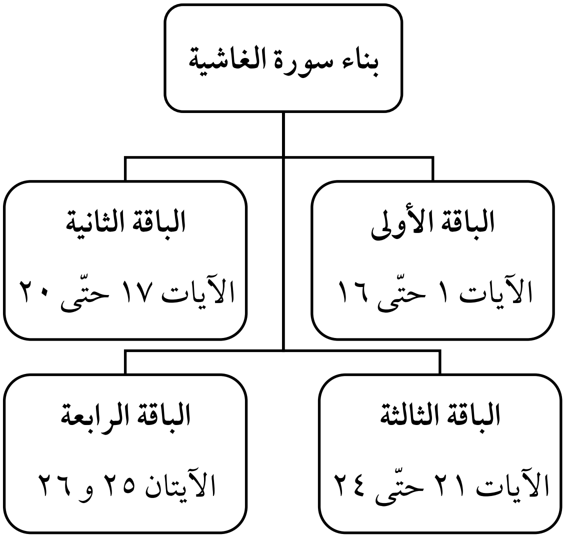

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الغاشِية: «غَشِى» في الأصل بمعنى التأثير في الشئ وتغطيته والهيمنة عليه، وسُمِّيت القيامة بالغاشية؛ لأنّها تعمّ جميع الخلائق، وأنّ أهوالها عامّة أيضًا.

آنِية: «إنَي» أصلها بمعنى النضج وحينونة الأمر؛ و«عَينٍ آنِية» في هذه الآية تعني عينًا بلغت غايتها في السخونة.

ضَرِيع: نوع من النبات اليابس الشائك.

سُرُرٌ: جمع «سَرير».

أَكوابٌ: جمع «كُوب» ويُطلَق على فنجان وقدح ليس له عروة.

نَمارِقُ: جمع «نِمرَقَة» بمعنى وسائد.

زَرابِي: جمع «زربيَة» تُطلَق على البُسُط الفاخرة الغالية الجميلة.

مُصَيطِر: «سَيْطَر»، وبمعنى التسلّط وإعمال الحكم والسلطة. فتعني الآية ما يلي: « لا يلزم عليك أن تفرض عليهم الحكم والسلطان والغلبة، وتدعوَهم إلى الإيمان قسرًا وكرهًا».

إياب: «أوْب» الرجوع.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى السادسةعشرة: الآية الأولى استفهام. ويتفرّع على هذه الآية فرعان يبدأ كلّ واحد منها بـ: ﴿وُجوهٌ﴾. والآية الثانية بداية الفرع الأوّل، ويصفه جميع الآيات حتّى الآية السابعة. أمّا الفرع الثاني فيبدأ من الآية الثامنة حيث أنّ الآيتين التاسعة والعاشرة وصف للآية الثامنة، والآيات من الحاديةعشرة حتّى السادسةعشرة تصوّر ﴿جَنَّةٍ﴾ المذكورة في الآية العاشرة.

الباقة الثانية. الآيات من السابعةعشرة حتّى العشرين: والآية السابعةعشرة ترتبط بالباقة السابقة بواسطة «الفاء»في صدرها:﴿أفلا﴾. والآيات من الثامنةعشرة حتّى العشرين جميعها معطوفة بحرف العطف ﴿وإلى﴾ على قوله: ﴿أفلا يَنظُرونَ﴾ في الآية السابعةعشرة.

الباقة الثالثة. الآيات من الواحدة والعشرين حتّى الرابعة والعشرين: وجود «الفاء» في صدر الآية الواحدة والعشرين: ﴿فذَكِّر﴾ يدلّ على اتّصالها بالآيات السابقة. والفعل الطلبيّ ﴿فذَكِّر﴾ أيضًا مثل:﴿هَل أتيكَ﴾ في الآية الأولى خطاب موجَّه إلى رسول الله ﷺ، كما أنّه دليل آخر على ترابط الآيات إلى هنا، وتستمرّ هذه الباقة حتّى الآية الرابعةوالعشرين. والآية الثانية والعشرون أيضًا استمرار لخطاب الرسول ﷺ. الآية الثالثة والعشرون استثناء ممّا

قبلها. والضمير المتّصل المنصوب في ﴿فيُعَذِّبُهُ﴾ يعود إلى ﴿مَن تَوَلَّى وكَفَرَ﴾ في الآية السابقة.

الباقة الرابعة. الآيتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون: الآية الخامسةوالعشرون أسلوب تعبيريّ جديد بحرف ﴿إنّ﴾، والآية السادسة والعشرون معطوفة عليها. وضمير الغائبين «هُم» في الآيتين: ﴿إيابَهُمْ﴾ و﴿حِسابَهُمْ﴾ مثل﴿عليهِم﴾ في الآية الثانيةوالعشرين يعود إلى فاعل الفعل﴿ يَنظُرونَ﴾ في الآية السابعةعشرة، ويدلّ على ترابط آيات السورة جميعها، ووحدتها السياقيّة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

نظرًا لبناء آيات السورة، يتمّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات كالتالي:

لقد نزلت سورة الغاشية في أجواء كان فيها الكافرون العَنَدة انطلاقًا من عدم إيمانهم بالربوبيّة والشريعة الإلهيّة، غافلين عن حساب الآخرة، ويكفرون بدعوة الرسول ﷺ، وكانوا متفائلين بمساعيهم الدنيويّة ومصالحهم المادّيّة العابرة. لذلك ومن أجل إزالة الغفلة وتذكُّر المعاد، سنقوم بفهم نصّ السورة ضمن أربع باقات من الآيات:

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

- هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ (١)
  - وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ
    - خَٰشِعَةٌ (٢)
      - عَامِلَةٞ
      - نَّاصِبَةٞ (٣)
    - تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ (٤)
    - تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ (٥)
    - لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ (٦)
      - لَّا يُسۡمِنُ
      - وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ (٧)
  - وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ
    - نَّاعِمَةٞ (٨)
      - لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ (٩)
    - فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ (١٠)
      - لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ (١١)
      - فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ (١٢)
      - فِيهَا
        - سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ (١٣)
        - وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ (١٤)
        - وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ (١٥)
        - وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ (١٦)
- أَفَلَا يَنظُرُونَ
  - إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (١٧)
  - وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨)
  - وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩)
  - وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ (٢٠)

فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ (٢١) لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن
- تَوَلَّىٰ
- وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ (٢٥)

ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم (٢٦)

١. تُناسِب الأعمال الدنيويّة العقابَ الأخرويّ (الآيات ١٦-١)

إنّ الآية الأولى من السورة تخاطب الرسول الأكرمﷺ، وتسأله عن الغاشية قائلةً: هل أتاك - أيّها الرسول- نبأ الغاشية؟: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾؟ اليوم الذي يجمع الناس من الأولين والأخرين، ولا مفرَّ منه لأحد ولا مناص. هذا النوع من الاستفهام يأتي تعبيرًا عن عظمة يوم القيامة وأهميّته وهو يخاطب الرسولﷺ في الظاهر؛ ولكنّه يخاطب الناس جميعًا في الحقيقة.

وتفصيل النبأ المجمل الذي أتى الرسولﷺ، هو وصف لطائفتين مختلفتين ووجهين متضادّين:[١] الطائفة الأولى أشخاص تبدو على وجوههم الذّلة والخزي من شدّة الحزن والعذاب: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾. والسبب في هذا الذلّ أنّ أهل النار في الآخرة، لايفارقهم التعب والعناء الناجمان عن مساعيهم الدنيويّة، وأنّهم مرهقون مُجهَدون:﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾. تسمية هذه الطائفة بـ «عاملة» تُظهِر من جهةٍ استمرار جهودهم، ومن جهة أخرى توحي بأنّ عمل الإنسان الجاهد إذا لم يصدر عن عقيدة صحيحة، فإنّ ذلك العمل تافه لا قيمة له. وفي الواقع إنّ الأهمّ من جهود الإنسان، هو عقيدته وإيمانه الصحيح الكامن وراء ذلك العمل، لذلك ستبقى جهود هذه الطائفة عقيمة، وتتجسّد حصيلة أعمالهم وجهودهم الدنيويّة المضنية في العذاب الأخرويّ الشامل، لأنّهم كانوا أنفقوا جميع جهودهم لكسب الدنيا فحسب.

---

١. جاء وصف الوجوه بدل أصحابها؛ لأنّ حالات الإنسان النفسيّة تبدو على وجهه أكثر من أيّ موضع آخر.

لما أنّ جميع مساعي أصحاب جهنّم كانت خارج إطار العقيدة الإلهيّة، فإنّها آلت إلى دخول نار حامية: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾. وكلّما طلب أهل النار الماء لشدّة حرارة النار يُسقَون من عين ساخنة بلغت ذروة الغليان: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ وسيُصَبّ بعنفٍ وقوّة على حناجرهم. وفي الوقت نفسه ليس لهم طعام إلّا من نبات شائك يابس: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ طعام مقرف مقزّز لا يستطيع أيّ حيوان تناوُلَه، كما أنّ الإنسان لا يَسْمَن منه، ولا يسدّ جوعه ورمقه: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٍ﴾ لذلك يبقى أهل النار ضعفاء هزيلين دومًا، ويتضوّرون جوعًا.

أمّا الطائفة الأخرى، فهم الذين تبدو آثار النعمة على وجوههم، وهم مغمورون بالنعم والرضا والسعادة: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾، لأنّهم راضون عن الثواب الذي نالوه على أحسن وجهٍ إزاء مساعيهم وصالحاتهم في الدنيا: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾. والتضادّ بين ﴿ خَاشِعَةٌ﴾ و﴿نَاعِمَةٞ﴾، وبين ﴿نَاصِبَةٞ﴾ و﴿رَاضِيَةٞ﴾ يُظهِر التضادَّ بين الطائفين بأكمل شكل.

وهؤلاء الراضون عن سعيه في الدنيا، يسكنون جنّة أرفع من بقيّة رياض الجنّة: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ ولا يسمعون أيّ كلام عبث وهراء أو لغو أبدًا، وهم في جوار رحمة الحقّ في مكان مُعَدّ للحياة الأخرويّة ومكان لسكينة الروح والجسم: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾.

في هذه الجنّة عيون جارية لا تنضب: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ وإلى جانبها سرر عالية: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ يجلس عليها أهل الإيمان، ويشاهدون النّعم المتوفّرة بين أيديهم في مشهد خلّاب. كذلك وُضِعَت أوانٍ وأكوابٌ مُعَدَّة للشاربين بجانب أسرّتهم: ﴿وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ﴾ ليشربوا من العيون الجارية بقربهم، وهناك وسائد مصفوفة واحدة جنب

أخرى: ﴿ونَمارِقُ مَصفوفَةٌ﴾ مُعدَّة لاستراحتهم واجتماعهم مع بعضهم، وبُسُط كثيرة مفروشة على الأرض للجلوس والاستراحة: ﴿وزَرابِيُّ مَبثوثَةٌ﴾.

ولم يتكرّر قوله: ﴿فيها﴾ في الآيات من الرابعةعشرة حتّى السادسةعشرة، الأمر الذي يشير إلى أنّه ينبغي أن ينظر القارئ نظرةً تجميعيّة شاملة إلى النعم المذكورة من الآية الثالثةعشرة التي تنطوي على الجارّ والمجرور﴿ فيها﴾، حتّى نهاية الآية السادسةعشرة، وذلك ليكون للنعم مشهد خاصّ بها، ولتُظهِر التناسب القائم فيما بينها بشكل أفضل.

٢. الدعوة إلى التفكّر في النظام الحسّيّ بغية الوصول إلى الحساب (٢٠-١٧)

تشير الآيات التالية إشارةً عابرةً إلى التدبير الإلهيّ؛ حيث تبيّن تناسب خلقة الظواهر مع وظيفتها والتنسيق فيما بينها: ففي البداية تلقي من خلال استفهام إنكاريّ، باللائمة على منكري الربوبيّة الإلهيّة لأنّهم أهملوا النظر في كيفيّة الخلقة، كما توبّخهم على أنّهم لا يُنعِمون النظر في كيفيّة خلقة الإبل: ﴿أفلا يَنظُرونَ إلَى الإبِلِ كَيفَ خُلِقَتْ﴾؟ فقد كانت الإبل لدى العرب من الأركان الأساسيّة للحياة، وقد خلقها الله بطريقة تسير أيامًا طويلة بلا ماء وطعام في قلب الصحاري القاحلة والمحرقة على الرمال الوعرة ووسط العواصف الرمليّة. أوليست خلقة الإبل متناسبةً مع أجواء عملها؟ هل هذه الكيفيّة في الخلق (التدبير) منفصلة عن أصل الخلق، أو ليس خالق الإبل ربًّا مدبّرًا؟

والنقطة الأخرى التي أُشِيرَ إليها هي كيفيّة رفع السماء وعلوّها: ﴿وإلى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ ﴾ وتناسب هذه الرفعة مع وظيفة السماء؛ لأنّ قيمة السقف بارتفاعه وسموّه. كذلك تلفت الآيات الأنظار إلى الجبال، وتدعو إلى التفكير في كيفيّة توتيدها للحفاظ على

أجزاء الأرض: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾. فهل نصْب الجبال شئ غير التدبير الربوبيّ لله؟ كذلك انظروا إلى سعة الأرض وأنّها كيف سُطِحَت وَعُبِّدت لتتناسب مع العيش والحياة: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

ويدلّ تكرار ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآيات على التوصية ولفت الانتباه إلى التدبير المشهود في خلقة هذه الظواهر، وأنّه هل يبقى معها مجال للكفر بالتدبير الإلهيّ. من جهة أخرى، إذا انتبه أحد إلى وجوه التناسب والتناغم في مظاهر التدبير الإلهيّ، فإنّه سيؤيّد التنسيق والتناسب بين العمل الدنيويّ والجزاء الأخرويّ المذكور في الآيات السابقة.

والنقطة الهامّة الأخرى هي أنّ التناسب بين الظواهر المذكورة هنا، ونِعَم الجنّة المذكورة آنفًا، يؤيّد وجود التناسب والتناغم في الجنّة ونِعَمها، مثل التناسب بين ظواهر عالم الدنيا ووظائفها المقصودة، أمّا الشواهد اللفظيّة المؤيِّدة لهذا القول فهي كالتالي:

١. كما نري في الآيات من الثالثةعشرة حتّى السادسةعشرة، فإنّ الجارّ والمجرور ﴿فيها﴾ جاء في الآية الثالثةعشرة فحسب؛ وعُطِفَت عليها بقيّة الآيات حتّى السادسةعشرة، وفي الآيات من السابعةعشرة حتّى العشرين أيضًا، إنّما جاء قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ في الآية السابعةعشرة، وعُطِفَت عليه الآيات الثلاثة الأخرى.

٢. ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ في القِسم الأوّل، تتناسب مع ﴿رُفِعَتْ﴾ في هذا القسم. و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ في الآية السابقة تتناسب مع ﴿سُطِحَتْ﴾. كذلك يمكن القول أنّ كون ﴿الْجِبَالِ﴾ بصيغة الجمع يصوّر تسلسلها واصطفافها، كما أنّ النمارق المصفوفة في الجنّة ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ تتناسب مع ﴿إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

٣. مهمّة الرسول هي التذكير فحسب (الآيات ٢٤-٢١)

ثمّ تخاطب الآيات رسول الله ﷺ، وتأمره بالتذكير، مؤكّدةً أنّ مهمّته الرساليّة الرئيسة هي التذكير فحسب: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾؛ تذكير الذين لا يهتمّون بالتناسب في الخلقة. وأسلوب الحصر ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ يدلّ على حقيقة مفادها أنّه كان هناك أشخاص يعاندون ويصرّون على الكفر بالربوبيّة الإلهيّة، لدرجة أنّ رسول الله ﷺ، قد أصرّ على إيمانهم. لكنّ الله تعالى يقول أنّ التذكير وحده كافٍ لإتمام الحجّة، ولا داعيَ للإصرار، لأنّه أيّها الرسول! ليس لك عليهم سيطرة: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾. بالطبع تُستثنَى طائفة من تذكُّر رسول الله ﷺ: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ فإنّ الله تعالى سيعاقب مثل هذا الشخص بالعذاب الأكبر: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾.

٤. الإخبار بأنّ الجميع سيرجعون إلى الله، وأنّه سيحاسبهم (الآيتان ٢٥ و ٢٦)

في الختام يعلن الله تعالى أنّه ينبغي للرسول ﷺ، أن يذكّر الجميع بأنّ رجوعهم إلينا لا محالة: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ﴾، ولذلك فلا مفرّ من عذاب الله ولا مناص للمعرضين، ويرى بلهجة التهديد أنّ حسابهم محتوم ولزام عليه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾. ومجيء ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للتراخي والترتيب يدلّ على الدخول في مرحلة أعلى؛ وأنّ مرحلة الحساب أصعب من مرحلة الإياب إلى الله، على الرغم من تزامن الحدثين. كما أنّ كون ﴿إلينا﴾ و﴿علينا﴾ مجموعين يدلّ على وجود قائمين آخرين غير الله في مرحلتَي الرجوع والحساب؛ حيث يقومون بمهامّهم بإذن الله.

النتيجة

في البداية وبعد السؤال عن يوم الغاشية، يصف الله طائفتين: أهل الجنّة وأهل النار بما لهم من ثواب وعقاب متناسبَيْنِ مع أعمالهم في الدنيا، ومن ثمّ يصوّر مظاهر من الربوبيّة والتدبير الإلهيّ إلى جانب تناسب خلقة الظواهر وتناسقها مع وظائفها، فإذا انتبه أحد إلى وجوه التناسب والتنسيق في مظاهر الربوبيّة الإلهيّة، أيّد التناسب والتناغم القائم بين العمل الدنيويّ والأخرويّ المذكور في آيات الباقة السابقة، في النهاية نظرًا إلى وجود الغاشية، يجدّد الله خطابَ الرسولﷺ، فيأمره بالتذكير، ويلفت انتباه الخلق إلى أنّ الإياب إلى الله والحساب في الآخرة عليه تعالى.

نظرًا إلى صدر السورة وعجزها، وتعلُّق مضمون تسع عشرة آية من مجموع آياتها بالمعاد، فيدلّ ذلك كلّه على أصالة قضيّة المعاد في هذه السورة، لكن من منظور لفت الانتباه إلى مظاهر التدبير الإلهيّ، والتناسب بين خلقة الظواهر ووظائفها، وكذلك تنبيه الخلق إلى رجوع حساب الأعمال إلى الله، فتساعدهم السورة ليتعرّفوا من خلال وجود التناسب في هذه الدنيا، على حالات الناس الأخرويّة الموافقة لأعمالهم؛ لذلك فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هي أنّ: «**الظواهر الدنيويّة وتناسقها (التوحيد الربوبيّ) تشهد على أنّ حساب أعمال الناس سيتمّ في الآخرة، وأنّ أعمالهم تناسب ثوابَهم وعقابهم مناسبةً تامّةً**».

الظواهر الدنيويّة وتناسقها (التوحيد الربوبيّ) تشهد على أنّ حساب أعمال الناس سيتمّ في الآخرة، وأنّ أعمالهم تناسب ثوابهم وعقابهم مناسبةً تامّةً
الباقة الأولى
تُناسِب الأعمال الدنيويّة الجزاءَ الأخرويّ
الباقة الثانية
الدعوة إلى التفكير في النظام الحسّيّ للوصول إلى الحساب
الباقة الثالثة
مهمّة الرسول هي التذكير فحسب
الباقة الرابعة
الإخبار بأنّ الجميع سيرجعون إلى الله، وأنّه سيحاسبهم

التدبّر في سورة الأعلى

التعريف بالسورة

سورة الأعلى هي السورة السابعة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الطارق، وقبل سورة الغاشية.

بحسب الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الأعلى في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ
أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ
يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾
وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

تضمّ هذه السورة تسع عشرة آية، وتتألّف من سياقين:

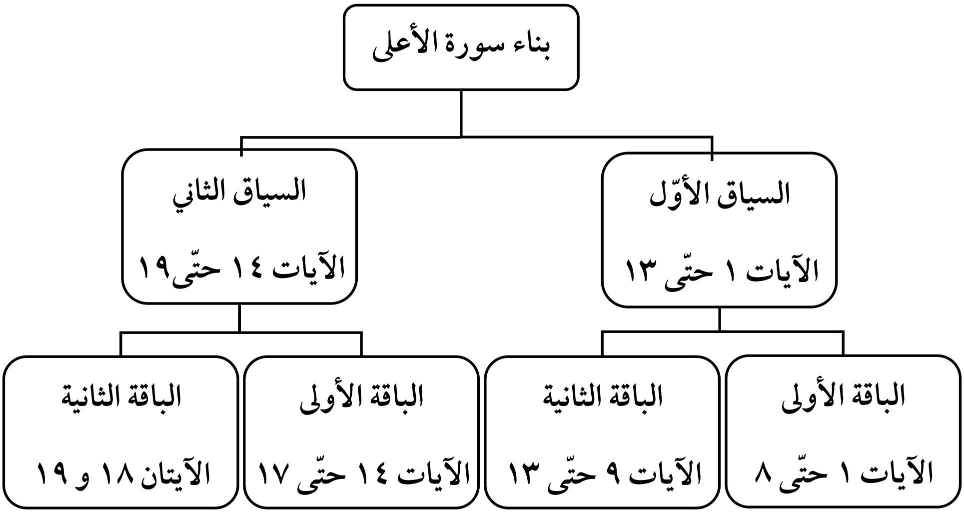

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات يتمّ في سياقين:

كان رسول الله ﷺ، يذكّر الناس دومًا طوال مسير الهداية. في المقابل، كان البعض يُعرِض عن إرشاداته الوحيانيّة، ولذلك لم يكن عمل الدعوة يسير كما ينبغي ويستحقّ. من جهة أخرى، فلم يكن تصرُّف الهاربين من الذكرى ناجمًا عن وجود مشكلة في الرسول ﷺ، أو في المضمون الوحيانيّ السديد، بل السبب كان عائدًا إلى عدم استعدادهم للتزكية وذكْر الله لأنّهم شغفوا بالدنيا، وهذا هو الذي جعلهم لا يبالون بالوحي. وعلى هذا أمامنا سياقان في سورة الأعلى المباركة من أجل التثبيت الإلهيّ وتعزيز معنويّة الرسول ﷺ، في أمر الدعوة والتعريف بسبيل الفوز والفلاح:

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ
أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ
يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَىٰ ۝١٣

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

المَرعى: مصدره «رَعْى» وهو في الأصل بمعنى الحماية، ويُطلَق على مرعى الحيوانات، لأنّه تتوفّر الحماية فيه للحيوانات المنهمكة بالرعي والأكل.

غُثاءً: أصلها «غثي»، وهي في الأصل بمعنى كلّ شئ خفيف تافه حطّ من مكانه وتحوّل إلى شئ غير موغوب فيه؛ كاليابس من ورق الشجر؛ وفي هذه الآية بمعنى أنّ الله قد جعل المرعى يابسًا بعد نضارته.

أحْوى: أصلها «ح و ى»، وهي في الأصل بمعنى الجمع والتكديس وتلاصق عدّة أشياء؛ وفي هذه الآية بمعنى اختلاط اللون الأخضر ونضارة ذلك النبات مع بعضها، وتحوُّله إلى أسْودَ أو أسْمَرَ بعد الخضرة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

يتألّف هذا السياق من باقتين من الآيات:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الثامنة: الآيات من الثانية حتّى الرابعة تصف

﴿رَبِّكَ﴾ في الآية الأولى، والآيتان الثالثة والرابعة معطوفتان على الآية الثانية. والآية الخامسة متفرّعة على الآية الرابعة، لابتدائها بـ «الفاء» ﴿فَجَعَلَهُ﴾. وتتّحد الآية السادسة في الخطاب مع الآيات السابقة، وإنّما خطاب موجَّه للرسول الأكرمﷺ، كالفعل الطلبيّ في الآية الأولى: ﴿سَبِّحِ﴾. والآية السابعة استثناء من الآية السابقة. وقوله تعالى: ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ في الآية الثامنة معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ في الآية السادسة.

الباقة الثانية. الآيات من التاسعة حتّى الحاديةعشرة: الآية التاسعة تبدأ بالفعل الطلبيّ، وترتبط بآيات الباقة السابقة بحرف العطف المذكور في صدرها: ﴿فَذَكِّرْ﴾. والآية العاشرة استمرار للآية التاسعة وأسلوبها التعبيريّ مماثل للآية السادسة. والآية الحاديةعشرة معطوفة على الآية العاشرة، ومرجع الضمير «ها» في ﴿يَتَجَنَّبُهَا﴾ هو﴿الذكرى﴾ في الآية التاسعة. الآية الثانيةعشرة تصف ﴿الْأَشْقَى﴾ في الآية السابقة. والآية الثالثةعشرة معطوفة أيضًا على الآية الثانيةعشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الأوّل. يبلغ الله رسولَه ﷺ الأمرَ بالتذكّر (الهداية التشريعيّة في سياق الهداية العامّة) (الآيات ١٣-١)

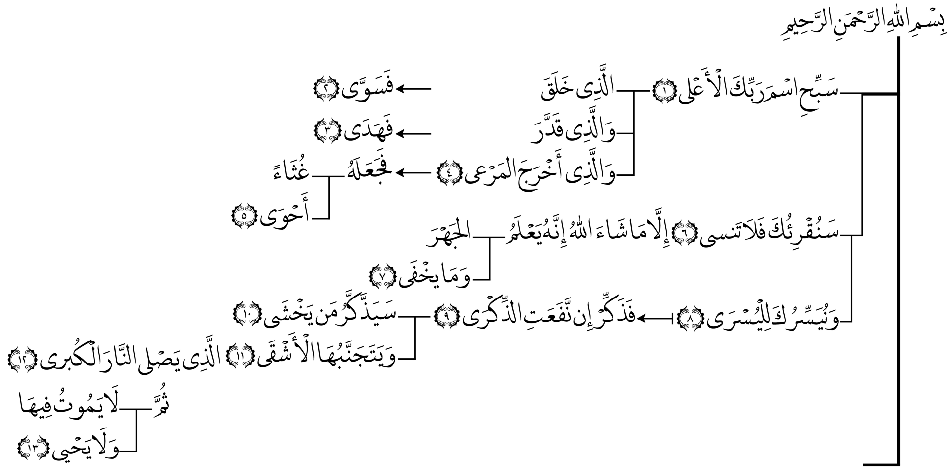

من أجل فهم نصّ السياق الأوّل، فإنّنا سنكمل مشوارنا بباقتين من آيات هذا السياق:

١ . التسبيح الربوبيّ يمهّد للتأييد الإلهيّ المدعوم بالإقراء وييسّر أمر الدعوة (٨-١)

لقد بدأت السورة بأمر رسول الله ﷺ، بأن يسبّح اسم ربّه الأعلى وينزّهه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعلَى﴾. ولا يُراد باسم الله الاسم الملفوظ، بل إنّه أمر وجوديّ؛ لأنّ الاسم يعني الآية والعلامة، وكلّ مظهرٍ وآيةٍ لله، يمكن أن يسمَّى اسمَ الله، ويصحّ القول بأنّ المقصود من اسم الله في هذه السورة هو القرآن الكريم؛ خاصّة وأنّ مسار الحديث في آيات السورة من البداية حتّى النهاية حول الوحي. كذلك بما أنّ أسماء التفضيل إذا استُخدِمت في القرآن بشأن الله تعالى، فإنّها تعني صفات عاليات، إذ لا يمكن مقارنة أحدٍ بالله، لذلك

يجب القول بأنّ ﴿ألأعلى﴾ يعني الأسمى والأفضل.

والربّ الأعلى هو: ﴿ألَّذي خَلَقَ﴾ وبعد الخلق لم يترك مخلوقه لوحده؛ بل وضع أجزاءه فوق بعضها، ونظّمها تنظيمًا يقع كلّ جزء في مكان لا يُتصوَّر له أفضل منه: ﴿فسَوَّي﴾. إنّه هو الذي قدّر حدًّا لنموّ كلّ كائن وكماله، وهداه إلى ذلك الحدّ المرسوم: ﴿والَّذي قَدَّرَ فهَدَى﴾. وهو الذي أنبت المرعى للحيوانات: ﴿والَّذي أخرَجَ المَرعى﴾ ولم يتركه على حاله، بل جعل ذلك المرعى يابسًا وأسود: ﴿فجَعَلَهُ غُثاءً أحوَي﴾.

ومضمون الآيتين الأخيرتين يعني التنمية والإزالة (التيبيس)، يُعَدّ مثالين حسيّين لإرشاد المخاطب إلى إدراك أمر عقليّ مذكور في الآيات التالية من السورة، وهو اختلاف النهج الإلهيّ بحسب اختيار الناس. بعبارة أخرى ذُكِرَ مثال حسّيّ ومشهود بغية إيضاح الهداية التشريعيّة؛ يعني أنّه كما يوجد الإثمار والذبول كلاهما في عالم التكوين، فإنّ أهل الخشية يرقون وينمون في ظلّ خضوعهم للذكرى، والأشقياء يحرمون أنفسَهم من الهداية التشريعيّة والدعوة النبويّة جرّاء سوء اختيارهم، لذلك فإنّ هذا الواقع لا يُعتبَر نقصًا في نظام الهداية التشريعيّة (الوحي)، أو نقصًا في قناة انتقال تذكّر الوحي (الرسولﷺ).

بعد ذلك، يقدّم الرسولﷺ، وعدين اثنين لينجز بفضلهما رسالته ناجحًا:

أمّا الوعد الأوّل فهو إزالة مخاوف رسول اللهﷺ، التي تتعلّق بتلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه؛ وتفصيله كما يلي: يا رسول اللهﷺ، عمّا قريب سنُقرِئك القرآن،[1] وسنشرف على ذلك؛ بحيث لن تتعرّض مفردة واحدة منه للتحريف أو الزيادة أو النقصان، ولئلّا تنسى

١. «الإقراء» يعني أخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل. (الميزان، ج ٢٠، ص ٢٦).

بفضل هذا الإقراء، ما نزل عليك: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾. ثمّ يستثني ما يشاءه الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من أجل الإعلان عن بقاء قدرة الله المطلقة واستمرارها وتأكيدها. وبالطبع فليس ذلك يعني أنّك ستنسى قِسمًا من القرآن؛ بل يعني أنّ وعد الإقراء وعدم النسيان لا ينفيان القدرة عن الله، وأنّه متى شاء الله استطاع استرداد تلك النعمة، على الرغم من أنّ ذلك لن يحصل بمقتضى حكمته.

والسرّ في موهبة الإقراء والتذكير هو أنّ الله يعلم كلّ ما ظهر وخفي: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾. وهذا يعود إلى أنّ بعض آيات القرآن متأخّرة عن بعضها الآخر من حيث زمن النزول ولذلك فهي واضحة للرسول، والبعض الآخر مقدّمة على البعض الآخر من حيث زمن النزول، وبما أنّه مرّ وقت أطول على نزولها فمن الممكن أن تستقرّ في أبعد زوايا الذهن وطبقاته؛ لكن الله الذي يكون الجهر وأخفى سيّان عنده يعلم ذلك، ولا يدع الرسول ﷺ، ينسى شيئًا.

أمّا الوعد الثاني فهو تيسير أمر الإبلاغ؛ بمعنى أنّنا سنُيسّرك لذلك التيسير: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾. والمقصود بـ ﴿الْيُسْرَىٰ﴾ وفق مسار الحديث في الآيات السابقة هو القرآن[1]؛ أي: يا أيّها الرسول! سنيسّر لك أمر الدعوة وتبيين القرآن، وسنهديك لتسلك دومًا أسهل الطرق في الدعوة والتبليغ اللسانيّ والعمليّ[2].

---

١. كما جاء في آيات عن تيسير القرآن: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر، الآيات ١٧ و٢٢ و٣٢ و٤٠) ومن أجل هذا الفعل الإلهيّ فقد سُمِّيَ القرآن الكريم «يُسرى».

٢. وكما كان طلب موسى ؑ من الله؛ مثل الآية ٢٦ سورة طه: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

وبما أنّ المعنى الآنف الذكر يتناسب مع عبارات مثل: «نُيَسِّرُك اليُسرَي» أو «نُيَسِّرُ لَك اليُسرَي» فإنّ تحوُّل التعبير في قوله تعالى: ﴿نُيَسِّرُكَ لِلْيُسرَي﴾ جاء لإفهام أنّنا سنتّخذ لك تدبيرًا لتختار بنفسك أفضل طريق ومنهج يسهّل أمر الدعوة، لذلك فكما تؤكّد هذه العبارة تيسير القرآن، كذلك تؤكّد ضمان تيسير الدعوة إلى القرآن للرسولﷺ.

٢. يبلغ الله رسولهﷺ التذكير بالهداية التشريعيّة في سياق الهداية العامّة (الآيات ١٣-٩)

الوعدان المذكوران هما بمثابة مقدّمة لتوجيه أمر هامّ إلى رسول اللهﷺ، وهو الأمر بالتذكير؛ إن كان نافعًا بالطبع: ﴿فذَكِّرْ إن نَّفعَتِ الذكرى﴾. يمكن أن نستخلص من تقدُّم هذين الوعدين على هذا الأمر أنّ رسول اللهﷺ، كان بحاجة إلى الدعم والتثبيت من جانب الله ليقوم بالتذكير ويبلّغ القرآن للناس. كذلك تقيّد الآية التذكير بكونه نافعًا، لأنّه عندما يتّضح عدم جدوى التذكير، فإنّ القيام به لغو، لذلك فإنّ مهمّة الرسولﷺ، هي الإبلاغ العامّ، وإنّما يُعاد التذكير إن نفع في المرّة الأولى.

والمفهوم العقليّ وغير الحسّيّ للسورة أي ردّة فعل الجمهور تجاه تذكير الرسولﷺ، هو أنّ من يخشى الله سيتذكّر بتذكيرك وسيقبله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخشَى﴾ وأنّ أشقى الناس يتجنّب التذكير القرآنيّ: ﴿ويَتجَنَّبُها الأشقَى﴾ مثل هذا الشخص سيصلى أكبر النيران: ﴿ الَّذي يَصلى النّارَ الكُبرَى﴾ وسيبقى فيها خالدًا؛ فلا يموت فيها ليرتاح من العذاب، ولا يحظى بحياة هادئة: ﴿ثُمَّ لا يَموتُ فيها ولا يَحيَى﴾.

ومن صفات نار جهنّم أنّها لا منجاة لأحد منها، لأنّ الخلاص بمعنى انقطاع العذاب بإحدى الطريقتين: إمّا أن يموت المعذَّب ويفنى وجوده حتّى لا يذوق العذاب ثانية، أو

يحيا لتتحوّل حياته الشقيّة إلى السعادة، وهذا يدلّ على أنّ المقصود من الحياة في هذه الآية هو الحياة الطيّبة والسعيدة.

نظرًا إلى آيات السياق الأوّل، بعد أن أمر الله تعالى الرسولﷺ بأن يسبّح لله، ووعد رسولهﷺ تعزيزًا لكي يصون به الوحي وبلّغه الإقراء ويسّر له أمر الدعوة، فقد أمر الرسولﷺ بالتذكير الوحيانيّ (الهداية القرآنيّة)، وهو بيت القصيد أيضًا، كما وصف أولئك الذين يتجنّبون تذكير الرسولﷺ بأنّهم أشقى الناس، لذلك فإنّ منحى السياق الأوّل سيكون تكليف الرسولﷺ، بإبلاغ التذكير(الهداية التشريعيّة في سياق الهداية العامّة)

السياق الثاني. رسالة الكتاب السماويّ: الفلاح في ظلّ التزكية وذكر الله؛ والخيبة ثمرة تفضيل الدنيا على الآخرة (الآيات ١٩-١٤)

قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

تَزَكَّىٰ: أصلها «ز ك و»، وهي في الأصل بمعنى إبعاد كلّ ما ليس بحقٍّ، وإخراجه عمّا هو سالم، والمقصود من «تَزَكّى» في الآية هو الذي طهّر نفسه من الأخلاق السيّئة والصفات الباطلة.

تُؤۡثِرُون: «أثَر» بمعنى اختيار الشئ وتفضيله.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات هذا السياق تضمّ باقتين أيضًا:

الباقة الأولي. الآيات من الرابعةعشرة حتّى السابعةعشرة: نظرًا إلى انقطاع الآية الرابعةعشرة عمّا قبلها من الآيات، فإنّها تُعتبَر بداية سياق جديد. الآية الخامسةعشرة معطوفة على الآية الرابعةعشرة. الآية السادسةعشرة تمثّل إضرابًا عن الآيتين السابقتين؛ لأنّها ابتدأت بحرف "بل"، والآية السابعةعشرة حال لها.

الباقة الثانية. الآيتان الثامنةعشرة والتاسعةعشرة: يشير اسم الإشارة ﴿هذا﴾ في صدر الآية الثامنةعشرة، إلى آيات الباقة السابقة. والآية التاسعةعشرة أيضًا بدلٌ من ﴿ٱلصُّحُفِ﴾ في الآية الثامنةعشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

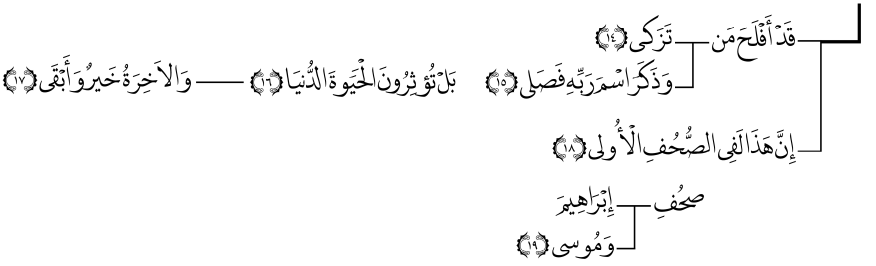

سنقوم بفهم نصّ السياق الثاني في باقتين من الآيات:

١. تبيين عوامل الفلاح والخيبة للإنسان (الآيات ١٧-١٤)

في هذا السياق يخبرنا الله تعالى أوّلًا أنّ نيل الفلاح والنجاة مرتبط بالتزكّي: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن

تَزَكَّى﴾[1] وذكر اسم الله والصلاة (العبوديّة): ﴿وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فصَلَّى﴾. والتناسب المفهوميّ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أفلَحَ﴾ مع ﴿مَن يَخشَى﴾ وتضادّه مع مفهوم الشقاوة: ﴿ألأشقَى﴾ في الآيات السابقة يوضّحان لنا أنّ الآيات التالية تخاطب الذين وُصِفوا في السياق الأوّل بـ: ﴿ألأشقَى﴾؛ أي الذين ابتعدوا عن تذكير رسول الله ﷺ، ولا يسعون وراء التزكّي ولا يذكرون الله، بل يرجّحون الحياة الدنيا على الحياة الأخرى: ﴿بَل تُؤثِرونَ الحَيَوةَ الدُّنيَا﴾ وجرّاء ذلك، يتعرّضون للشقاء، ولا يفلحون.

وانتقلت الضمائر من الغياب والإفراد في الآيات السابقة إلى الخطاب والجمع في ﴿بَل تُؤثِرونَ﴾، ليُفهِمنا أنّ حبّ الدنيا تأثير ناجم عن المجتمع وآفاته، فعندما يجتمع الناس ويشجّع بعضهم بعضًا على إيثار الدنيا، لذلك يعتبر الله أنّ إيثار الدنيا على الآخرة تقصير الإنسان نفسه: ﴿تُؤثِرونَ﴾. كما أنّ مجيء حرف الإضراب ﴿بَل﴾ يوضّح بأنّ هذه الآية في تضادٍّ مفهوميّ مع الآيات السابقة؛ أي أنّ الذي يؤثر الدنيا على الآخرة لن يتزكّى أبدًا، ولن يفلح؛ بل سيتّجه نحو الرجس والشرّ، وسينغمس في الغفلة عن الله والشقاء. بينما نرى أنّه في حال الترجيح بين واحدة من حياة الدنيا والآخرة، سنجد أنّ الآخرة خير وأبقى: ﴿والأخِرَةُ خَيرٌ وأبقَى﴾. لذلك فإنّ الباعث على شقاء الإنسان هو ترجيح الدنيا الفانية الزائلة على الآخرة الباقية الدائمة.

وإضافةً إلى ما مرّ ذكره آنفًا، ينسجم هذا المضمون مع الآيتين: ﴿ألَّذي أخرَجَ المَرعى﴾ و ﴿فجَعَلَهُ غُثاءً أحوَى﴾ في بداية السورة، لأنّه كما يكون المرعى أخضر طريًّا في فصل، وسيجفّ

١. بما أنّ ﴿التَزَكّى﴾ من باب «تفعّل»، ويفيد هذا الباب المطاوعة، فإنّه يفيد قبول التزكية.

وتذهب نضارته بعد مرور فترة من الزمن، فإنّ ترجيح الدنيا سينتهي إلى الفناء و العدم.

٢. قاعدة التوصّل إلى الفلاح والشقاء (طريق الفلاح والفوز هو السرّ العظيم للكتب السماويّة) في صحف الأمم الماضية (الآيتان ١٨ و ١٩)

والكلام الأخير يشير إلى الحقيقة القائلة بأنّ ما تمّ تقديمه حتّى الآن، في أهمّيّة التذكّر و طريقة التوصّل إلى الفلاح والشقاء، كان مذكورًا في صحف السابقين من الرسل إبراهيم و موسى عليهما السلام ﴿إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى* صُحُفِ إِبراهِيمَ و موسَى﴾. فالمواضيع المقصودة هي المواضيع المذكورة في الآيات الأربعة السابقة والتي يشير إليها قوله تعالى: ﴿هذا﴾.

لاحظنا أنّ الخطاب في السياق الثاني موجَّه إلى الناس، وموضوعه هو تربيتهم؛ على عكس السياق الأوّل الذي يخاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. هذا الاختلاف في الخطاب يدلّ على أهمية تأثّر الناس بهداية الرسول صلى الله عليه وآله.

وفق آيات الباقتين الأولى والثانية في السياق الثاني، فإنّ التزكية وذكر الله يتمّ تقديمهما بوصفهما طريق التوصّل إلى الفلاح، وأنّ إيثار الدنيا على الآخرة هي المشكلة الأساس للمتخلّفين عن ركْب الفلاح، لهذا نرى أنّ رسالة الكتب السماوية هي أنّ الفلاح رهين بالتزكية وذكر الله؛ والشقاء هو ثمرة إيثار الدنيا على الآخرة؛ وهذه الرسالة هي التي تشكّل منحى هذا السياق.

النتيجة

لقد نزلت سورة الأعلى المباركة لتعزّز وترفع معنويّات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في أمر تبليغ الرسالة و تذكير الناس عقب ابتعاد بعضهم عن التذكير متأثّرين بحبّ الدنيا، مما أدّى إلى

تجاهلهم للوحي، كما تذكّر السورة الربوبيّة التكوينيّة والتشريعيّة الإلهيّة في سياقَيْها، وتهيّئ الرسولﷺ، وتشجّعه على أمر الدعوة في السياق الأوّل، إلى ذلك تصف السورة المتذكّرين وفق تذكُّر رسول اللهﷺ (هدي القرآن)، بقوله: ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾، وتصف المعرضين عن ذلك بقوله: ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾. وفي السياق الثاني تذكر السورة سبيل الفوز والفلاح وهو السرّ العظيم للكتب السماويّة، فالفلاح للذين يزكّون النفس، وفي المقابل يأتي الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة.

وبمقارنة السياقين ندرك أنّ أهل التزكية في السياق الثاني هم مصاديق لأهل الخشية في السياق الأوّل، وأنّ الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة في السياق الثاني يمثّلون مصاديق للشقيّ في السياق الأوّل، لذلك فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو أنّ «**الفلاح رهين بقبول الهدْي القرآنيّ الذي جاء به النبيّ الأكرم ﷺ، والشقاء ثمرة إيثار الدنيا على الآخرة**».

والاشتراكات والتناسب اللفظيّ والفكريّ في كلا السياقين تجعل السورة تبدو مجموعة واحدة، مثل: تناسب ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ في السياق الأوّل مع ﴿ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ في السياق الثاني، وكذلك تكرار عبارات ﴿فَذَكِّرۡ﴾، ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ و ﴿ذَكَرَ﴾ في أرجاء السورة.

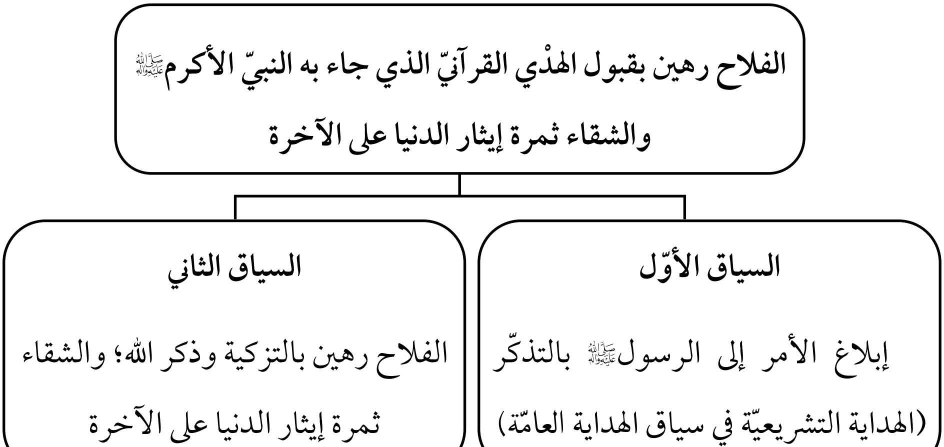

التدبّر في سورة الطارق

التعريف بالسورة

سورة الطارق هي السورة السادسة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة البروج وقبل سورة الأعلى.

ونظرًا للخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الطارق في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا
عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ
ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ
وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا
هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ
رُوَيۡدَۢا ۝١٧

تضمّ سورة الطارق سبع عشرة آية، وتتألّف من سياقين:

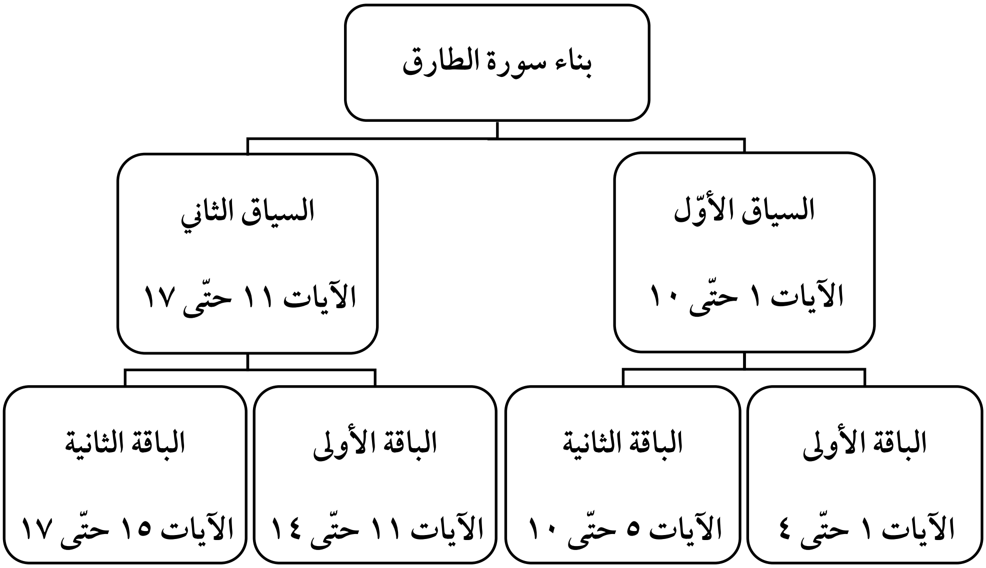

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للسورة يتمّ في سياقين:

لقد نزلت سورة الطارق المباركة ردًّا على الكفّار الذين كانوا يتّخذون القرآن هزوًا، ويعتبرونه عاجزًا، كما أنها نزلت ردًّا على ما أثاره منكرو المعاد من أسئلة وشبهات تتعلّق بكيفيّة إعادة الإنسان بكلّ معتقداته ومصالحه وسلوكيّاته؛ لكي يلقى جزاءه في يوم القيامة، وأُجيبَ على تلك الأسئلة والشبهات في سياقين:

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا

عليها حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ
وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الطارِق: «طَرق» بمعنى القرع والتثبيت على حالة خاصّة، والمقصود من «الطارق» الضارب والشئ الثابت على حالة خاصّة.

الثاقِب: «ثَقب» بمعنى الاختراق والنفوذ.

دافِق: «دَفق » بمعنى الانصباب الشديد الذي يُشاهَد فيه اندفاع.

الخطوة الثانية: فهم بناء السورة

يتألّف هذا السياق من باقتين من الآيات:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الرابعة: الآية الأولى قَسَم، والآية الثانية سؤال عن ماهيّة ﴿ ٱلطَّارِقِ ﴾. والآية الثالثة جواب على سؤال الآية السابقة، والآية الرابعة جواب القسم.

الباقة الثانية. الآيات من الخامسة حتّى العاشرة: تتصدّر الفاء ﴿فليَنظُرِ﴾ الآية الخامسة لتربطها بآيات الباقة السابقة. والآية السابعة حال من ﴿مَاءٍ﴾ في الآية السادسة. ومرجع ضمير «ـه» في ﴿رَجعِهِ﴾ هو﴿الإنسانُ﴾ في الآية الخامسة أيضًا. والآية التاسعة تبيّن ظرف وقوع الخبر في الآية السابقة. الآية العاشرة أيضًا تبدأ بـ «الفاء» وترتبط بما قبلها بضمير «ه» الذي يعود إلى ﴿الإنسانُ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

تنبيه الإنسان إلى قدرة الله على حفظ نفس الإنسان وإعادتها لإثبات المعاد (١٠-١)

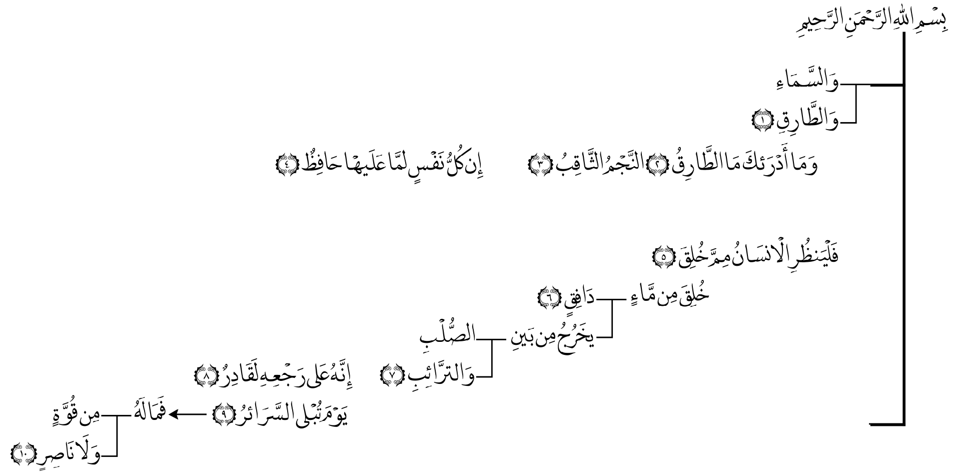

سنقوم بفهم نصّ السياق الأوّل من خلال باقتين من الآيات:

١. التأكيد على حفظ نفس الإنسان (الآيات ٤-١)

يبدأ الله تعالى في هذا السياق بإقامة دليل عقليّ على إمكانيّة المعاد: يبدأ الكلام بالقسم بالسماء والطارق (السالك)[1]: ﴿والسَّماءِ والطّارِقِ﴾. ويفيد عطف «الطارق» على «السماء» بأنّ هذا السالك السائر في السماء. ثمّ يدلّ بالسؤال عن طبيعة الطارق ﴿وما أدرَئكَ ما الطّارِقُ﴾ على أنّ هذا الموضوع غيبيّ وخارج عن إدراك العقل البشريّ، ولا بدّ من الرجوع إلى الوحي لفهم ذلك. والوحي يجيب بأنّ «الطارق»: ﴿ٱلنَّجمُ الثّاقِبُ﴾ الأمر الذي يمكن أن يكون المقصود منه نور الوحي في ليل الجهل وظلمته. تؤكّد هذا الأمرَ الآياتُ الأخرى

---

١. المفردات، ص ٥١٨.

في السورة التي تشير إلى ذلك.

أمّا جواب القسم فكما يلي: ﴿إِن كُلُّ نَفسٍ لَّمَّا عليها حافِظٌ﴾. ومسار الحديث في الآيات التالية التي تدور في فلك المعاد وإعادة خلق الإنسان، ينمّ عن أنّ المقصود من حفظ النفس ليس حفظ الأعمال؛ بل المقصود هو حفظ النفس وصيانتها بحدّ ذاتها؛ كما يدلّ ظاهر التعبير في الآية على ذلك أيضًا. بما أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ الإنسان يفنى بعد الموت، ولا أحد يستطيع الاحتفاظ بروحه، فإنّ الله يخبر في هذه الآية أنّ كلّ نفس عليها حافظ يحفظها من الفناء والزوال؛ أي أنّ الموت ليس فناءًا، بل وجود أسمى وأعلى.

٢. التأكيد على قدرة الله على إعادة نفس الإنسان (تنبيه الإنسان إلى قدرة الله على إعادة نفس الإنسان لإثبات المعاد) (الآيات ١٠-٥)

بما أنّ الهدف من الحفاظ على نفس الإنسان هو المعاد، فينبغي للإنسان أن ينظر أوّلًا من أيّ شئ خُلِق: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ﴾، كي يتسنّى له فهم إمكانيّة معاده وحياته الثانية. وفي الجواب يجب القول: أوَ لم يُخلَق من ماء دافق: ﴿خُلِقَ مِن مّاءٍ دافِقٍ﴾؛ يخرج من بين الظهر وعظام الصدر: ﴿يَخرُجُ مِن بَينِ الصُّلبِ والتَّرائِبِ﴾ وهو إشارة إلى خروج هذا الماء من بين عظام ظهر الرجل وصدره. لأنّ المنيّ يتكوّن هناك. فالله الذي خلق الإنسان من هذه المادّة، قادر لا محالة على إعادة نفسه وروحه يوم القيامة: ﴿إِنَّهُ علىَ رَجعِهِ لَقادِرٌ﴾؛ يوم تنكشف سرائر الانسان ونواياه الخفيّة، من وراء حجب الإنكار: ﴿يَومَ تُبلَى السَّرائِرُ﴾. نظرًا لمسار الحديث في الآيات، فإنّ هذه الآية تؤكّد ظهور سرائر الذين كانوا يتذرّعون بشتّى الأعذار لقبول المعاد. ففي ذلك اليوم لا قوّة لهؤلاء، ولا ناصر يدفع عنهم العذاب: ﴿فماله

﴿مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ .

فمجموع الآيات في هذا السياق يلفت انتباهنا إلى قدرة الله على الاحتفاظ بنفس الإنسان وإعادتها، لكي يُثبِت المعاد.

السياق الثاني

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الصَّدع: بمعنى الشقّ في الأجسام الصلبة والقوّية أو الهامّة؛ مثل شقّ الأرض الصلبة.

الهَزل: في الأصل بمعنى المزاح الهشّ والخفيف، في مقابل الكلام الجادّ الرصين الحازم؛ وفي هذه الآية يشير الهزل إلى حقيقة مفادها أنّ آيات القرآن جميعها قوّية وثابتة ليس فيها ضعف ولا اضطراب.

رُوَيدًا: «رَود» وفي الأصل بمعنى الطلب عن اختيار، وفي هذه الآية «أمهِلهُم رُوَيدا» بمعنى أعطهم مهلةً من باب السلطة والقوّة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

يتألّف هذا السياق أيضًا من باقتين من الآيات:

الباقة الأولى: الآيات من الحاديةعشرة حتّى الرابعةعشرة: وهذه الآيات في هذه الباقة بأسلوب القسم، فالآيتان الأوليان قَسَم، والآيتان الأخريان جواب قسم.

الباقة الثانية. الآيات من الخامسة عشرة حتّى السابعة عشرة: ضمير «هم» في الآية

الخامسة عشرة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ يشير إلى أناس كانوا يستهزؤون بالقرآن المذكور في آيات الباقة السابقة، و يتّخذونه هزوًا. الآيتان الأخريان أيضًا معطوفتان على ما قبلهما.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

سنكمل فهم نصّ هذا السياق من خلال باقتين من الآيات:

التأكيد على حقّانيّة الخطاب القرآنيّ، ومواجهة كيد الكافرين (الآيات ١٧-١١)

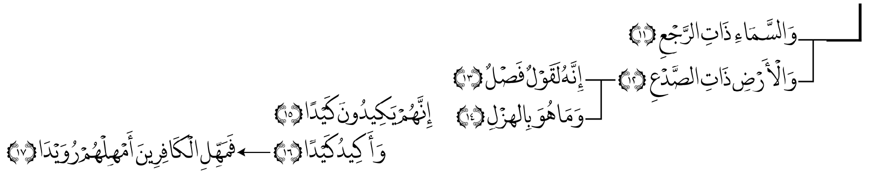

١. القرآن هو القول الفصل في إثبات المعاد (التأكيد على حقّانيّة خطاب القرآن) (١٤-١١)

بعد ذلك يتمّ ذكر قَسَمين لتأكيد وقوع المعاد بلا ريب، وإقامة دليل نقليّ على إمكانيّة المعاد:

القَسَم الأوّل، قسم بالسماء ذات الرجع: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾. مصداق الشئ الذي تُرجِعه السماء هو بخار الماء الذي يتصاعد من البحر ويشكّل الغيوم، ثمّ يعود مرّة أخرى على شكل مطر. وهذا التعبير الحسّيّ تشبيه أمرٍ عقليّ، نعني انفصال الروح عن جسم الإنسان وعودتها ثانية بقدرة الله، كما أنّ ﴿ألرَّجعِ﴾ و﴿رَجعِهِ﴾ في السياق السابق تجمعهما مادّة لغويّة واحدة؛ حيث أشار إلى رجوع نفس الإنسان بعد الموت.

والقَسَم الثاني بالأرض المتصدّعة: ﴿والأرضِ ذاتِ الصَّدعِ ﴾. مصداق هذا القَسَم هو تشقُّق الأرض بسبب نموّ النبات بعد هطول المطر، وهذا التعبير أيضًا تشبيه حسّيّ لأمر عقليّ، هو حياة الناس وإحياؤهم بعد الموت.

كما لاحظنا، فإنّ نوع الأقسام يثبت موضوع المعاد؛ حيث ارتبط فيها إحياء الطبيعة بإحياء الإنسان.

يدور الكلام في جواب القسم حول القرآن؛ القرآن الذي هو القول الفصل والواضح: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ ويفرّق بين الحقّ والباطل، وليس بالهزل والعبث: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾. فما يثبته القرآن من المعارف فهو حقّ محضّ، ولا ريب فيه، لذلك فإنّ جميع الأخبار القرآنيّة المتعلّقة بالمعاد ورجعة الناس ستتحقّق لا محالة. لا يخفى أنّ الضمير «ـه» في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لا يعود إلى ما قبله؛ بل المقصود هو القرآن، لأنّ القرآن فارق، وفصل وحاسم؛ وليس عائدًا إلى رجعة الإنسان في المعاد، على الرغم من أنّ إخبار القرآن عن المعاد مأخوذ بعين الاعتبار في هذا التعبير.

٢. إنذار بمواجهة كيد الكافرين (الآيات ١٧-١٥)

يريد الكافرون بإنكارهم للمعاد والرجعة أن يطفؤوا نور الله بحيل شتّى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ ليُظهِروا بهذه الطريقة حقيقة المعاد غامضةً أو أمرًا هزليًّا. لكن الله يقول: وأنا أكيد أيضًا: ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾. إذًا بما أنّني أواجه كيدهم فأَمْهِلْهم أيّها الرسول: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ ليخوضوا في ضلالهم، ويلاقوا في الآخرة جزاء أعمالهم. وليعلمِ الكافرون أنّ الفرص في الدنيا ليست دليلًا على حقّانيّتهم؛ بل إنّها كيد الله مقابل كيدهم. إنّ مجيء «مَهِّلْ» و«أَمهِلْ» الواحد تلو الآخر دون حرف عطف، يدلّ على كمال اتّصالهما، وكلاهما يدلّ على التدرّج، ويأمر بإعطائهم مهلة رويدًا رويدًا.

وبشكل عامّ، يؤكّد السياق الثاني حقّانيّة الخطاب القرآنيّ، باعتباره دليلًا مؤكّدًا على

إمكانيّة المعاد وتحقُّقه، ومواجهة كيد الكافرين.

النتيجة

إنّ الله يؤكّد في السياق الأوّل على حفظ نفس الإنسان وأعماله بواسطة حرّاس منصوبين موكّلين بكلّ شخص، ويشير إلى خلق الإنسان من ماء دافق، ويُفهِمنا أنّه قادر في يوم القيامة على إعادة نفس الإنسان.

وفي السياق الثاني كما يشير إلى كيد الكافرين وتهديدهم، يعتبر أنّ القرآنَ الكريم هو القول الحقّ والفصل فيما يخصّ إمكانيّة المعاد وتحقُّقه، ولا سبيل للباطل إليه. وبداية كلا السياقين بأسلوب القسم وتكرار كلمة «رجع» في كلا السياقين:﴿رَجعِهِ﴾ و ﴿ذاتِ الرَّجعِ﴾، يُظهِران أنّ موضوع الرجعة والمعاد يحظيان بمنزلة متميّزة في هذه السورة، حيث يقيم السياق الأوّل دليلًا عقليًّا على إمكانيّة المعاد، ويؤكّد قدرة الله على تحقيق المعاد، ويمثّل السياق الثاني دليلًا نقليًّا على إمكانيّة المعاد؛ وهو أنّ القرآن بمثابة دليل قاطع يُخبِر عن حقّانيّة المعاد. وفي ضوء ذلك نستنتج أنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**التنبيه إلى قدرة الله، وتأكيد حقّانيّة القرآن الكريم في إثبات المعاد**».

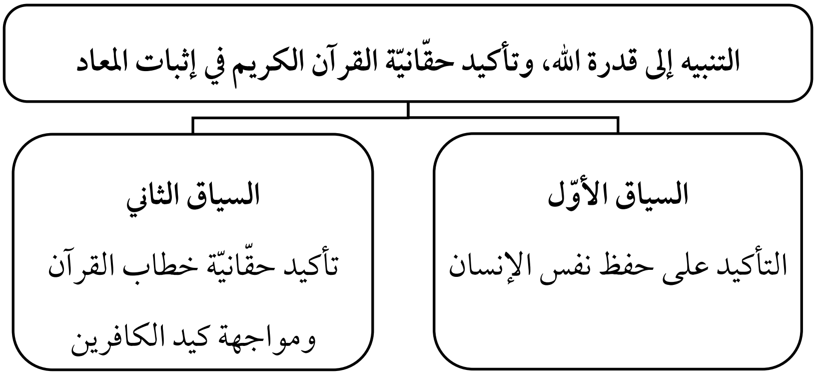

التدبّر في سورة البروج

سورة البروج هي السورة الخامسة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الانشقاق وقبل سورة الطارق.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة البروج في إطار أربعة سياقات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ
ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ
لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

تضمّ هذه السورة اثنتين وعشرين آية، وتتألّف من أربعة سياقات:

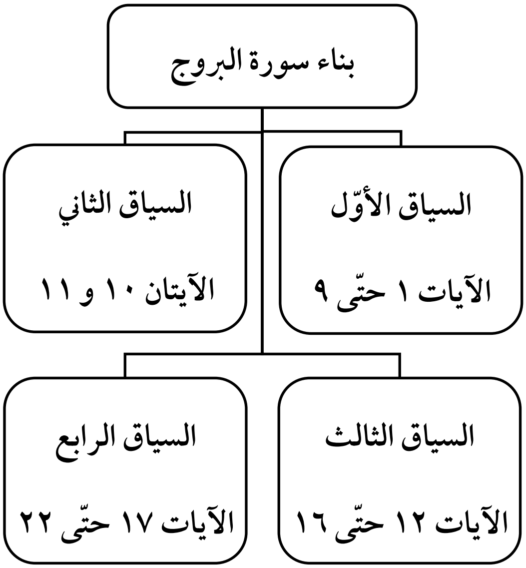

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات، يتمّ في أربعة سياقات أيضًا:

لقد عمد المكذّبون بالقرآن إلى تعذيب المؤمنين والتنكيل بهم ليثنوهم عن إيمانهم، ظنًّا منهم أن لا أحد يرى أعمالهم وتصرّفاتهم، وأنّهم لن يتعرّضوا للمساءلة والحساب. ولم يكن هؤلاء المكذّبون يعتبرون بالتهديدات والمصير المؤسف الذي حلّ بالأقوام الماضية المكذّبة، ولم يكونوا يغيّرون من معتقداتهم شيئًا، فتمادوا في تكذيبهم ليشكّكوا بذلك في حتميّة العذاب الإلهيّ ويضعوا الله ورسوله في موقف سلبيّ. فكانوا يزعمون أنّ رسول الله ﷺ، سينثني عن الاستمرار في توجيه الإنذارات الإلهيّة، وسيخلو الجوّ للكافرين ليفتنوا المؤمنين كما يشاؤون. في خضمّ تلك الأجواء، نزل الوحي الإلهيّ بسورة البروج، لتقوم في أربعة سياقات بنسف البيئة المثلى للكفّار في زرع الفتنة بين المؤمنين:

السياق الأول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ
ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ
شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

ٱلْبُرُوجِ: جمع، ومفردها «بُرج»، وفي الأصل بمعنى الظهور ولها ارتفاع وروعة؛ وفي هذه الآية بمعنى الأبنية العالية، والجميلة، والواضحة في السماء كالنجوم.

ٱلْأُخْدُودِ: أصلها «خ د د»، وفي الأصل بمعنى الشقّ والحفرة؛ والأخدود شقّ غائض في الأرض ملئ بالنار كانوا يعذّبون به المؤمنين.

نَقَمُواْ: مصدرها «ن ق م»، وفي الأصل بمعنى التوبيخ الشديد، والكراهيّة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية الأولى قَسَم، والآيتان الثانية والثالثة معطوفتان عليها، وهما في حكم القسم. الآية الرابعة جواب القسم. توضّح الآية الخامسة ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ في الآية الرابعة. الآية السادسة ظرف للفعل ﴿قُتِلَ﴾ في الآية الرابعة، والآيتان السابعة والثامنة معطوفتان عليها. والآية التاسعة أيضًا تصف لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في الآية الثامنة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الأوّل: التنبيه إلى المصير المؤلم لأصحاب الأخدود (الآيات ٩-١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١)
- وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢)
- وَشَاهِدٍ
- وَمَشْهُودٍ (٣) ← قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)

- وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)
- وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
  - الْعَزِيزِ
  - الْحَمِيدِ (٨)
  - الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)

لقد ابتدأت السورة بالقسم بالسماء ذات البروج: ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُروجِ﴾ تلك البروج التي هي مرصد ومعقل لحراسة العرش الإلهيّ ومراقبته.[١] كما أقسمتْ بيوم القيامة؛ ذلك اليوم الذي وعد القرآن فيه الحساب: ﴿واليَومِ المَوعودِ﴾ وأقسمتْ بالله الذي هو الشاهد والمراقب، وبما يُشاهَد: ﴿وشاهِدٍ ومَشهودٍ﴾. وفق مسار الحديث في الآيات السابقة واللاحقة فإنّ «الشاهد» هو الله، ويمكن أن يضمّ مصاديق أكثر مثل الرسول الأكرمﷺ. والمشهود أيضًا هو الأفراد أو الأعمال التي يشهدها الخالق، ويُحضَرون في يوم القيامة.

وجواب هذه الأقسام هو الإعلان عن مقتل أصحاب الأخدود: ﴿قُتِلَ أَصحابُ الأُخدودِ﴾. أولئك الذين كانوا قد حفروا حفرة لحرق المؤمنين؛ حفرة بالنيران المستعرة من الوقود الكثير: ﴿ألنّارِ ذاتِ الوَقودِ﴾. في تلك الأثناء كان أولئك الظالمون القساة العتاة جالسين بكلّ هدوء جنب خندق النار: ﴿إذ هُم عليها قُعودٌ﴾ وهم يُشاهدون الظلم الذي ألحقوه بالمؤمنين: ﴿وهُم علىٰ ما يَفعلونَ بالمُؤمنينَ شُهودٌ﴾. ترتبط الأقسام بجوابها كالتالي: ذُكِرَ في تلك الأقسام يوم الحساب والرقابة والمشاهدة، ومقتل أولئك الظالمين الذي ذُكِرَ في جواب القسم هو نتيجة ذلك الحساب والرقابة والمشاهدة الإلهيّة.

السبب في تعذيب أولئك المؤمنين وجريمتهم الوحيدة هو أنّهم كانوا مؤمنين بالله

---

١. البروج جمع برج، وهو الأمر الظاهر ويغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين، ويسمَّى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجًا. كون السماء ﴿ذاتِ البُروجِ﴾ يمكن أن يكون له معنيان: فمرّة المقصود منها نجوم السماء التي لها دور دفاعيّ فيُرمَى بها شخص، وتارة أخرى برج للمراقبة، وهو المكان الذي تُرصَد منه أمور العالم. فالمعنى المتناسب مع السياق والذي يوائم الآية ﴿وشاهِدٍ ومَشهودٍ﴾ والآية ﴿واللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، هو مكان الرصد ومحلّ المراقبة. (قاموس القرآن، ج ١، ص ١٧٥. الميزان، ج٢٠، ص٢٤٩)

العزيز الحميد: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ فكانوا يُحرقون المؤمنين في النار أحياءًا ليجعلوا بهذه الطريقة بقيّة المؤمنين أمام خيارين: بين ترك الإيمان أو الاحتراق في النار. يشير الوصف ﴿الْعَزِيزِ﴾ إلى قدرة الله العزيز الذي يقهر أعداء الحقّ، ويدينهم بقدرته الأبديّة، ويعزّز أتباع الحقّ. كما أنّ الوصف ﴿الْحَمِيدِ﴾ يشير إلى أنّ الله يقدّر كثيرًا أولئك الذين يؤمنون به، ويقومون في سبيل رضاه، ويصمدون من أجل إعلاء اسمه. أمّا الوصف الآخر لله فهو أنّ له ملك كلّ شئ في السماوات والأرض، وأنّه على كلّ شئ شهيد: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وأنّه سيجازي عمّا قريب كلَّ امرئٍ على ما فعله.

السياق الثاني

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

فَتَنُوا: «فَتن»، وفي الأصل تُستخدَم هذه الكلمة في الشئ الذي يسبّب الخلل والاضطراب؛ وأحد مصاديقه هو إدخال شخص في النار؛ الأمر الذي يؤدّي إلى خلل واضطراب فيه، والمقصود في هذه الآية من «فَتَنُوا» هو التعذيب بالنار.

الفَوز: الوصول إلى الخير والفلاح.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية العاشرة بداية سياق جديد، وحرف ﴿إِنَّ﴾ في بدايتها للاستئناف. كما تشترك الآية

الحاديةعشرة مع الآية السابقة في أسلوب التعبير، فإنّها تضادّها في الدلالة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

سوء عاقبة المفتّنين، وفوز المؤمنين (الآيتان ١٠ و ١١)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا — الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ — ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا — فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

إِنَّ الَّذِينَ — ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ — لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

بعد ذلك تتناول السورة قاعدة عامّة وثمرة الرقابة الإلهيّة:

إنّ الله يهاجم بشدّة أولئك الذين خيّروا المؤمنين والمؤمنات بين التخلّي عن الإيمان والتعذيب والتنكيل، ولم يتوبوا عن ذلك، ويتوعّدهم بعذاب جهنّم وعذاب الحريق في الدنيا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. تمّ تفسير ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ بأنّه عذاب دنيويّ لأمرين؛ أوّلًا: لأنّه عُطِفَ على ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بالواو العاطفة التي توحي بالتضادّ بين المعطوف والمعطوف عليه، وثانيًا: لأنّ قوله ﴿لَهُمْ﴾ تكرّر؛ فلو كان العذابان واحدًا لما كان هناك داعٍ لتكراره. يُستخلَص من مسار الحديث في الآيات أنّ هذه الآية يمكن أن تكون تعبيرًا عن عذاب ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ في الآيات السابقة. كما أنّ قوله تعالى:﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ يفيد بأنّه لو أراد مثل هؤلاء الأشخاص أن يرجعوا ويتوبوا، لاستطاعوا ذلك؛ فإنّ التوبة من أبواب الرحمة الإلهيّة الواسعة؛ إذ إنّ الإنسان يتمكّن من إصلاح نفسه مادام في هذه الدنيا.

وفي المقابل، يبشّر الله المؤمنين من أهل العمل الصالح بأنّ لهم جنّاتٍ ذاتَ أشجارٍ ملتفّةٍ

تجري من تحتها الأنهار، وذلك هو السعادة العظمى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءامَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ لهُم جَنّاتٌ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ ذالكَ الفوزُ الكَبيرُ﴾.

فالآيات في هذا السياق إضافةً إلى استعراضها لقاعدة عامّة حول عاقبة الكفّار الذين يؤذون المؤمنين ويظلمونهم، فإنّها تبيّن أنّ الرقابة الإلهيّة تؤدّي إلى سوء عاقبة المفتّنين وفوز المؤمنين.

السياق الثالث

إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

بَطشَ: القيام بعمل أو أخذ شئ بالقوة والقهر.

الوَدُودُ: مصدرها «و د د»، وبمعنى الرغبة في شئ وحبّه؛ ويُطلَق على الله «الودود»؛ لأنّه يحبّ عباده.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية الثانيةعشرة بداية أسلوب جديد لا يرتبط أدبيًّا بالآيات السابقة. والضمير ﴿هوَ﴾ في الآيتين الثالثةعشرة والرابعةعشرة يعود إلى ﴿ربِّكَ﴾ في الآية الثانيةعشرة. الآيتان الخامسةعشرة والسادسةعشرة أيضًا تُعَدّان متابعةً لوصف الله في الآية الرابعةعشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

العذاب الإلهيّ، شدّته وحتميّته (الآيات ١٢-١٦)

- إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾
  - إِنَّهُ
    - هُوَ
      - يُبْدِئُ
      - وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾
    - وَهُوَ
      - الْغَفُورُ
      - الْوَدُودُ ﴿١٤﴾
      - ذُو الْعَرْشِ
      - الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾
      - فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

بعد ذلك، لجبران خاطر الرسول ﷺ، وإحباط الدعايات السلبيّة للكافرين الذين كانوا يزعمون أنّ الوعيد الإلهيّ لا أثر له، وأنّ الله تعالى عاجز عن تنفيذ ذلك الوعيد، فإنّ الآية تؤكّد الحديث عن شدّة العذاب الإلهيّ وحتميّته قائلةً: نعم، إنّ أخْذ ربّك وعقابه شديدان: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾. وأدلّة حتميّة العذاب الإلهيّ هي:

١. حرف التأكيد ﴿إِنَّ﴾ في البداية، ٢. دخول «لام» التأكيد على الخبر: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ و ٣. وصف ﴿الْبَطْش﴾ بالشدّة، وهو بمعنى الأخذ بشدّة وعنف وصولة.

والسبب في هذا العذاب الشديد وشدّة العذاب يعود إلى أنّ الله أوجد الكائنات ويعيدها بعد الفناء إلى حالتها الأولى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ أي أنّ الخلقة الأولى والثانية بيده، لذلك فهو القدير على أيّ أمرٍ ومعاقبة من يشاء. وهو الغفور لعباده المؤمنين والمحبّ لهم: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾؛ وهو صاحب العرش المجيد والعظيم: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ ويفعل ما يشاء، بشكل كامل: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ و لا فاصل بين إرادته وفعله. كلّ هذه الأمور تدلّ على قدرة الله المطلقة.

واستكمالًا لمضمون الإنذار في السياقين السابقين، فإنّ السياق الثالث كما يذكر أوصافًا عديدة دالّة على إحاطة الله ورقابته، كذلك يؤكّد شدّة عذاب الله وحتميّته. لذلك نعتبر المنحى الإرشاديّ لهذا السياق شدّة العذاب الإلهيّ وحتميّته.

السياق الرابع

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩
وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

الجُنُودِ: العساكر

مُحِيطُ: مهيمن

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية السابعةعشرة أيضًا بداية لحديث جديد، ويجب أن نعتبرها استئناف سياق جديد، لعدم ارتباطها بالآيات السابقة. والآية الثامنةعشرة بدل من ﴿ ٱلۡجُنُودِ ﴾ في الآية السابعةعشرة. الآية التاسعةعشرة إضراب[1] عمّا قبلها لوجود ﴿بَلِ﴾ في أوّلها. الآية العشرون عُطِفَت على الآية السابعةعشرة. والآية الواحدة والعشرون مثل الآية التاسعةعشرة أيضًا. والآية الأخيرة أيضًا وصفٌ آخرُ لـ ﴿قُرۡءَانٞ﴾ في الآية السابقة.

---

١. الإضراب ينفي الحكم المذكور قبل «بل»، ويدلّ على عدم واقعيّته وكذب مدّعاه.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

حتميّة الوعيد الإلهيّ واستمراره على ضوء أخبار القرآن الغيبيّة عن الأقوام الماضية (٢٢-١٧)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) — فِرْعَوْنَ — وَثَمُودَ (١٨)
بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) — وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)
بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)

إنّ قصّة جنود فرعون وثمود التي أخبر بها الله الرسولﷺ بمثابة أخبار غيبيّة قرآنيّة عن الأقوام الماضية[١]، تشهد بوصف العذاب المذكور في الآيات السابقة: ﴿هَل أَتيكَ حَديثُ الجُنودِ*فِرعَونَ وَثَمودَ ﴾. وبهذا الشرح تجسّد القصّة عاقبة تلك الأقوام العاتية أمام أعين منكري المعاد وأنّه كيف ركعت تلك الأقوام أمام أمر العذاب الإلهيّ، وبادت. وهذا الخطاب من جهةٍ موجَّه إلى كفّار مكّة الذين كانت قوّتهم لا تُذكَر مقارنةً بتلك القوى العظمى، ليفكّروا في عاقبة أمرهم، ومن جهة أخرى كان هذا الخطاب مواساةً للرسولﷺ، وللمؤمنين تجاه أجواء مفتعَلَة مشحونة بالتكذيب بالعذاب الإلهيّ الشديد.

ثمّ تشير القصّة إلى ما قام به الكفّار من تكذيب متّسم بسمة العناد واللجاج؛ حيث لم يكفّوا عن إنكارهم على الرغم من وعيد الوحي الإلهيّ وإدراك قدرة الله المطلقة: ﴿بلِ الّذين كَفروا فى تَكذيبٍ﴾. لا ينبغي الأمل في أن يؤمنوا بسماع هذه الآيات، لأنّ الكافرين يصرّون على تكذيبهم، وكأنّهم قد استقرّوا في التكذيب وغاصوا فيه: ﴿فى تَكذيبٍ﴾. وحرف ﴿بَل﴾ يفيد عدم تأثير الإنذار القرآنيّ في الكافرين، وأنّ منهجهم القائم على التكذيب بالنسبة

---

١. يعبّر القرآن عن قصص الأقوام الماضية بـ «أنباء الغَيب»، كما يقول بعد قصّة مريمؑ: ﴿ذلِكَ مِن أنباء الغَيبِ نوحيهِ إليكَ وما كُنتَ لَدَيهِم إذ يُلقونَ أقلامَهم أيُّهُم يَكفلُ مَريمَ وما كُنتَ لَدَيهِم إذ يَختصمونَ﴾ (آل عمران/ ٤٤).

للقرآن هو السبب في تشكيكهم بشدّة عذاب الله وحتميّته؛ ذلك العذاب الإلهيّ الذي أكّدته آيات السورة مرارًا وتكرارًا.

أمّا الكافرون، فعليهم أن يعرفوا أنّهم لا يستطيعون بكفرهم إثبات محدوديّة قدرة الله تعالى وإعجازه، لأنّ الله محيط بهم من كلّ جهةٍ وهم مُحاطون ومُحاصَرون بشكل مطلق من جانب الله: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[1]، لذلك فإنّ الله شاهد على أعمالهم، وسيُعاقبهم على كلّ ما ارتكبوه.

وتكرار «بل» في الآيات التالية يُخبِر من جهةٍ عن حتميّة الإنذارات التي أعرضوا عنها، ومن جهةٍ أخرى يؤكّد أنّه لا ينبغي أن يأمل الإنسان أنّ الكفّار سيؤمنون بسماعهم لهذه الآيات، لأنّهم لا يعتبرون القرآن من عند الله؛ بينما الأمر ليس كذلك؛ بل القرآن كتاب مقروء مجيد لفظًا ومعنًى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ وهو في لوح محفوظ من أيدي الباطل والشياطين: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾. بعبارة أخرى، إنّ رسالة القرآن الواضحة حول حتميّة عذاب المفتّنين الكافرين ليست قابلةً للتكذيب فحسب، بل أكثر من ذلك، إنّه قرآن مجيد وعظيم مكتوب في لوح محفوظ؛ أي أنّ كلّ ما قيل للكافرين من وعيد وتهديد، هو قاعدة مكتوبة في لوح محفوظ.

وآيات هذا السياق تتحدّث عن مصير جنود فرعون وثمود كشاهد على شدّة عذاب الله للكافرين المكذّبين، وكذلك تخبرنا بإحاطة الله ورقابته الشاملة. لذلك، فإنّ المنحى الإرشاديّ لهذا لسياق هو حتميّة العذاب الإلهيّ الموعود واستمراره، وذلك على ضوء أخبار القرآن الغيبيّة عن الأقوام الماضية.

---

١. وراء كلّ شيءٍ جهاته الخارجيّة؛ جهاتٌ تحيط عوامل خارجيّة بذلك الشئ من خلالها.

النتيجة

لقد نزلت سورة البروج المباركة في أجواء مشحونة بالتكذيب بالعذاب الإلهيّ الشديد النازل على الكافرين المفتّنين الذين ينكّلون بالمؤمنين ويضطهدونهم لإرغامهم على التخلّي عن إيمانهم، وحطّمت في أربعة سياقات البيئة المثلى للكفّار عندما يثيرون الفتن ضدّ المؤمنين.

السياق الأوّل يبدأ بالقَسَم، ووفق مقتضى الظاهر يُخبِر جواب القسم عن الأحداث التاريخيّة لمقتل أصحاب الأخدود كنموذج لعاقبة التنكيل بالمؤمنين في الدنيا.

تشير كلتا الآيتين في السياق الثاني إلى قاعدة عامّة حول عاقبة الكافرين الذين يؤذون المؤمنين المظلومين.

في آيات السياق الثالث، يؤكّد القرآن الكريم أوّلًا شدّة العذاب الإلهيّ وحتميّته عبر خطاب الرسول الأكرمﷺ، ومن ثمّ يذكر مجموعة من صفات الله المتعلّقة بإحاطته وسيطرته على المؤمنين والكافرين، وذلك في مقام تعليله لشدّة العذاب الإلهيّ.

في السياق الرابع، يأتي أوّلًا ذكر أخبار القرآن الغيبيّة عن الأقوام الماضين (جنود فرعون وثمود). ثمّ يبيّن عظمة شأن القرآن وصحّة مضمونه بشكل كامل من خلال التصريح بمنهج التكذيب الذي تبنّاه الكفّار رغم إنذار الوحي الإلهيّ، وذلك لينسف الأجواء التي تكذّب بحتميّة العذاب.

وفي النتيجة نظرًا إلى تأكيد حتميّة وقوع العذاب الذي وُعِدَ الكافرون المكذّبون في السورة، وكذلك في ضوء وضوح إحاطة الله ومراقبته وشهوده في السورة كلّها، حيث

يُستدَلّ من السياق الأوّل بعبارات مثل: ﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾، ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ و﴿شَهِيدٌ﴾ على أنّ الله شاهد؛ أي أنّ العالم محضر الله؛ وفي السياق الثاني يبيّن في الواقع ثمرة الرقابة الإلهيّة بإلقاء الضوء على عاقبة الظالمين والمؤمنين؛ والسياق الثالث يضمّ أوصافًا إلهيّة متعدّدة تشير إلى إحاطة الله ورقابته؛ والسياق الأخير يشير إلى إحاطة الله ورقابته الشاملة. لذلك كلّه فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة كما يلي: «**تأكيد حتميّة وقوع العذاب الإلهيّ الذي وعده الله الشاهد والمحيط (التنبيه إلى الرقابة الإلهيّة لتحذير أهل الفتنة)**».

التدبّر في سورة الانشقاق

التعريف بالسورة

سورة الانشقاق هي السورة الرابعة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة المطفّفين وقبل سورة البروج.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الانشقاق في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ
﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ
أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ
سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ
بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا
عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

تضمّ هذه السورة خمسًا وعشرين آية، وتتألّف من سياقين

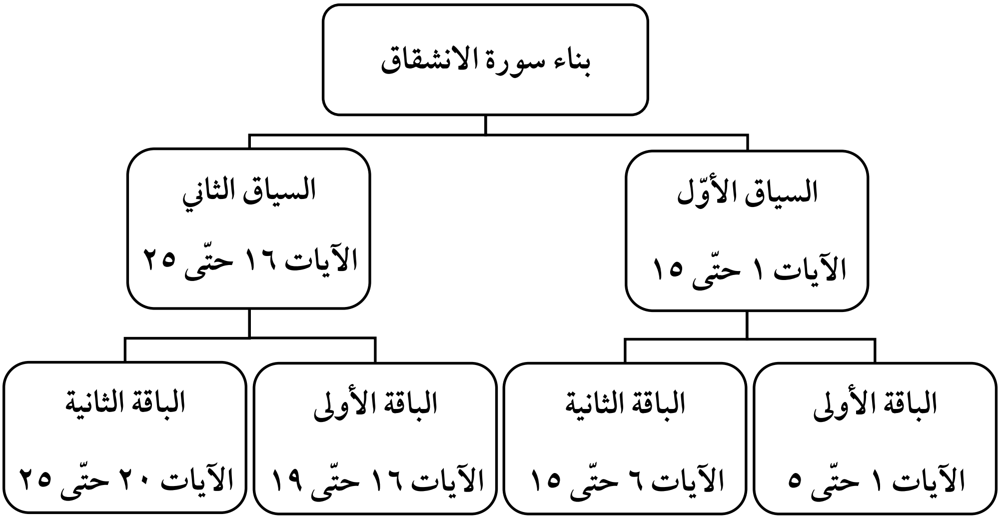

بعض الناس يغفلون عن سيرهم الإجباريّ إلى الله، إذ يزعمون بأنّهم لن يلاقوا الله أبدًا، وجرّاء هذه الرؤية المزعومة وقعوا في ورطة نشوة وغفلة فكريّة وعمليّة، وإضافةً إلى كفرهم بالقرآن الذي يدلّ على مسار الحركة الصحيحة إلى الله، فإنّهم تجاوزا ذلك إلى تكذيب القرآن عمدًا. في مثل هذه الأجواء، نزلت سورة الانشقاق المباركة، لتتوعّد المكذّبين بالقرآن، وتبشّر المؤمنين بالقرآن، من خلال سياقين يؤكّدان سير الإنسان إلى لقاء الله أثناء القيامة، ومرحليّة هذا السير.

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾
إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

الخطوة الأولي: دراسة لغويّة

اِنشَقَّت: من «ش ق ق» بمعنى التصدّع.

حُقَّت: «حَقّ» بمعنى الثبوت والمطابقة للواقع، وفي هذه الآية «حُقَّت»تعني: «الحقّ والواقع هو أن تكون السماء مطيعةً لأمر الله».

كادِحُ: «كَدح» وفي الأصل بمعنى السعي الحثيث الـمُتعِب، وعبارة «كادِحٌ إلى رَبِّك» تعني أنّ الإنسان دائمًا يسير إلى الله بجهود مضنية.

ثُبورًا: مصدرها «ث ب ر»، وفي الأصل تعني الوقوع في مأزق وشدّة يسعى الإنسان للتخلّص منها؛ وطبقًا لآيات هذه السورة، عندما يُؤتَى الإنسانُ صحيفةَ أعماله بيده اليسرى، ويرى المأزق الذي قد وقع فيه، وأنّه سائر نحو العذاب، حينئذ يصرخ بصوت عالٍ، مناشدًا الخلاص.

لَن يَحُورَ: «حَور»، وفي الأصل بمعنى الخروج من مسارٍ ما، والعودة من حالة إلى حالة أخرى، وفي قوله تعالى: «إنَّه ظَنَّ أن لَن يَحُور» كان هذا الجهنميّ يظنّ أنّه لن تتغيّر تلك الحالة والأوضاع الماديّة التي كان يتمتّع بها في الدنيا، لذلك فقد وثق بتلك الأوضاع.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات السياق الأوّل تنقسم إلى باقتين:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الخامسة: الآية الأولى ظرف، والآية الثانية معطوفة عليها. بما أنّ الآية الثالثة تبتدئ بحرف العطف، وتكون ظرفًا: ﴿وإذا﴾ فإنّها معطوفة على الآية الأولى، والآيتان الرابعة والخامسة معطوفة عليها.

الباقة الثانية. الآيات من السادسة حتّى الخامسةعشرة: الآية السادسة تبيّن حدثًا يقع في الظرف الزمانيّ للآيات السابقة، وهو استمرار لهذا السياق؛ ولكن بما أنّها لا ترتبط من الناحية الأدبيّة بالآيات السابقة فهي تُعتبَر بدايةَ باقةٍ جديدةٍ من الآيات. الآية السابعة متفرّعة على ما قبلها لوجود ﴿فأمّا﴾ في أوّلها، والآيتان الثامنة والتاسعة معطوفتان على الآية السابعة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

وقوع القيامة، موعد لقاء الإنسان الله(الآيات ١٥-١)

سنتابع فهم آيات هذا السياق ضمن باقتين:

١. استعراض علامات وقوع القيامة (الآيات ٥-١)

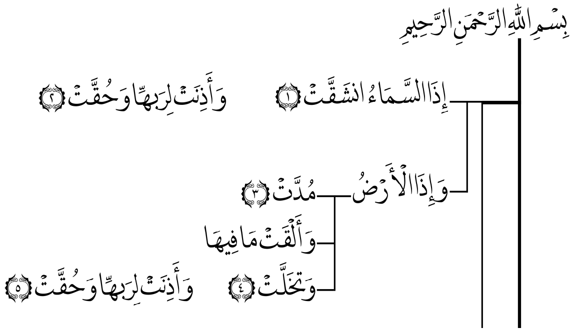

في البداية يخبرنا القرآن الكريم عن اضطراب وضجّة كبرى:﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾. و«الانشقاق» من باب الانفعال، ولأنّ هذا الباب يفيد المطاوعة والتسليم، فيوحي الفعل

﴿إِنشَقَّتۡ﴾ بأنّ الله يأمر السماء بالانشقاق، والسماء تخضع لهذا الأمر، وذلك الأمر أي انشقاق السماء يحصل بإذن الله. وهكذا تطيع السماء أمر ربّها، ويحقّ لها أن تقوم بذلك: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾. في الوقت نفسه أيضًا تمُدّ الأرض وتُسطَح: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ وتُلقِي كلّ ما فيها وتتخلّى عنه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ وهكذا تطيع السماء أمر ربّها، ويحقّ لها أن تقوم بذلك: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾. والأحداث المذكورة تُنبِئنا بعلامات وقوع يوم القيامة، وأسلوب الآيات المعبِّر عن تأكيد طاعة السماء والأرض للأمر الإلهيّ وصحّة هذا الأمر، يوحي للمخاطب بأنّ نظام العالم مطيع لخالقه، وأنّ الإنسان ليس مستثنًى من هذه القاعدة.

٢. التأكيد على سير الإنسان إلى الله تعالى (الآيات ١٥-٦)

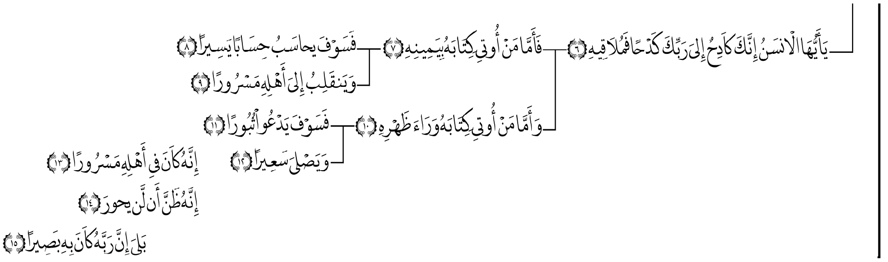

بعد تعداد علامات القيامة؛ تعلن الآيات خبرًا هامًّا يخاطب الناس قاطبةً بأنّك أيّها الإنسان ساعٍ بعناء وجهد إلى ربّك، وسينتهي سَيْرك وسعيك إلى الله، ومن ثمّ تلاقيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾. فالإنسان يعمل ويعيش بجدّ وكدّ، لكنّه لا يعي بأنّه يسعى إلى الله، وأنّ منتهى هذه الرحلة هو حضرة العدل الإلهيّ، وأنّه سيلاقي الله؛ شاء أم أبى. فالإنسان في الواقع يسير مع هذا الكون، والقيامة هي ملتقاه مع الله. إنّ

المؤمن والكافر سواء؛ سيلتقي جميعهم الله في سيرهم التكوينيّ، فبعضهم يلتقي مظهر رحمته، والبعض الآخر مظهر غضبه.

وفيما بعد، تصف الآيات ملاقاة الإنسان لله بطريقتين لكي تنبّه الإنسان إلى أنّه يجب أن يتهيّأ ويستعدّ لمصيره وخاتمة مطافه، وأن لا يتابع سيره بالغرور والتكبّر واللامبالاة:

الفريق الأوّل هم الذين يُؤْتَون كتابهم بيمينهم: ﴿فأمّا مَن أوتي كِتابَهُ بيَمينهِ﴾. لذلك سيُحاسَبون حسابًا يسيرًا في القريب العاجل: ﴿فسَوفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسيرًا﴾ وبعد ذلك سيعودون إلى أهلهم (إخوانهم في الدين) مسرورين: ﴿ويَنقَلِبُ إلى أهلِهِ مَسرورًا﴾.

والفريق الثاني هم الذين يسيرون إلى الله مُدبِرين له، لذلك يُؤْتَون كتابهم من وراء ظهورهم: ﴿وأمّا مَن أوتِيَ كتابَهُ وراءَ ظَهرِهِ﴾. فسرعان ما يعلو صراخهم، ويدعون على أنفسهم، ويطلبون هلاكهم: ﴿فسَوفَ يَدعوا ثُبورا﴾. وسيدخلون في نار مستعرة: ﴿ويَصلَى سَعيراً﴾.

عاقبة الفريق الثاني هذه، تعود جذورها إلى أعمالهم في الدنيا، لأنّهم كانوا مسرورين دائمًا بكفرهم وملذّاتهم الدنيويّة بين رفاقهم، انطلاقًا من غرورهم وتكبّرهم وغفلتهم: ﴿إنَّهُ كانَ فى أهلِهِ مَسرورًا﴾. السبب في سرور هذا الفريق وانسياقهم وراء الملذّات الدنيويّة أنّهم كانوا يظنّون بأنّهم لن يعودوا إلى الله أبدًا: ﴿إنَّهُ ظَنَّ أن لَّن يَحورَ﴾ وليس هناك معاد. لكنّ هذا التصوّر الباطل مرفوض؛ واللهُ الذي يسعون ويسيرون إليه، بصير[1] وعليم بأعمالهم: ﴿بَلَى إنَّ ربَّهُ كان به بَصيرًا﴾ وبالطبع هذا أيضًا يُعَدّ دليلًا آخر على سرورهم

١. «البصير» يعني من يمتلك معلومات متعمّقة، على عكس «الخبير» الذي يُطلَق على من لديه معلومات دقيقة وتفاصيل.

وتكبّرهم؛ أي أنّهم لم يكونوا يؤمنون بوجود مراقب يسجّل أعمالهم ويكتبها.

فالله ينبّهنا في السياق الأوّل إلى لقائه عند وقوع القيامة.

السياق الثاني

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

وَسَقَ: «وَسق» وفي الأصل بمعنى الجمع والضمّ.

لَتَرۡكَبُنَّ: مصدرها «ر ك ب» وتعني وضع شئ على شئ آخر، وفي الآية الشريفة تعني أنّك تنتقل دائمًا من حالة إلى حالة؛ وهذه إشارة إلى سير الإنسان الدائم إلى الله والقيامة.

يوعُون: «وَعى» تعني حفظ الشئ مع الإحاطة به وضمّه؛ والمقصود منه في الآية الشريفة خطوات الكفر والتكذيب التي يحفظها الكفّار ويخفونها في قلوبهم.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

كذلك تُقسَّم آيات السياق الثاني إلى باقتين:

الباقة الأولى. الآيات من السادسةعشرة حتّى التاسعةعشرة: الآية السادسةعشرة تعبير جديد ومستأنف يستهلّ بعبارة ﴿فلا أُقسِمُ﴾ وتشكّل هذه الآية مع الآيات السابعةعشرة حتّى التاسعةعشرة أسلوب القسم.

الباقة الثانية. الآيات من العشرين حتّى الخامسة والعشرين: الآية العشرون متفرّعة

على الآيات السابقة بسبب حرف «الفاء» في بدايتها، وليست متفرّعة على آية واحدة قبلها، لذلك تُعتبَر الآية العشرون بدايةَ مجموعةٍ جديدةٍ. والآية الواحدة والعشرون عطف على الآية العشرين، والآية الثانية والعشرون إضراب عنها. الآية الثالثة والعشرون حال عمّا قبلها أو عطف عليه. الآية الرابعة والعشرون أيضًا معطوفة على الآية الثانية والعشرين. الآية الأخيرة أيضًا استثناء من حكم الآية السابقة. والرابط بين هذه الآيات وسبب تماسكها هو ضمائر الجمع والغياب في الآيات من العشرين حتّى الرابعة والعشرين.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

التأكيد على السير المرحليّ للإنسان إلى الله، وتهديد المكذّبين بالقرآن الكريم (٢٥-١٦)

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾
وَٱلَّيۡلِ
وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾
وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾

فَمَا لَهُمۡ — لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ — ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

سنتابع فهم نصّ السياق الثاني بباقتين من الآيات:

١ . التأكيد على السير المرحليّ للإنسان إلى الله (الآيات ١٩-١٦)

يذكر الله في هذا السياق الأفق بحمرته وصفرته وبياضه أي وقت الأصيل وأثناء الغروب (آخر رمق في حياة الشمس) ولم يقسم بذلك: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾؛ الأمر الذي يفيد بأنّه لا حاجة إلى القسم بغروب الشمس؛ لأنّ أفول كلّ شيء ظاهر بما لا يدع مجالًا للشكّ. فالناس يأفلون أيضًا، وغروب الشمس يدلّ على غروب عمر الإنسان. هذا الأمر الحسّيّ

شاهد على أمر عقليّ، أي غروب عمر الإنسان. كذلك يقسم بالليل ما يضمّه ويشمله: ﴿وَالَّيلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وبالقمر إذا اكتمل: ﴿وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾؛ يعني أن يصل في سيره إلى مرحلة يكتمل فيها نوره، ليبدو في صورة القمر في الليلة الرابعةعشرة.

في جواب القسم أيضًا يخاطب الإنسانَ مؤكِّدًا على سيره المرحليّ؛ فتقول: أيّها الناس تتنقّلون من طور إلى طور: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾؛ بمعنى أنّ الإنسان في سعيه إلى الله سيقطع مراحل الدنيا والموت والبرزخ، وفي النهاية ينتقل إلى الحياة الآخرة والحساب و الجزاء.

والعلاقة بين القسم وجوابه تتمثّل في أنّ الأقسام المذكورة جميعها تشير إلى مظاهر الوجود المختلفة التي تكون من جهةٍ في حركة وتغيُّر مشهودَينِ ومحسوسَينِ، ومن جهة أخرى تكون متركّبة. وإيضاح هذا الأمر كالتالي: إنّ الشفق هو النور الضعيف الرقيق الذي يتبقّى بعد غروب الشمس، ومن ثمّ يتلاشي ليحيط الظلام تدريجيًّا بكلّ شئ. عندها يحلّ الليل، ويُشاهَد القمر وفيه نور ينعكس عن ضوء الشمس. في جواب القسم أيضًا أُشيرت إلى الحقيقة التي تفيد بأنّ الإنسان بعد اجتياز المراحل المتعاقبة يسير إلى الله، وستكون آخرته متأثّرة بحياته الدنيويّة مماثلةً القمر الذي يتأثّر نوره بنور الشمس.

٢. تهديد المكذّبين بالقرآن الكريم (الآيات ٢٥-٢٠)

استكمالًا لما سبق، يستنتج القرآن الكريم من المواضيع السابقة، ويؤكّد باستفهام تعجبيّ وتوبيخيّ، أنّ السير المرحليّ إلى الله أمر مسلّم به، وأنّه لا أحد يبقى في الدنيا خالدًا. مع هذا كلّه، فلماذا لا يؤمن البعض بالقرآن؟: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ولماذا لا يسجدون عندما يُقرَأ عليهم القرآن، ويطّلعون على حقائقه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا

يَسجُدونَ﴾؟! أفلا يؤمنون بأنّهم سيُرجَعون في نهاية المطاف إلى صاحب هذا الكتاب؟!

وبذكر «بل» الإضراب يذهب القرآن أبعد من ذلك، ويقول إنّ ذلك العناد والحدّة ليس ناتجًا عن نقص أو قصور في القرآن؛ بل إنّه ناتج عن إصرارهم على سنن الماضين التي جعلت الكفر متأصّلًا في وجودهم، لذلك لا يخضعون للقرآن فحسب؛ بل إنّهم يتمادون في تكذيبه، ويحسبونه كذبًا: ﴿بلِ الّذينَ كفَروا يُكذِّبونَ﴾ يأتي هذا في حين أنّ الله عليم بما يضمرون في صدورهم: ﴿اللّهُ أَعلَمُ بِما يوعونَ﴾، لأنّهم تارةً يلفظون ويبوحون بتكذيب القرآن، وتارةً يكتمونه، ومن هنا يأمر الله تعالى بلهجة تهديد ممتزجة مع الاستهزاء، الرسولﷺ بأن يبشّرهم بعذاب أليم: ﴿فبَشِّرهُم بعَذابٍ أليمٍ﴾؛ أي بشِّرْهم بالعذاب وأَخبِرْهم بموضوع العذاب، بحيث تعلو علاماتُ التحذير وجوهَهم. ينبغي للكفّار أن ينتبهوا إلى سيرهم الإجباريّ إلى الله في مراحل الوجود، ويكفّوا ويرتدعوا على هذا الأساس عن نهج الكفر والتعنّت أمام الحقائق القرآنيّة، وليعلموا أنّهم إذا لم يكفّوا عن التكذيب والإنكار، فإنّهم في نهاية المطاف سيصلون إلى لقاء مَن يعلم ما في قلوبهم، ويبشّرهم بالعذاب الأليم.

والكلام الأخير يستثني الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث يفرّق بينهم وبين الكفّار، ويبشّرهم بأجر غير ممنون: ﴿إلّا الّذينَ ءامَنوا وعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُم أجرٌ غَيرُ مَمنونٍ﴾.

فالله سبحانه وتعالى في السياق الثاني، قد هدّد الذين يكذّبون القرآن الكريم، إضافةً إلى تأكيده على السير المرحليّ للإنسان إليه.

النتيجة

بنزول سورة الانشقاق المباركة يصوّر الله سبحانه وتعالى علامات القيامة، فينبّه الإنسان في السياق الأوّل لسيره الحثيث إلى الله، ويرسم لقاءه بالله في طريقتين: الأولى لقاء مظاهر رحمة الخالق، والأخرى لقاء مظاهر غضب الله. لذلك فإنّ المنحى الإرشاديّ للسياق الأوّل هو أنّ: «**وقوع القيامة ملتقى الإنسان مع الله**».

وفي السياق الثاني، بعد القسم بمظاهر الوجود المختلفة، وفي جواب القسم يخاطب الإنسان مؤكّدًا على سيره المرحليّ إلى الله، ويهدّد المكذّبين بالقرآن، ويبشّر المؤمنين به. ومن هنا، فإنّ المنحى الإرشاديّ لهذا السياق هو: «**التأكيد على السير المرحليّ للإنسان إلى الله، وتهديد مكذّبي القرآن الكريم**».

تعتبر السورة في مستهلّها وقوع القيامة ملتقى الإنسان مع الله، الأمر الذي يمثّل مقدّمة لإثارة السؤال القائل: لماذا لا يؤمن الإنسان بالقرآن الكريم الذي هو الدليل على المسار الصحيح إلى الله؟ نظرًا إلى ذلك، وبالتأكيد في خاتمة السورة على السير المرحليّ للإنسان إلى الله، فإنّ الله يتوعّد مكذّبي القرآن الكريم بعذاب أليم. ومن هنا نستخلص المنحى الإرشاديّ للسورة كما يلي: «**التحذير من الكفر بالقرآن في ضوء السير الطبيعيّ للإنسان إلى الله ولقاءه به**».

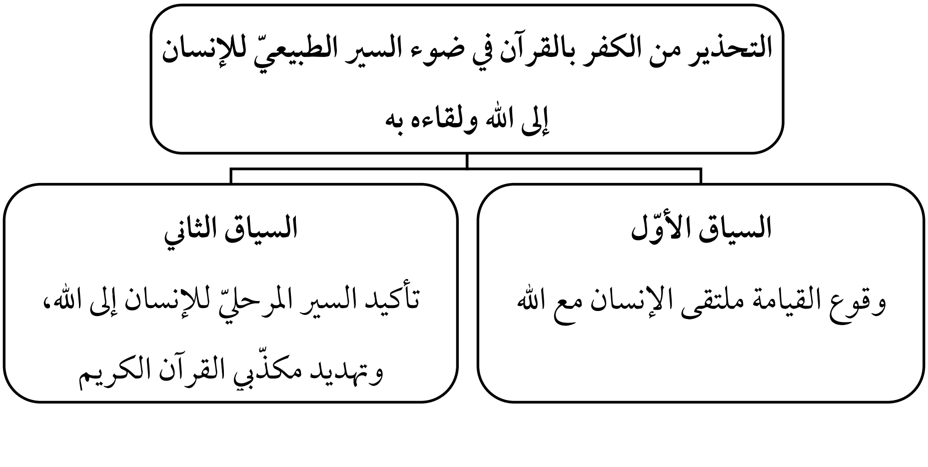

التدبّر في سورة المطفّفين

التعريف بالسورة

سورة المطفّفين هي السورة الثالثة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة الانفطار وقبل سورة الانشقاق.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة المطفّفين في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ
يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾
وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ
﴿١٢﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم
بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ
﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ
نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ
﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ

ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

تضمّ هذه السورة ستًّا وثلاثين آية، وتتألّف من سياقين:

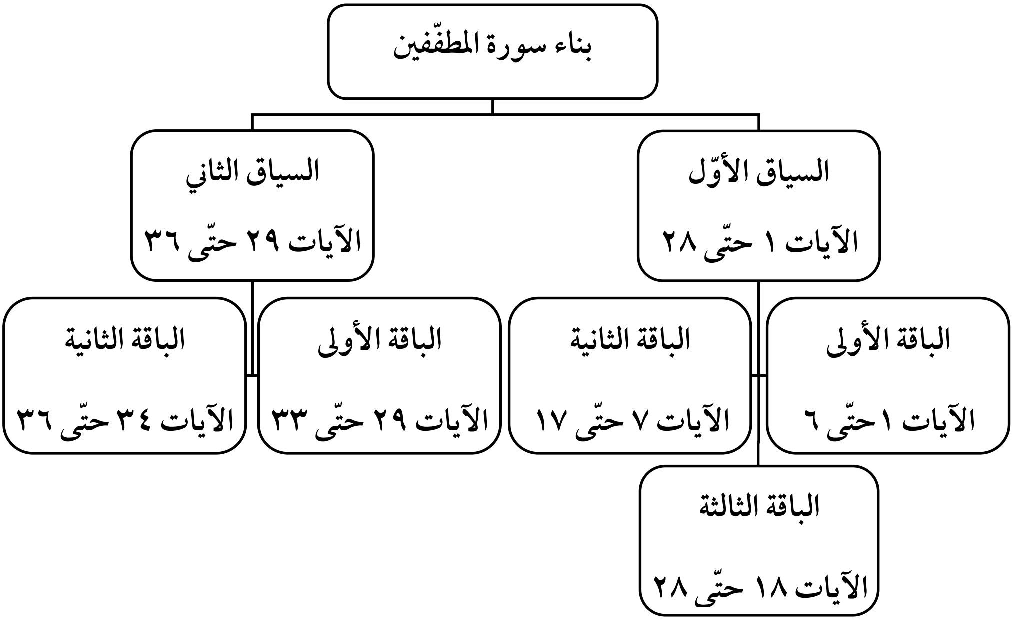

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾
كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا
يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ
رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ
إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ
ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

المُطَفِّفِين: مصدره «ط ف ف»، وتُطلَق هذه المادّة في الأصل على الحواف والجوانب العليا لشئ ما؛ و«التطفيف» هو مصدر «مُطفّفين» يعني أنّك لم تملأ حوافّ ذلك المكيال الذي تكيل به، وتتركه خاليا كيلا يأخذ الطرف المقابل حقّه كاملًا، ولتبخسه حقّه.

يستَوفُون: مصدرها «و ف ي» بمعنى أخذ الشئ تامًّا؛ والآية تشير إلى أنّ هؤلاء المطفّفين إذا كالوا شيئًا أو وزنوه، أخذوه لأنفسهم تامًّا.

سِجِّين: مصدرها «س ج ن»، وفي الأصل بمعنى السجن في مكان ضيّق وتحت الأرض، و«سِجِّين» اسم المبالغة بمعنى الموضع الضيّق جدًّا والسفليّ في جهنّم.

رانَ: مصدره «رَين» وفي الأصل بمعنى التغطية المترافقة بالهيمنة والسيطرة، والآية الشريفة «رانَ على قُلُوبِهِم» تعني أنّ ذنوبهم ومنكراتهم وسيّئاتهم غلبت وغطّت على قلوبهم وطُبِعَت عليها، لذلك لن يدركوا الحقّ.

مَحجُوبُون: مصدره «ح ج ب»، وفي الأصل يُطلَق على الحائل الذي يتوسّط شيئين ويمنع التقاءهما؛ والآية تشير إلى أنّ هؤلاء يوم القيامة بأعمالهم وتصرّفاتهم سيحولون بينهم وبين الله، فلن يدركوا الحقّ ورحمته.

نَضرَ: مصدر «ن ض ر»، وفي الأصل بمعنى البريق واللمعان في الظاهر الذي يدلّ على حسن الحال، و«نَضرَه النَّعِيم» تعني رونق النعم وبهاءها.

رَحِيق: أصلها «ر ح ق» من أسماء الخمر، وهو كلّ شراب لا غشَّ فيه.

يتَنافَس: مصدره «ن ف س»، بمعنى اللهاث، وهو كناية عن الركض بسرعة؛ وهي في الآية تشير إلى أنّه يليق بكم في سبيل الوصول إلى نعم الجنّة أن تسرعوا وتتسابقوا، وأن تلهثوا وتتقطّع أنفاسكم من أجل ذلك.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

نُظِّمَت آيات هذا السياق في ثلاث باقات:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى السادسة: الآية الثانية تصف ﴿ٱلْمُطَفِّفِينَ﴾ في الآية الأولى، والآية الثالثة معطوفة عليها. والمشار إليه باسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ في الآية

الرابعة، هو ﴿ٱلۡمُطَفِّفِينَ﴾ والضمائر الغائبة في الآيات السابقة. الآية الخامسة متعلّقة بـ ﴿مَبعوثونَ﴾ في الآية الرابعة لوجود الجارّ والمجرور في أوّلها: ﴿لِيَومٍ﴾. الآية السادسة هي الأخرى تقدّم مزيد الإيضاح للآية الخامسة.

الباقة الثانية. الآيات من السابعة حتّى السابعةعشرة: ﴿كَلَّآ﴾ في صدر الآية السابعة ردع للمفهوم السابق، وأحد الفروع المنبثقة عن الآية السادسة والذي يستمرّ حتّى الآية السابعة عشرة. الآية الثامنة استفهام عن ﴿سِجّينٍ﴾ في الآية السابعة؛ وجاء جوابه في الآية التاسعة. ﴿يَومَئِذٍ﴾ في الآية العاشرة هي نفس يوم القيامة الذي أُشِيرَ إليه في الآيتين الخامسة والسادسة. والآية الحاديةعشرة تصف ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في الآية العاشرة. يعود ضمير «ـه» في ﴿ما يُكَذِّبُ بهِ﴾ إلى قوله: ﴿بيومِ الدّينِ﴾ في الآية الثانيةعشرة. الآية الثالثةعشرة أيضًا ترتبط بما قبلها عن طريق مرجع الضمير؛ إذ أنّ الضمير «ـه» في ﴿عليهِ﴾ يعود إلى ﴿كُلُّ مُعتَدٍ﴾ في الآية الثانيةعشرة. ﴿كَلَّآ﴾ في بداية الآية الرابعةعشرة حرف ردع وإنكار لعبارة ﴿قال أساطيرُ الأولينَ﴾ في الآية السابقة، كما أنّ تكرار ذلك في الآية الخامسةعشرة: ﴿كَلَّآ﴾ يُعتبَر ردعًا آخر. الآية السادسةعشرة ترتبط بما قبلها بالضمير الغائب «هُم» في ﴿إنَّهُم﴾، وتخاطب الآية السابعةعشرة: ﴿كُنتم به تُكَذِّبونَ﴾ الذين مرّ ذكرهم في الآيات السابقة بضمير الغائبين «هُم».

الباقة الثالثة. الآيات من الثامنةعشرة حتّى الثامنة والعشرين: نظرًا للتضادّ المفهوميّ بين الآية الثامنةعشرة والآية السابعة، فإنّ الآية الثامنة عشرة مثلها ردع عن الباقة الأولى وفرع آخر انبثق عن الآية السادسة. الآية التاسعةعشرة تستفهم عن ﴿علّيّينَ﴾ في الآية

الثامنةعشرة، والآية العشرون جوابها. الآية الواحدة والعشرون تصف ﴿كِتابٌ﴾ في الآية السابقة. يدور الحديث في الآية الثالثة والعشرين حول ﴿ألأبرارَ﴾ في الآية الثامنةعشرة، والآيات الثالثة والعشرون حتّى الخامسة والعشرون استمرار للخبر المذكور في هذه الآية عن الأبرار. يرجع الضمير «ـه» في الآية السادسة والعشرين: ﴿خِتامُهُ﴾، وفي السابعة والعشرين: ﴿مِزاجُهُ﴾ إلى ﴿رَحيقٍ﴾ في الآية الخامسة والعشرين؛ أضف إلى ذلك أنّ الآية السابعة والعشرين معطوفة على الآية السادسة والعشرين. والآية الثامنة والعشرون أيضًا حال لكلمة ﴿تَسنيمٍ﴾ في الآية السابقة، أو مفعول لفعل محذوف تقديره: «أعني»، وهي في هذه الحالة توضّح ﴿تَسنيمٍ﴾ كذلك.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

من بين علامات الكفر بالمعاد وإنكاره، وتكذيب القرآن والرسولﷺ، يمكن الإشارة للتطفيف والتقليل؛ سواء في المسائل الفرديّة والاقتصاديّة أم في القضايا الاجتماعيّة والثقافيّة. وقد أشارت هذه السورة ضمن سياقين إلى نوعين للتطفيف، مبيّنةً سوء عاقبتهما.

السياق الأوّل. يهدّد الله المطفّفين الفجرة شديدًا لإنكارهم المعاد وتكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ (الآيات ١-٢٨)

- وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١)
  - الَّذِينَ
    - إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)
    - وَإِذَا
      - كَالُوهُمْ
      - أَو وَّزَنُوهُمْ
        - يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤)
          - لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)
          - يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)
- كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧)
  - وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨)
  - كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) — وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ
    - مُعْتَدٍ
    - أَثِيمٍ (١٢)
  - إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣)
    - كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)
    - كَلَّا
      - إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)
      - ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦)
      - ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)
- كَلَّا
  - إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)
    - وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩)
    - كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)
  - إِنَّ الْأَبْرَارَ
    - لَفِي نَعِيمٍ (٢٢)
      - عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣)
      - تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)
    - يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ
      - مَّخْتُومٍ (٢٥)
      - خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)
      - وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨)

سنتابع استيعاب هذا السياق بآياته:

١. تهديد المطفّفين (الآيات ٦-١)

تبدأ السورة بتهديد شديد «للمطفّفين»[١]: ﴿وَيلٌ لِّلمُطَفِّفِينَ﴾. وتعرّف مثالًا بارزًا لأعضاء هذا الفريق قائلةً: عندما يأخذون من الناس بضاعةً، فإنّهم يستوفون حقّهم: ﴿ألّذين إذَا اكتَالوا علَى النّاسِ يَستَوفونَ﴾؛ لكن عندما يكتالون أو يزنون للآخرين، فإنّهم ينقصون الوزن والكيل ويخسرون: ﴿ وإذا كالوهُم أو وزَنوهُم يُخسِرونَ﴾. في الحقيقة إنّ مضمون هذه الآيات الثلاث هو المذمّة لذلك الفريق؛ لأنّهم بعيدون عن الإنصاف، ولا يراعون حقّ الآخرين كما يراعونه لأنفسهم. كما أنّ هذا العمل يؤدّي إلى ضياع المجتمع البشريّ وفساده، لأنّ أسس المجتمع الإسلاميّ هي التوازن بين الحقوق المتبادلة.

ثمّ تعلن السورة بلهجة تهديد أنّ سبب التطفيف إنكار البعث، متسائلةً: ألا يظنّون أنّهم سيُبْعَثون: ﴿ألايَظُنُّ أُولَئكَ أنّهُم مَّبعوثونَ﴾. فإنّ مجرّد الظنّ بمجيء مثل ذلك اليوم يكفي ليردع الإنسان عن بخس المكيال. إنّ البعث في يوم حافل بأحداث جدّ عظيمة: ﴿لِيومٍ عَظِيمٍ﴾ و هذا إنذار للمطفّفين. وأهول تلك الأحداث هو قيام الناس للحساب أمام ربّ العالمين: ﴿يومَ يَقومُ النّاسُ لِربِّ العالَمينَ﴾.

٢. كتاب أعمال الفجّار في سجّين (الآيات ١٧-٧)

---

١. أصل مادّة «طَفَفَ» يعني عدم الوفاء والنقص من أيّ شئ مادّيّ أو معنويّ. (التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٧، ص ٨٧)، لذلك فالتطفيف لا يختصّ بنقص الكيل والوزن، بل يشمل كلّ تعدٍّ على الحدود الإلهيّة وكلَّ تقصيرٍ في العلاقات السياسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة أيضًا.

ثمّ يرفض القرآن الكريم ويستنكر بحرف الردع «كَلّا» التصرّف المشين أي بخس المكيال من جهةٍ، ويبيّن أنّ المطفّفين لا يستطيعون أبدًا التقليل من الحقوق الحقيقيّة للآخرين، ومن جهة أخرى يصف المطفّفين بأنّهم أحد مظاهر الفجور والعصيان وأنّ كتاب أعمالهم في سجّين: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾. ويسأل عن طبيعة سجّين، بغية تجسيد عظمتها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾؛ وذلك بأسلوب يُشعِر بأنّه لا طريق لمعرفة جواب ذلك سوى الوحي. حيث يصف ذلك بأنّه سجلّ عمل مرقوم: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾؛ بمعنى أنّ سجّين اسم ملفات يُحتَفَظ فيها بصحائف الأعمال. ﴿مَرْقُومٌ﴾ يعني كتابة بارزة أو غائرة[١]، والداعي إلى ذكره بمثابة وصف لصحيفة عمل الفجّار هو أنّ صحيفة أعمالهم كالنقش على الحجر لا تزول.

و الكلام التالي دعاء على مكذّبي القرآن والرسول صلى الله عليه وآله و تهديد لهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أولئك الذين يكذّبون بالقرآن والرسول صلى الله عليه وآله لعدم الإيمان بيوم القيامة: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ والتكذيب الناجم عن الكفر بيوم القيامة مقصور على المعتدين والآثمين دون غيرهم: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ بمعنى أنّ جذور الكفر بالقيامة وإنكار كلام القرآن والرسول صلى الله عليه وآله ليست المنطق والتفكير والاستدلال؛ بل الذين يريدون أن يتمادوا في اعتداءاتهم وينغمسوا في الذنوب والآثام، لاينفكّون يكذّبون. السمة الأخرى في منكري

١. كذلك سمّى القرآن أصحاب الكهف بأصحاب الرقيم أيضًا، ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف/ ٩) (لأنّه يوجد فوق رؤوسهم حجر وُضِعَ بإحكام ومكتوب عليه قصّة حياتهم وبقي [ذاك الحجرُ] سنين ولم يزُلْ). (التحقيق، ج ٤، ص ١٩٨).

القرآن والرسولﷺ والناجمة عن عدم الإيمان بالقيامة هي أنّهم يستهزؤون بآيات القرآن عندما تُتلَى عليهم، ويقولون بأنّها أساطير الأوّلين: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ثمّ يبتدئ القرآن الكريم بـ «كلّا» ليفنّد كلام الكفّار القاضي بأنّ القرآن أساطير الأوّلين، وبعدئذ يوضّح بذكر «بل» الإضراب أنّ تكذيبهم ناشئ عن الأعمال والآثام التي اكتسبوها بأنفسهم، ورانت على قلوبهم، فمنع صدؤها نقاء أرواحهم وصفاء أنفسهم، فحُرِموا من إدراك الحقّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ويستمرّ التهديد لينتهي إلى «كلّا» ثانيةً، فيقول: إنّ صدأ قلوب المكذّبين سيظهر في يوم القيامة، وإنّ أمثال هؤلاء الناس سيُحرَمون من رحمة الله يوم القيامة، ويُحجَبون عنها: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ وهذا الحرمان هو أشدّ عذابٍ في جهنّم؛ كما أنّ القرب الإلهيّ هو أفضل نعَم الجنّة. هذا الفريق ليسوا محجوبين عن الله فحسب؛ بل سيدخلون الجحيم في نهاية المطاف: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ويقول لهم خزنة جهنّم بلهجة التوبيخ والتقريع: إنّ هذا هو الذي كنتم بكفركم تكذّبون القرآن وإنذاراته المتعلّقة بيوم القيامة وتكذّبون الرسولﷺ: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٣. إنّ صحيفة أعمال الأبرار في علّيّين (الآيات ١٨-٢٨)

من هنا، يبدأ الكلام عن الفريق المقابل للفجّار، أي الأبرار والمحسنين. إنّ ملاحظة دواعي اعتزازهم وتميّزهم مقابل الفجّار توضّح منزلة كلا الفريقين أكثر فأكثر، كما توضّح دور الإرادة والاختيار في الوصول إلى غاية القصد. فصحيفة الأبرار مختلفة بالتأكيد عن صحيفة الفجّار.

إنّ صحيفة أعمال الأبرار في «علّيين»: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأبرارِ لَفى عليينَ﴾ وما أدراك أيّها النبيّ! ما هي حقيقة «علّيون»؟: ﴿وما أدرَيكَ ما عليونَ﴾، ثمّ يصف علّيين بقوله: ﴿كِتابٌ مَّرقومٌ ﴿٢٠﴾ يَشهَدُهُ المُقَرَّبونَ ﴿٢١﴾﴾.

ويمضي قائلًا في وصف مكانة الأبرار،بأنّهم في نعَم كثيرة: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفى نَعيمٍ﴾؛ نِعَمٍ تجلُّ عن الوصف. وإنّهم متّكئون على أرائك الجنّة الجميلة ويشاهدون المشاهد الخلّابة مثل النّعَم الدائمة فيها: ﴿على الأرائِكِ يَنظُرونَ﴾. والناظر في وجوههم يرى عليها النضارة والحيويّة الناجمتين عن التمتّع بنِعَم الجنّة: ﴿تَعرِفُ فى وُجوهِهِمْ نَضرَةَ النَّعيمِ﴾. وإنّهم يشربون من شراب فاخر صافٍ ومختوم: ﴿يُسقَوْنَ مِن رَحيقٍ مَّختومٍ﴾ مختوم بالمسك بدل الطين وأمثاله: ﴿خِتامُهُ مِسكٌ﴾ وفي مثل ذلك (الخمور) فليتنافس مشتاقوا الجنّة، وَلْيُبدُوا توقهم وتشوّقهم إلى الخمور: ﴿وفى ذلك فليَتَنافَسِ المُتَنافِسونَ﴾. ومُزِج الرحيق المختوم في قدح الأبرار بقطرة من تسنيم: ﴿ومِزاجُهُ مِن تَسنيمٍ﴾ والمقرّبون وحدهم هم الذين يستطيعون الشرب من عين تسنيم خالصًا: ﴿عَينًا يَشرَبُ بهَا المُقرَّبونَ﴾. هذا الأمر دليل على مكانة المقرّبين السامية الرفيعة مقارنة مع الأبرار، لأنّ مزاج وطعم شراب الأبرار من عين يشرب بها المقرّبون.

وفق آيات السياق الأوّل، فإنّنا نعتبر المنحى الإرشاديّ لهذا السياق، التهديد الشديد للمطفّفين الفجّار لأنّهم ينكرون المعاد، ويكذّبون القرآن والرسولﷺ.

السياق الثاني

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ
أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

يتَغامَزُون: مصدرها «غ م ز»؛ هذه المادّة في الأصل تعني الإشارة بالعين والحاجب إلى شيء، طلبًا إلى ما فيه من معاب.

فَكِهِين: مصدره «ف ك ه» وتعني حسن الطبع وطيب النفس؛ وجملة ﴿إنقَلَبُوا فَكِهِين﴾ تعني رجعوا بسعادة وفرح، ولا يولون أدنى اهتمام بالذنوب التي ارتكبوها.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات هذا السياق تندرج ضمن باقتين اثنتين:

الباقة الأولى. الآيات من التاسعة والعشرين حتّى الثالثة والثلاثين: الآية التاسعة والعشرون بدايةُ سياقٍ جديدٍ لأنّها منقطعة أدبيًّا عن الآيات السابقة. الآيات من الثلاثين حتّى الثالثة والثلاثين معطوفة على الآية التاسعة والعشرين، كما أنّ ضمائر الجمع في كلٍّ من ﴿مَرّوا﴾ و﴿ يَتَغامَزونَ ﴾ في الآية الثلاثين و﴿ إنقَلَبوا﴾ و﴿ أهلِهِم﴾ في الآية الواحدة والثلاثين، و﴿ رَأَوْا﴾ و﴿ قالوا﴾ في الآية الثانية والثلاثين و﴿ أُرسِلوا ﴾ في الآية الثالثة والثلاثين، تعود إلى ﴿أَلَّذينَ أجرَموا﴾ في الآية التاسعة والعشرين.

الباقة الثانية. الآيات من الرابعة والثلاثين حتّى السادسة والثلاثين: ﴿أَلَّذينَ ءامَنوا﴾ في الآية الرابعة والثلاثين هي نفس ﴿أَلَّذينَ ءامَنوا﴾ في الآية التاسعة والعشرين. والضمير في

﴿يَنظُرُونَ﴾ في الآية الخامسة والثلاثين، يرجع إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في الآية السابقة. الآية الأخيرة أيضًا مرتبطة بالآية الرابعة والثلاثين عن طريق ﴿ٱلْكُفَّارُ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا ـــ كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾
ـــ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾
ـــ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾

فَالْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ـــ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سلوك المجرمين الساخر من المؤمنين (الإذلال الثقافيّ) وأصداء سلوكهم على الآخرة (٣٦-٢٩)

ستتابع فهم نصّ السياق الثاني من خلال باقتين من الآيات:

١. استهزاء المجرمين بالمؤمنين (الآيات ٣٣-٢٩)

بعد أن قدّم القرآن المطفّفين والمستهترين بحقوق الآخرين الاقتصاديّة باعتبارهم واحدًا من مظاهر الفجور والعصيان، يبدأ الحديث عن المجرمين المستهزئين والمحتقِرين الذين يبخسون المؤمنين حقوقهم الثقافيّة. وكلا الفريقين مجرم بسبب أعمالهم: فالفريق الأوّل مجرم للبخس في المال، والفريق الثاني للتقصير في مواجهة هؤلاء المجرمين، وكلّ ذلك البخس والتقصير ناجم عن تكذيبهم بالقرآن والرسولﷺ، كما أنّ تكذيبهم ناشئ عن إنكار المعاد. فالمطفّفون الثقافيّون والمجرمون كانوا في الدنيا يضحكون من الأبرار المؤمنين ويستهزؤون بهم دائمًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجرَموا كانوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنوا يَضحَكونَ﴾ ولدى المرور بهم كانوا يتغامزون استهزاءًا بهم: ﴿وإذا مَرّوا بهِم يَتَغامَزونَ﴾ ولدى رجوعهم إلى أصحابهم، كانوا يتفكّهون معهم بالسخريّة من المؤمنين: ﴿وإذَا انقَلَبوا إلى أهلِهِمُ انقَلَبوا

فَكِهِينَ﴾. وعند رؤية المؤمنين كانوا يحكمون عليهم ويقولون لبعضهم: هؤلاء ضالّون، وإن محمّدًا ﷺ قد أضلّهم: ﴿وإذا رَأَوْهُم قالوا إنَّ هَؤُلاءِ لَضالّونَ﴾؛ في حين أنّ الله تعالى لم يبعث هؤلاء المجرمين حَفَظَةً على المؤمنين ووكلاءَ على أمورهم: ﴿وما أُرسِلوا عليهم حافِظِينَ﴾ ليتبعوهم ويراقبوهم ماذا يقولون، وماذا يفعلون، ليستهزؤوا بهم ويسخروا منهم.

٢. ابتهاج المؤمنين من مغبّة سلوك الكافرين (الآيات ٣٤-٣٦)

لِيعلمِ الكفّار المجرمون بأنّ الأمور في القيامة تنقلب، لأنّ القيامة صدًى لأعمال الإنسان في الدنيا، لذلك ففي يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفّار كما كان الكفّار يفعلون بهم في الدنيا: ﴿فاليومَ الَّذين ءامَنوا مِنَ الكُفّارِ يَضحَكونَ﴾. يومئذ يجلس المؤمنون على أرائك، ويشاهدون العذاب الذي يحلّ بالكافرين: ﴿عَلَى الأرائِكِ يَنظُرونَ﴾.

في النهاية، تأتي الآية الأخيرة في صورة استفهام مشحون بدلالات الطعن والاستهزاء؛ حيث تستهزئ بالأفكار والمزاعم الباطلة والتخيّلات الساذجة للمجرمين الكفّار، إذ كانوا يتوقّعون أن يتلقّوا جائزة من الله على أعمالهم المشينة، فتقول: هل تلقّى الكفّار ثمرة أعمالهم كجزاء؟: ﴿هَل ثُوِّبَ الكُفّارُ ما كانوا يَفعَلونَ﴾؟

فعلى ضوء آيات السياق الثاني، يتمثّل المنحى الإرشاديّ لهذا السياق في سلوك المجرمين الساخر من المؤمنين (الإذلال الثقافيّ) وانعكاس سلوكهم في الآخرة.

النتيجة

لقد نزلت سورة المطفّفين المباركة في أجواء كان البعض يتجاهلون حقوق المؤمنين المادّيّة والمعنويّة إنطلاقًا من إنكارهم للمعاد، وتكذيبهم بالقرآن والرسولﷺ، وكانوا منهمكين في التطفيف، والإذلال الثقافيّ، وتجاهل حقوق المؤمنين الاجتماعيّة، ويسعون إلى توفير الأرضيّة الملائمة ليكذّبوا القرآن والرسولﷺ، ويصفوا أتباعه بالضلال.

لذلك، تتوعّد السورة في السياق الأوّل بالمطفّفين، وتعتبر أنّ جذور تطفيفهم عائدة إلى إنكار البعث والمعاد، بعد ذلك تتطرّق إلى استعراض أعمال الفريقين: أحدهما الفجّار والآخر الأبرار. ثمّ تذكر أنّ صحيفة أعمال الفجّار في سجّين، فإنّهم أحد مظاهر الفجور وعصيان الله لأنّهم لا يؤمنون بالمعاد، وتوجّه إليهم إنذارًا بعذاب جهنّم، كما تخبر بوجود صحيفة أعمال الأبرار في علّيّين، لتستكمل إنذار الفجّار من خلال الإخبار بحسن عاقبة الأبرار.

وفي السياق الثاني، يدور الحديث في فلك المجرمين المستهزئين المحتقرين، إذ إنّ عملهم مظهر آخر من التطفيف والنقص في التعامل مع الآخرين. فتخبرنا السورة بلهجة إنذار عن سوء عاقبة المطفّفين في القيامة، كما تشير إلى تقلُّب الوضع والموقف في القيامة، وضحْك المؤمنين من الكفّار.

وفي النتيجة، تخيّم أجواء التهديد والإنذار على السورة كلّها، وتصف المطفّفين بمسمَّيات شتّى مثل: «الفجّار»، و«المجرمون» و«الكفّار» وتكشف أنّ جذور هذا التطفيف سواء في المجالات الاقتصاديّة أو الثقافيّة، تعود إلى إنكار المعاد وتكذيب القرآن والرسولﷺ، لذلك

تهدّد المطفّفين بشدّة، وفي الآيات الأخيرة تخبرنا عن سوء عاقبتهم في يوم القيامة. وفي ضوء ذلك يمكن اعتبار المنحى الإرشاديّ للسورة كالتالي: «**التحذير من التطفيف (البخس) الاقتصاديّ والإذلال الثقافيّ الناجمَيْنِ عن تكذيب القرآن والرسولﷺ، لإنكار المعاد**».

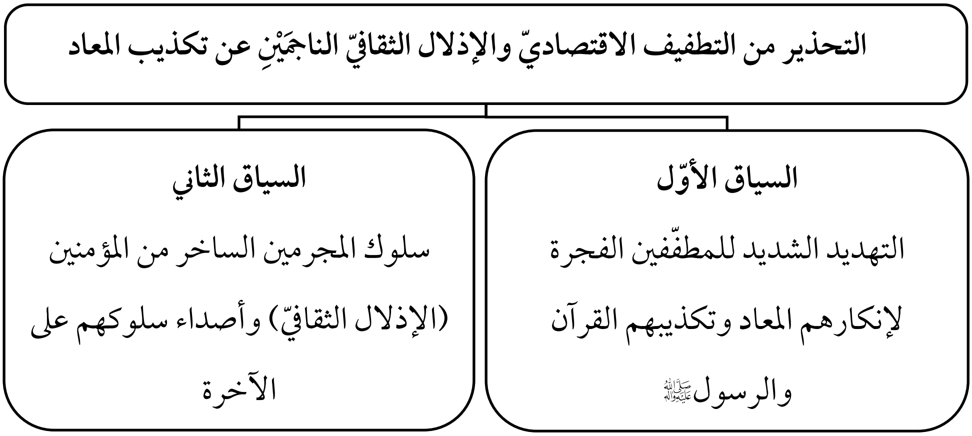

التدبّر في سورة الانفطار

التعريف بالسورة

سورة الانفطار هي السورة الثانية والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة التكوير، وقبل سورة المطفّفين.

ونظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة الانفطار في إطار ثلاثة سياقات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ (١) وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ (٣) وَإِذَا
ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ (٤) عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلۡكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلۡ
تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامٗا كَٰتِبِينَ (١١) يَعۡلَمُونَ مَا
تَفۡعَلُونَ (١٢) إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ (١٣) وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ (١٤) يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ
(١٥) وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ (١٨)
يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ (١٩)

تضمّ سورة الانفطار تسع عشرة آية، وتتألّف من ثلاثة سياقات:

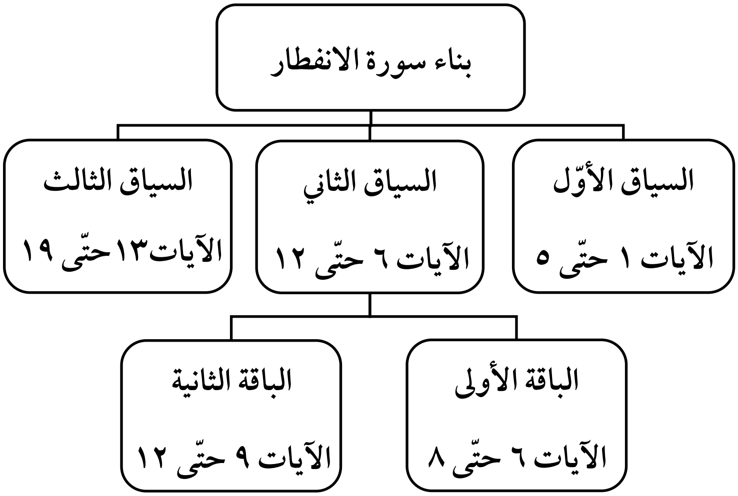

حينما يشاهد الإنسان الانسجام والسير الطبيعيّ لنظام العالم، يغفل عن أعماله وسلوكه، حيث يظنّ البعض أنّ الأمر سيبقى هكذا دائمًا، ويغترّ بربّه ويعصيه ويتمرّد عليه غير آبه بقدرة الله في خلق الإنسان، ومتجاهلًا تعاليم الدين وخاصّةً إخبار الدين عن يوم القيامة وتسجيل الأعمال. في مثل هذه الأجواء، نزلت سورة الانفطار المباركة لتدخل ساحة الهداية بسياقاتها الثلاثة.

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ (١) وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ (٣) وَإِذَا
ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ (٤) عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ (٥)

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

اِنفَطَرَت: مصدرها «ف ط ر»، وتُستخدَم بمعنى الانشقاق والشقّ.

اِنتَثَرَت: مصدرها « نَثر»، وفي الأصل تعني نشر الشئ وتفريقه؛ وفي الآية تشير إلى تناثر النجوم وتساقطها في القيامة متفرّقةً.

فُجِّرَت: في الأصل بمعنى تشقُّق شيءٍ وانفتاحه من الداخل؛ وفي الآية تعني انشقاق البحار في القيامة.

بُعثِرَت: أصلها «ب ع ث ر»، ومعناها الانقلاب والانبعاث.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

في هذا السياق أسلوب الظرف والمظروف: الآيات الأربعة الأولى معطوفة على بعضها، وهي ظروف، والآية الخامسة مظروف.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الأوّل. سيعلم الإنسان في يوم القيامة جميع أعماله (علم الإنسان في يوم القيامة بجميع مكاسبه) (الآيات ٥-١)

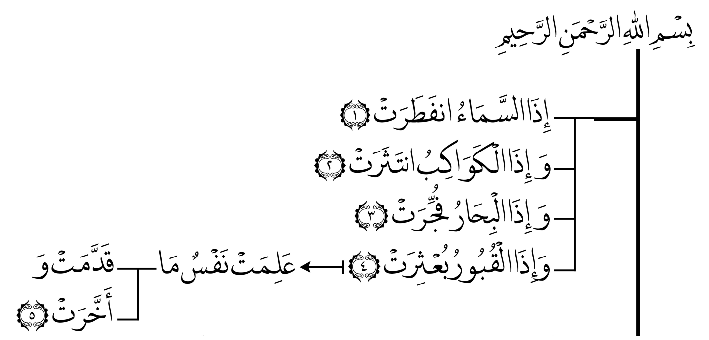

تُخبِرنا الآيات الأولى عمّا يكتنف وقوع القيامة من اضطراب وضجّة: عندما تنشقّ السماء: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ وتتناثر النجوم: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ وتتدفّق مياه البحار إلى الخارج: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي يحدث شيء أشبه بالتسونامي في البحار، وتتدفّق مياهها إلى الخارج بشدّة؛ وعندما يُقلَب تراب القبور لخروج الموتى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾. كلّ واحد من المشاهد التي تمّ تصويرها يخبرنا بطريقةٍ عمّا سيجري من اختلال وفوضى في نظام العالم عند وقوع القيامة. والأمر الخطير الذي يحدث بعد وقوع تلك الحوادث والقيامة، هو أنّ الإنسان سيطّلع على كلّ ما قدّمه تقديرًا وتثمينًا له، وعلى ما أخّره: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

نظرًا إلى أنّ بيت القصيد مذكور في الآية الأخيرة لكونها مظروفًا، فإنّنا نعتبر المنحى الإرشاديّ لهذا السياق، عِلْمَ الإنسان في يوم القيامة بجميع أعماله (علم الإنسان بجميع مكاسبه يوم القيامة). لذلك يجب على الإنسان أن ينتبه إلى ما يقدّمه من القيم، وما يؤخّره من أشياء؛ لأنّ الجميع شهود على أعماله في تلك الدنيا، كما أنّه سيعلم بجميعها.

السياق الثاني

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ
صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠
كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

غَرَّكَ: جعلك مغرورًا

فَسَوَّاكَ: جعلك سواءًا

فَعَدَلَكَ: جَعَلك معتدلًا، متناسب الخَلق

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات هذا السياق كالتالي:

الباقة الأولى. الآيات من السادسة حتّى الثامنة: الآية السادسة بداية سياق جديد، ولا ترتبط بالآيات السابقة لفظيًّا. الآيتان السابعة والثامنة تصفان ﴿رَبِّ﴾ في الآية السادسة.

الباقة الثانية. الآيات من التاسعة حتّى الثانيةعشرة: تغيّر أسلوب التعبير في الآية التاسعة، وابتدأت الآية بعبارة ﴿كَلَّا بَل﴾ لتربط هذه الباقة بالباقة السابقة. الآية العاشرة معطوفة على الآية التاسعة، والآيتان الحاديةعشرة والثانيةعشرة تصفان ﴿ حافِظِينَ﴾ في الآية العاشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الثاني. تحذير الإنسان من الاغترار بربّه جرّاء تكذيبه بالدين، وتنبيهه إلى تسجيل أعماله وحفظها (الآيات ١٢-٦)

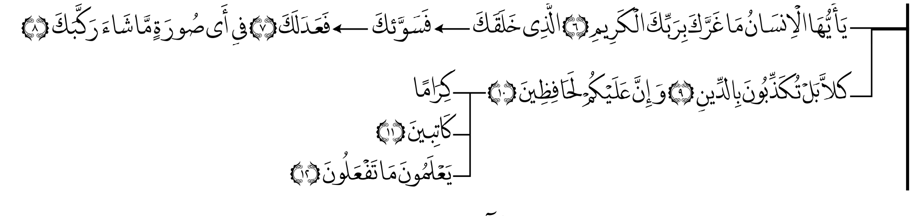

سنتابع فهم السياق الثاني بباقتين من الآيات:

١. تحذير الإنسان لئلّا يغترّ بربّه (الآيات ٨-٦)

بعد أن نبّه القرآن الكريم الإنسان في السياق الأوّل إلى العلم بجميع أعماله لدى وقوع القيامة، وأنّه كان يسعى في الدنيا وراء الشؤون الدنيويّة لا الشؤون الإلهيّة، فإنّ الآية تسأل الإنسان بلهجة توبيخيّة عن العامل الذي غرّه بربّه الكريم: ﴿يا أيُّها الإنسانُ ما غَرَّكَ بربِّكَ الكَريمِ﴾[1]؟ والاستفهام الإنكاريّ ﴿ما غَرَّكَ﴾، يفيد بأنّه لا داعيَ لغرور الإنسان. أيّها الإنسان! إنّ ربّك الكريم هو الذي خلقك بوضع كلّ عضوٍ من أعضاء جسمك في مكانه الصحيح، فنظّمَ جوارحَك وأعضاءك، وأوجد بينها التناسب والتوازن، وجعلك معتدلًا: ﴿الذي خَلَقَكَ فسَوَّئكَ فعَدَلَكَ﴾. كما أنّه ركّبك في أيّ صورة شاءها: ﴿في أيِّ صورةٍ مّا شاءَ رَكَّبَكَ﴾. وتأتي هذه الأوصاف لتوحيَ بأنّ الله الذي إليه يعود الفضل في كلّ تلك النّعَم الظاهريّة والباطنيّة في وجود الإنسان، لا يستحقّ أيّ غرور أو صدود.

٢. بيان جذور الغرور، وتنبيه الإنسان إلى تسجيل أعماله وحفظها بشكل دقيق (١٢-٩)

الآية التاسعة تستبعد بالحرف «كَلّا» غرور الإنسان بالله، وتبيّن أنّه لا يجوز الاغترار بربٍّ يتميّز بهذه الأوصاف، وتُدخِل «بَل» الإضراب لتجسّد دواعي هذا الغرور في كلٍّ من تكذيب القرآن وتكذيب الرسولﷺ، حيث إنّه (الدين) يُخبِر عن القيامة: ﴿كَلّا بل تُكَذِّبونَ بالدّينِ﴾؛ أي إنّكم لو صدّقتم الدين وإخباره بيوم القيامة، لما أغفلكم أيّ أمرٍ عن ربّكم وخالقكم. وتبدُّل الضمائر من خطاب المفرد في الآيات السابقة إلى خطاب الجمع من هذه الآية الكريمة فما بعدها، يُشعِر بأنّ الأسوأ من الغرور الفرديّ هو أنّ هؤلاء

١. ﴿غَرَّ﴾ من مصدر «غَرَرَ» حصول الغفلة بتأثير شيء آخر فيه، ومن لوازم الأصل وآثاره: الجهل، الخدعة، وأمثالهما. (التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٧، ص ٢٠٧).

يقومون بالتكذيب على الصعيد الاجتماعيّ.

بما أنّ تكذيب القرآن والرسولﷺ بسبب الدين وإخباره عن يوم القيامة، ناجم عن عدم الاعتقاد بالحياة الأخرويّة وكتابة الأعمال وتسجيلها في الدنيا، فيخبرنا القرآن بتأكيد كبير عن وجود حرّاس على الناس يحفظون أعمالهم بعد موتهم: ﴿وإنَّ عليكُم لَحافِظِينَ﴾؛ حرّاسٍ رفيعي المستوى يكتبون الأعمال ويسجّلونها بدقّة: ﴿كِرامًا كاتِبِينَ﴾ ويحذّر القرآن أنّ جميع أعمالكم لا يخفى على أولئك الحرّاس، فهم يعلمون ما تفعلون: ﴿يَعلَمونَ ما تَفعَلونَ﴾.

فالله سبحانه في هذا السياق يحذّر الإنسان من أن يؤدّيَ تكذيبه بالدين إلى الاغترار بالله، كما يلفت الانتباه إلى أنّ ملائكته يسجّلون الأعمال ويحفظونها بدقّة.

السياق الثالث

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

نَعِيمٍ: نعمة

يَصۡلَوۡن: يدخلون

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية الثالثةعشرة لا ترتبط لفظيًّا بالآيات السابقة، ولهذا تُعَدّ بداية سياق جديد. الآية الرابعةعشرة إضافةً إلى عطفها على الآية الثالثةعشرة، فإنّها تقابلها. يرجع الضمير المرفوع

والمنصوب للفعل ﴿يَصلَونَها﴾ في الآية الخامسةعشرة على الترتيب إلى ﴿ألفُجّارَ﴾ و﴿الجَحيم﴾ في الآية السابقة، وكذلك الحال بالنسبة إلى مرجع الضمير ﴿هُم﴾ و﴿عَنها﴾ في الآية السادسةعشرة. الآيتان السابعةعشرة والثامنةعشرة مشتركتان مع الآية الخامسةعشرة في قوله:﴿يَومُ الدّينِ﴾. والآية التاسعةعشرة تجيب السؤال المطروح في الآيتين السابعةعشرة والثامنةعشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

وصف عاقبة الأبرار والفجّار في القيامة (الآيات ١٩-١٣)

إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾
وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾
يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾
وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾
وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ
لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا
وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

القسم الأخير من السورة يبيّن عاقبة الأبرار والفجّار، عسى أنْ ينتبه بذلك الذين لا يؤمنون بكتابة الأعمال وتسجيلها: فالأبرار في الدنيا يحظون في المرتبة الملكوتيّة بنعم إلهيّة كثيرة وعطايا يهبها لهم الله تعالى: ﴿إِنَّ الأبرارَ لَفي نَعيمٍ﴾ وفي المقابل، فإنّ الفجّار والأشرار في المرتبة الملكوتيّة في نار الجحيم: ﴿وإنَّ الفُجّارَ لَفي جَحيمٍ﴾؛ جحيمٍ يدخلونها يوم الحساب، وهي منزلهم في يوم الجزاء: ﴿يَصلَونَها يَومَ الدّينِ﴾ فما كانوا غافلين عن وجود تلك النار وحقّانيّتها، وقد أُقيمَت الحجّة عليهم، وأُتـمَّت: ﴿وما هُم عَنها بغائِبينَ﴾. والسرّ في تنكير ﴿نَعيمٍ﴾ و﴿جَحيمٍ﴾ أنّه لا يمكن الإحاطة بعظمة ذلك النعيم وهول الجحيم، كما يجب

القول بأنّ كون الأبرار في النعيم والفجّار في النار الكبرى سوف يتجسّد في القيامة. وسبب هذا التنبيه يعود إلى أنّ العاقبة الأخرويّة لكلا الطرفين هي صدى لأعمالهم الدنيويّة.

وبعد ذلك تسأل السورة عن طبيعة يوم الجزاء مؤكِّدةً عظمته؛ حيث تقول: ﴿وما أدرَيكَ ما يَومُ الدّينِ﴾؟ أي أنّك لا تستطيع الإحاطة بحقيقة يوم الجزاء؛ لأنّ العقل البشريّ قاصر عن فهم ذلك، ولا يقدر على المساعدة في إدراك حقيقته إلّا الوحي. ومرّة أخرى تؤكّد السورة بلهجة إنذارٍ، عظمة يوم الجزاء، وتطرح سؤالًا عن جانب آخر من «يوم الدين»: ﴿ثُمَّ ما أدرَيكَ ما يَومُ الدّينِ﴾. وفي الجواب تؤكّد السيادة المطلقة لأمر الله في يوم القيامة وذلّ الإنسان أمامها، وتخبرنا: اُذْكُرِ اليوم الذي لا يملك أحد لأحد شيئًا، والأمر كلّه في ذلك اليوم لله: ﴿يَومَ لا تَملِكُ نَفسٌ لِّنَفسٍ شَيئًا والأمرُ يَومَئذٍ لِلّهِ﴾.

وفي هذا السياق، يبيّن الله سبحانه وتعالى عاقبة الفريقين: الأبرار والفجّار في القيامة بما يتناسب مع أعمالهم في الدنيا؛ ويخاطب الإنسان قائلًا: احذر أيّها الإنسان وانتبِه في الدنيا إلى ما تقدّمه فيها من القيم وما تؤخّره. فإذا آثرت الدنيا، فإنّ عاقبة الفجّار بانتظارك، وإذا آثرت الله والآخرة، فإنّك ستنال عاقبة الأبرار.

النتيجة

أدرجت سورة الانفطار المباركة في جدول أعمالها إيقاظَ الإنسان من غفلته ضمن ثلاثة سياقات:

ففي السياق الأوّل، تنبّه السورة الإنسان إلى الاطّلاع على ما اعتبره في الدنيا قيمةً فقدّمه، وما أخّره، وذلك بعد رسم الأجواء المشحونة بالاضطراب والفوضى لنظام العالم عند وقوع القيامة.

وفي السياق الثاني، تعتبر السورة أنّ اغترار الإنسان بالله الكريم ناجم عن تكذيب القرآن وتكذيب الرسولﷺ، وأنّ تكذيبهما (القرآن والرسول) بسبب الدين وإخباره عن القيامة، وتلفت عناية المرء إلى أنّ ملائكة الله يسجّلون الأعمال ويكتبونها بدقّة ويحتفظون بها.

في السياق الثالث، تبيّن السورة عاقبة البشر في القيامة وفق أعمالهم في الدنيا، حيث ينقسمون إلى فريقين: الأبرار والفجّار.

وفي ضوء السياقات الثلاثة المذكورة، ولهجة الشكوى والعتاب النابعة عن الشفقة والتي تمتدّ من أوّل السورة إلى آخرها، وتنبّه الإنسان إلى أعماله وسلوكه في الدنيا، ونظرًا إلى أنّ السورة تلفت انتباه الإنسان إلى أنّ أعماله تُكتَب وتُسجَّل وتُحفَظ من قِبَل الملائكة، وأنّ الإنسان سيطّلع عليها يوم القيامة، وبما أنّ السورة تعتبر أنّ اغترار الإنسان بالله لا مبرّر له، وتبيّن في النهاية عاقبة الأبرار والفجّار، لذلك كلّه فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هي: «**تنبيه الإنسان إلى أثر تسجيل الأعمال في يوم القيامة، بغية ردْعه عن الغرور والفجور**».

تنبيه الإنسان إلى أثر تسجيل الأعمال في يوم القيامة، بغية ردْعه عن الغرور والفجور

السياق الأوّل

علم الإنسان بجميع مكاسبه يوم القيامة

السياق الثاني

تحذير الإنسان من الاغترار بربّه جرّاء تكذيبه بالدين، وتنبيهه إلى تسجيل أعماله وحفظها

السياق الثالث

وصف عاقبة الأبرار والفجّار في القيامة

التدبّر في سورة التكوير

التعريف بالسورة

سورة التكوير هي السورة الواحدة والثمانون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة عبس وقبل سورة الانفطار.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة التكوير في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ
أَحۡضَرَتۡ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ
إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ
أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ
بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

تضمّ هذه السورة تسعًا وعشرين آية، وتتألّف من سياقين:

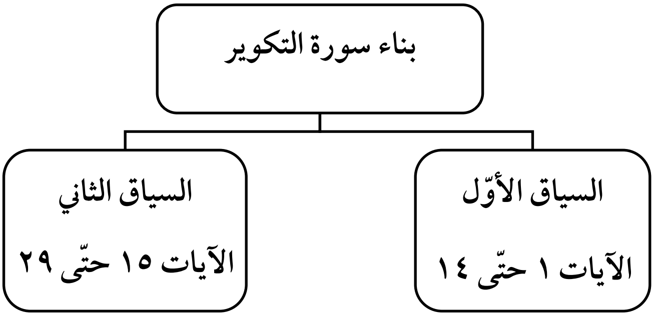

لقد نزلت سورة التكوير المباركة في أجواء راح المشركون يشعرون فيها بالخطر مع انتشار الرسالة القرآنيّة السديدة حول المعاد. فالقرآن قد أخبر بيوم بعثٍ وحشرٍ بعد هذه الدنيا الفانية، سيعلم فيه كلّ شخصٍ أعماله، وسينال جزاء أعماله واعتقاداته. ففكّر المشركون بدايةً في سبيلٍ للقضاء على هذا الاعتقاد؛ لكنّهم عندما أدركوا عجزهم عن الإجابة على أدلّة القرآن وحججه، عنّت لهم فكرة مواجهة مبدأ الوحي والقرآن ورسول الله ﷺ. وكان الحافز على المواجهة أنّ القرآن والرسول ﷺ، كانا يتحدّثان عن المعاد، وبطبيعة الحال إذا أنكروهما طال الإنكار المعاد بطريق أولى، لذلك كانوا يحاولون الطعن في مبدأ الوحي وأصله، ويليه الطعن في رسالة القرآن بتوجيه اتّهامات مثل: جنون الرسول الأكرم ﷺ، وأنّ القرآن إلقاء الشيطان. فالله سبحانه وتعالى أنزل هذه السورة ليدحض اتّهامات المشركين.

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ

زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

كُوِّرَت: في الأصل بمعنى ضمّ الشئ ولفّه في مكان محدّد ومعيّن، والمقصود منه في﴿الشَمسُ كُوِّرَت﴾ هو أنّ الشمس طُوِيَت ولُفَّت وخرجت عن مسارها الطبيعيّ.

اِنكَدَرَت: مصدرها «ك د ر»، وفي الأصل تعني عدم الصفاء والنقاء، والإظلام.

العِشار: أصلها «ع ش ر» وهي بمعنى المرافقة والمؤانسة، و«عِشار» مصدر باب المفاعلة بمعنى المعاشرة والمرافقة؛ وفي هذه الآية تشير إلى أنّ معاشرة الناس لبعضهم قد زالت وانتهت في تلك اللحظات العصيبة؛ لأنّ كلّ إنسان مشغول بنفسه.

سُجِّرَت: مصدرها «س ج ر»، وفي الأصل بمعنى الامتلاء والفيضان، والفوران من شدّة الامتلاء.

المَوؤُدَه: مصدرها «و أ د»، وهذه المادّة في الأصل بمعنى الثقل والتثقيل؛ والمقصود في هذه الآية من«الموئودة» هو الفتيات اللواتي كان العرب الجاهليّون يستثقلون وجودهنّ، ويرونهنّ مزعجات لحياتهم، لذلك كانوا يدفنون الفتيات أحياءًا.

كُشِطَت: بمعنى إبعاد شئ ورفْعه من شئ كان يغطّيه؛ مثل إزاحة القماش عن شئ يستره، وهي تشير في هذه الآية إلى أنّ الستار تُزاح عن السماء يوم القيامة، وأنّ الإنسان سيرى حقائق عالم الوجود.

سُعِّرَت: في الأصل بمعنى شدّة الحرارة مع اشتعال النار واتّقادها.

أُزلِفَت: مصدرها «ز ل ف» بمعنى القرب مع منزلة سامية ومكانة مرموقة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

لآيات هذا السياق أسلوب الظرف والمظروف: والآيات من الأولى حتّى الثالثةعشرة ماعدا التاسعة، معطوفة على بعضها وهي ظرف. ونظرًا إلى وجود الجارّ والمجرور في صدر الآية التاسعة: ﴿بأي ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ فإنّها تتعلّق بالفعل ﴿سُئِلَتْ﴾ في الآية الثامنة. الآية الرابعةعشرة مظروف يبيّن الحدث الهامّ الذي يقع في الوقت المشار إليه في الآيات السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

علْم الإنسان في يوم القيامة بأعماله (الآيات ١٤-١):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾

وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾

وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾

وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾

وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ← عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

إنّ الآيات الأولى من السورة تسعى لتوضيح أمر جليل. فالله يذكر جملة علاماتٍ وحوادثَ تنبئ بحدث عظيم يُخِلّ النظام الطبيعيّ للكون، فيقترب العالم من نهايته، وتتعرّض الأشياء والكائنات لتغيُّرات مناقضة لطبيعتها الأصليّة؛ تغيُّرات مثل تكوير الشمس: ﴿ إذا الشَّمسُ كُوِّرَتۡ﴾ بالرغم من نورانيّتها؛ وانكدار النجوم: ﴿وإِذَا النُّجومُ انۡكَدَرَتۡ﴾ على خلاف مواقعها السماويّة الثابتة؛ وسير الجبال الراسخة: ﴿وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ التي طبيعتها الأصيلة هي الثبوت والرسوخ؛ وتعطيل عشار الإبل: ﴿وإِذَا العِشارُ عُطِّلَتۡ﴾ مع كلّ ما لها من قيمة؛ واجتماع الوحوش: ﴿وإِذَا الوُحوشُ حُشِرَتۡ﴾ التي طبيعتها النفور والشرود والفرار؛ واشتعال ماء البحار: ﴿وإِذَا البِحارُ سُجِّرَتۡ ﴾ على عكس رطوبتها.

أمّا الآيات التالية فتذكر سلسةً أحداث متزامنة مع بدء القيامة وأجواء فحص الأعمال والنظر فيها ومحاسبتها؛ أحداث مثل: زواج المحسنين من حوريّات الجنّة، ومجاورة المجرمين للشياطين: ﴿وإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، واستفسار البنت التي دُفِنَتْ وهي على قيد الحياة: ﴿وإِذَا المَوۡءودَةُ سُئِلَت﴾ عن ذنبها: ﴿ بِأي ذَنبٍ قُتِلَتۡ﴾ ؟! ونشر صحف الأعمال للحساب: ﴿وإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾؛ وإزاحة الستار عن السماء: ﴿وإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَت﴾، واضطرام نار جهنّم واتّقادها: ﴿وإِذَا الجَحيمُ سُعِّرَتۡ﴾ وتقريب الجنّة ليدخلها أهل الجنّة: ﴿وإِذَا الجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾.

بعد الإخبار عن حركة وضجّة كبرى تختلّ فيها الأرض والسماء والزمان والجبال والبحار، يأتي الحديث عن حادث مهمّ يتحقّق يوم القيامة؛ وذلك الأمر المهمّ هو أنّ كلّ نفسٍ تجد ما قدّمت من أعمال حاضرًا: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مّا أحضَرَتۡ﴾ وأنّها ستنال ما تستحقّ

من الجزاء على معتقداتها وأعمالها، وهكذا يتمّ دحض إمكانيّة أيّ إنكار، ليؤكّد حتميّة وقوع هذا الحدث.

ونظرًا إلى أنّ بيت القصيد مذكورٌ في الآية الأخيرة من هذا السياق، فإنّنا نعتبر أنّ المنحى الإرشاديّ لهذا السياق هو علْم الإنسان في يوم القيامة بأعماله.

السياق الثاني

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ
﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾
وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾
وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ
مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

الخطوة ايولى: دراسة لغويّة

الكُنَّس: مصدره «ك ن س»، وفي الأصل بمعنى إزالة شئ وإبعاده عن مكان، وإخفائه في مكان آخر؛ والمراد من ﴿الجَوَارِالكُنَّس﴾ في هذه الآية هو الكواكب التي تسير في السماء، ومن ثمّ تختفي.

عَسعَسَ: مصدرها «ع س ع س»، وهي تعني الحركة الخفيّة المستترة حتّى الوصول إلى المطلوب؛ وقد أقسم الله تعالى في هذه الآية بحركة الليل الخفيّة حتّى الوصول إلى النور وتبدُّد الظلمة.

ضَنِين: مصدرها «ض ن ن»، وفي الأصل تعني البخل والامتناع عن تقديم شئ نفيس للآخرين.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

نظرًا إلى انتهاء أسلوب الظرف والمظروف، فقد بدأ أسلوب القسم من الآية الخامسةعشرة، وعلى الرغم من ذكر "الفاء" العاطفة في صدر الآية فيجب اعتبارها بداية سياق جديد، واعتبار حرف العطف همزة وصل بين السياقين. الآية الخامسةعشرة قَسَم، والآية السادسةعشرة تصف ﴿ٱلۡخُنَّسِ﴾ فيها. الآيتان السابعةعشرة والثامنةعشرة استمرار للقسم. وجواب القسم جاء في الآية التاسعةعشرة. الآيتان العشرون والواحدة والعشرون تصفان ﴿رَسُولٍ﴾ في الآية التاسعةعشرة. الآية الثانية والعشرون عُطِفَت على جواب القسم، والآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون معطوفتان عليها، كما يرجع الضمير المرفوع المستتر في ﴿رَءَا﴾ وضمير ﴿هُوَ﴾ في الآية الرابعة والعشرين إلى ﴿صاحِبُ﴾ في الآية الثانية والعشرين. الآية الخامسة والعشرون معطوفة على الآية التاسعةعشرة؛ لابتدائها بحرف العطف وعودة الضمير ﴿هُوَ﴾ فيها إلى ﴿إِنَّهُۥ﴾ في الآية التاسعةعشرة.

والآية السادسة والعشرون عُطِفَت على الآيا ت السابقة، وخطاب الجمع فيها مثل الآية الثانية والعشرين. الآية السابعة والعشرون مثل الآية الخامسة والعشرين تعود إلى الآية التاسعةعشرة. الآية الثامنة والعشرون إضافةً إلى ارتباطها بالآية السابقة، تخاطب نفس المخاطبين في الآيتين الثانية والعشرين والسادسة والعشرين لبدليّة ﴿لِمَن شَاءَ﴾ من قوله: ﴿لِلعالَمينَ﴾ فإنّها تخاطب. الآية الأخيرة حال لما قبلها.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

إثبات وحيانيّة القرآن الكريم، والردّ على الاتّهامات الموجَّهة إلى القرآن والرسول (١٥-٢٩)

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ — الْجَوَارِ — الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
— إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ — كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ — ذِي قُوَّةٍ — عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ — مُطَاعٍ ثَمَّ — أَمِينٍ ﴿٢١﴾
— وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾
— وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾
— وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾
— وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ← فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾
— إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾
وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

في هذا السياق، تردّ السورة على التُّهَم الموجَّهة إلى مبدأ الوحي والطريقة التي بها تلقّى رسول الله ﷺ الوحي، وكان الهدف من إثارة تلك التّهم إنكارَ مضمون الوحي خاصّةً الخبر الصاعق والمبكّر عن القيامة. يبدأ هذا التوجُّه بعدم القسم بالنجوم التي تعود: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾؛ الكواكب التي تسير وتختفي عن النظر: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾. كما تُقسِم بأمور محتومة مثل: انجلاء الليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وإشراق الصبح: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

في جواب القسم، تدحض السورة أوّل تهمةٍ عن رسول الله ﷺ، حيث يقول بأنّ القرآن كلامُ مبعوثٍ جليلٍ (جبريل عليه السلام): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ وليس كلامًا ملفَّقًا من قِبَل الرسول ﷺ، لذلك فإنّ أيّة رسالةٍ تُوحَى إلى الرسول ﷺ، بواسطة جبريل عليه السلام، ستتحقّق بالتأكيد؛ حتّى الرسائل التي تحتوي حقائق أبعدَ عن الأمور الحسيّة وتتعلّق بوقوع المعاد والتحقيق في نتيجة الأعمال في يوم القيامة.

إنّ المبعوث المشار إليه في الآية (جبريلعليه السلام) هو ملَك قويٌّ ذو منزلة عالية عند الله ذي العرش (مالك الكون ومدبّر الوجود): ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾. والملائكة الآخرون يتلقّون الأوامر منه، كما أنّه أمين في إبلاغ ما يأمره الله به: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾.

من هنا تنبري السورة للدفاع عن رسول اللهصلى الله عليه وآله، وعن القرآن، فتدحض تهمة الجنون الموجَّهة للرسولصلى الله عليه وآله، فتقول: إنّ صاحبكم ليس بمجنون: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ولإثبات هذه الحقيقة تُخبِرنا أنّه رأى جبريل في الأفق المبين وسماء الغيب: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ والرسولصلى الله عليه وآله، أمين في نقل الآيات الإلهيّة لدرجة أنّه لا يضنّ ببيان أيّ منها: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ وأنّ كلّ ما يقوله، آيات إلهيّة وليس بكلام الشيطان الرجيم: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾.

والآن، إذ ثبت أنّ القرآن الكريم قد نزل به أمين الوحي على رسول اللهصلى الله عليه وآله، وليس كلام الرسولصلى الله عليه وآله، وإلقاء الشيطان، وثبت أنّ أخبار القرآن في منتهى الصدق والصواب، إذًا يا معارضي الرسولصلى الله عليه وآله، إلى أين تذهبون: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ لِـمَ تُعرِضون عن الحقّ؟! في حين أنّ القرآن هو كتاب الهداية وذكر للعالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وأنّ الحقائق التي تناولها القرآن حول تحقُّق المعاد ومحاسبة الأعمال في يوم القيامة، في ذروة المصداقيّة والواقع، وكلّ من يريد أن يستقيم على الحقّ، فإنّه يهتدي بالقرآن: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾. وبالطبع يجب العلم بأنّ الإنسان غير مستقلّ في طلب الهداية وقبولها، ليكون الله محتاجًا إلى إرادة عباده، بل العباد لا يشاؤون إلّا ما يشاءه الله ربّ العالمين (التوحيد في المشيئة: مشيئتي مشيئة الله): ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾. لذلك فإنّ القرآن هو كلام الله تعالى، وقد ألقاه أمين

الوحي على رسول الله ﷺ، وأنّ رسائله تذكرة للجميع، فهو يهدي نُشّاد الهداية بإذن الله.

لذلك نرى أنّ المنحى الإرشاديّ للسياق الثاني بحسب آياته، هو إثبات وحيانيّة القرآن الكريم، والردّ على التُّهَم الموجَّهة ضدّ القرآن والرسول ﷺ.

النتيجة

في السياق الأوّل ينبّه الله الإنسان بعد استعراض علامات نهاية العالم وبداية القيامة، إلى علْمه بأعماله في يوم القيامة. ونظرًا إلى أنّ بيت القصيد مذكور في المظروف (الآية ١٤)، فإنّ منحى هذا السياق هو: «**علْم الإنسان بأعماله في يوم القيامة**».

وفي السياق الثاني، يذكر أنّ القرآن كلام نزل به المبعوث الكريم (جبريل ﵇)، وبذلك يؤكّد ويؤيّد رسول الله ﷺ، وصحّة الوحي، وهكذا يردّ على الشبهات الموجَّهة ضدّ القرآن والرسول الأكرم ﷺ، من خلال إثبات وحيانيّة القرآن الكريم. وعليه، فإنّ المنحى لهذا السياق هو: «**إثبات وحيانيّة القرآن الكريم، والردّ على التُّهَم الموجَّهة إلى القرآن والرسول ﷺ**».

ونظرًا لصدر السورة الذي يبحث في علْم الإنسان بأعماله في يوم القيامة، ومع الأخذ بعين الاعتبار ذيل السورة، وهو إثبات وحيانيّة القرآن الكريم والردّ على التُّهَم الموجَّهة إلى القرآن والرسول ﷺ، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**تأكيد حقّانيّة القرآن الكريم في إثبات رسالة القرآن المتعلّقة بإحضار الأعمال في القيامة**».

تأكيد حقّانيّة القرآن الكريم في إثبات رسالة القرآن المتعلّقة بإحضار الأعمال في القيامة

السياق الأوّل

علْم الإنسان بأعماله في يوم القيامة

السياق الثاني

إثبات وحيانيّة القرآن الكريم، والردّ على التُّهَم الموجَّهة إلى القرآن والرسول ﷺ

التدبّر في سورة عبس

التعريف بالسورة

سورة عبس هي السورة الثمانون من المصحف الكريم، وتقع بعد سورة النازعات وقبل سورة التكوير.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورة، فإنّنا سنتدبّر سورة عبس في إطار سياقين.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن
جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ
﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ
ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ
ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَ
أُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

تضمّ هذه السورة اثنتين وأربعين آية، وتتألّف من سياقين:

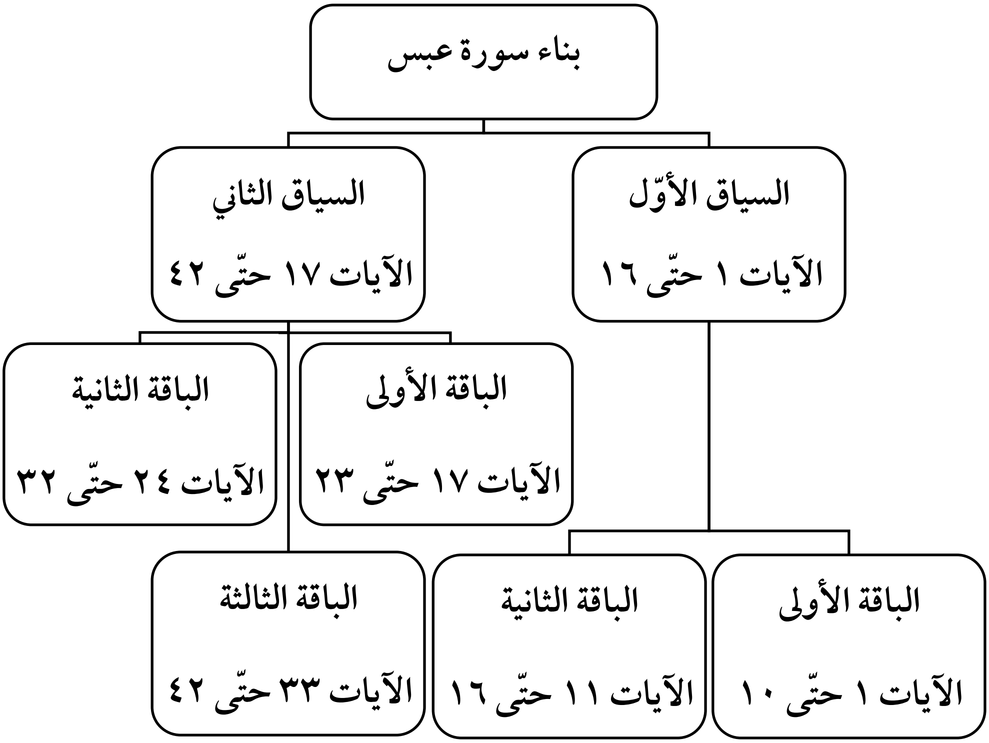

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ
ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن
جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ
﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

عَبَسَ: في الأصل بمعنى الجمع والقطوب مع الاستياء، وهي في هذه السورة بمعنى التجهُّم وكلْح الوجه.

تَصَدّى: مصدرها «ص د ي»، وهذه المادّة في الأصل بمعنى الإظهار والإيضاح، سواء فيه إظهار الكلام أو العمل أو نوع من الصوت؛ وإنّها في هذه الآية الشريفة تعني أنّك تحاول إظهار كلامك وأفعالك لصالح الرجل الذي استغنى عن هَدْيك، بينما تتجاهل الفقير الذي هو من أهل الخشية.

سَفَرَة: في الأصل بمعنى سير شئ إلى خارج نطاقه؛ و«سَفَرَة» جمع «سافر» بمعنى الملائكة والسفراء الإلهيّين الذين خرجوا عن نطاقهم وأُرسِلوا من قِبَل الله ليُوصِلوا الكتب الإلهيّة إلى الناس.

بَرَرَة: في الأصل بمعنى حسن التعامل مع الآخرين.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

يتكوّن هذا السياق من باقتين من الآيات:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى العاشرة: الآية الثانية تعليل للآية الأولى، والضمائر الغائبة في الآية الثالثة: ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ والآية الرابعة: ﴿يَذَّكَّرُ فتَنفَعَهُ﴾، تعود إلى ﴿الأعمَى﴾ في الآية الثانية. والمخاطب من الآية الخامسة حتّى العاشرة هو نفس المخاطب في الآية الثالثة: ﴿وما يُدريكَ ﴾، وإضافةً إلى الخطاب ﴿فأنتَ﴾، و﴿ماعليكَ﴾، و﴿جاءَكَ﴾ و﴿فأنتَ﴾ الذي يربط هذه الآيات بما قبلها، فإنّ وجود مرجع الضمائر الغائبة في﴿لهُ ﴾

و﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ في الآيه الخامسة: ﴿مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ و﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ و﴿عَنْهُ﴾ في الآية الثامنة: ﴿مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يربط مرجع الضمائر هذه الآيات مع بعضها. كذلك عُطِفَ ﴿وَأَمَّا﴾ في الآية الثامنة على ﴿أَمَّا﴾ في الآية الخامسة والمرتبطة بما بعدها من الآيات، ويشكّل رابطًا آخر بين آيات هذه الباقة.

الباقة الثانية. الآيات من الحاديةعشرة حتّى السادسةعشرة: حرف ﴿كَلَّا﴾ في بداية الآية الحاديةعشرة ردعٌ لما قبلها وهي صلة الوصل بين هذه الباقة والباقة السابقة، والآية الثانيةعشرة معطوفة عليها. الآية الثالثةعشرة يمكن إعرابها نعتًا لـ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ في الآية الحاديةعشرة أو خبرًا ثانيًا لـ ﴿إِنَّهَا﴾ في الآية نفسها. الآية الرابعةعشرة نعت آخر لـ ﴿صُحُفٍ﴾ في الآية السابقة. الآية الخامسةعشرة ترتبط بـ ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في الآية الرابعةعشرة نظرًا للجارّ والمجرور في صدرها: ﴿بِأَيْدِي﴾. والآية السادسةعشرة نعت لـ ﴿سَفَرَةٍ﴾ في هذه الآية.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الأوّل: القرآن ذكر القيامة (الآيات ١٦-١)

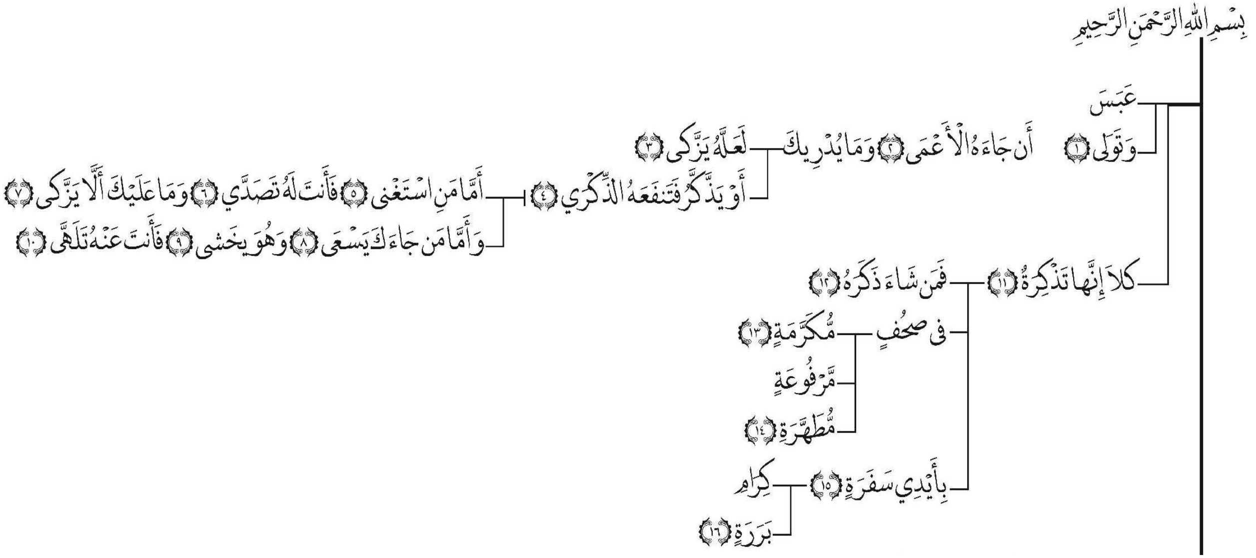

سنتابع فهم هذا السياق ضمن باقتين من آياته:

١. عتاب من يُؤْثِر الهارب من التذكّر على المتذكّر (الآيات ١٠-١)

إنّ الآيات الأولى من السورة عتاب وتوبيخ شديد لمن كلح وجهه، وأعرض: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ لأنّه جاءه رجل أعمى[١]: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ كي يصل إلى الرسولﷺ، ويطلبَ منه أن يقرأ له القرآن. والآيتان الأوليان جاءتا بصيغة الغياب لئلّا تباشرا مخاطبة العبوس ردًّا على تصرّفه السيّئ، وفي الآيتين التاليتين تباشر السورة مخاطبة العبوس بلهجة توبيخيّة، وهذا النمط من التعبير ينمّ عن شدّة العتاب. فالله يخاطب العبوس على لسان رسوله كما يلي:

وما أدراك أنت، لعلّ الأعمى ببركة مجيئه وتعلّمه من الرسولﷺ، يهتدي ويتزكّى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ أو لعلّه على الأقلّ يذّكّر، فينفعه هذا القرآن وهو ذِكْر: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾. تعرب ﴿أَمَّا﴾ عن استغنائه عن الوحي: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾، فإنّك يا عبوس! تهتمّ بشأنه، وتعتني به: ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ ليقوم الرسول ﷺ بتزكيته وحده، في حين أنّك لست مسؤولًا عن المستغني عن الوحي، إذا لم يتزكَّ: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾. وأمّا

---

١. الشخص المقصود رجلٌ من بني أميّة (تفسير القمّيّ، ج٢، ص ٤٠٥) وبحسب رأى البعض، فهو عثمان الذي كان يُعتَبر من أشراف مكّة (مجمع البيان، ج ١٠، ص ٦٦٤؛ بحار الأنوار، ج ٣٠، ص ١٧٥). والباعث على هذا التصرّف أنّه كان يظنّ أنّه إذا جاء هذا الأعمى إلى الرسولﷺ فإنّ أشراف مكّة سيتصوّرون أنّ أتباع الرسولﷺ وأنصاره مثل هؤلاء الأشخاص، وسيقولون في أنفسهم نأتي فنكون في منزلة هؤلاء الفقراء والعميان، لذلك أراد منع الأعمى، لئلّا يراه الأشراف الحاضرون في اجتماعهم مع رسول اللهﷺ.

من جاءك راغبًا في الهداية القرآنيّة، مسرعًا: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ليصل إلى الرسولﷺ فيطهّر نفسه بمعارف الدين والمواعظ التي يسمعها من الرسولﷺ وهو يخشى الله حقًّا، وإنّه من أهل الخشية: ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾، فإنّك تُعرِض عنه، وتتشاغل بأمور أخرى، فتتجاهله ولا تعبأ به: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾.

إنّ عناية الرجل الذي تعاتبه السورة، بمن كان يرى نفسه في غنًى عن الوحي: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾، تدلّ على أنّ تصرّفه هذا لم يكن بدافع تلقّيه التذكّر القرآنيّ؛ خاصّةً أنّه لا فرق في الهداية القرآنيّة بين الغنيّ والفقير؛ بل نشأ هذا التصرّف عن رؤيته الأرستقراطيّة، وربّما صحّ لنا القول بأنّه كان يظنّ أنّ هؤلاء (كبار قريش) ربّما ينفعونه في وقت لاحق، لذلك كان يريد أن يجمعهم حول الرسولﷺ ليحقّق بذلك نواياه ونوايا أولئك الرجال. وفي الحقيقة كان قادة الشرك يرون مكانتهم عرضةً للخطر من أجل ظهور الإسلام، فأرادوا مساومة القرآن على شؤونهم الدنيويّة حفاظًا على مكانتهم.

٢. القرآن تذكرة لمن شاء التذكّر (الآيات ١٦-١١)

إنّ تقديم الأثرياء المتغطرسين الذين يتظاهرون طلب الهداية بغية استغلال الفرصة، وتفضيلَهم على نُشّاد الهداية، أمر مرفوض؛ لأنّ القرآن لم ينزل من أجل ذلك؛ بل نزل للتذكّر والعمل والتقرّب إلى الله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ إذًا، فمن شاء ذَكَرَ القرآن واتّعظ به: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾. إنّ شأن هذا الكتاب عالٍ رفيع لدرجة أنّه يليق بالمرء أن يشتاق إلى استماعه؛ لأنّه مكتوب في صحف معظّمة رفيعة القدر: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ وإنّها في مكانة عالية، ونزيهة عن كلّ باطل وعبث وشكّ ودنس: ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾. وجيئت بهذه

الصحف على أيدي ملائكة كتبة، سفراء بين الله وخلقه: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ كرام الخلق، و أفعالهم بارّة طاهرة: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.

ومع الأخذ في الاعتبار باقيَ الآيات، نستنتج أنّ المنحى الإرشاديّ لهذا السياق هو كون القرآن تذكرةً للمعاد.

السياق الثاني

قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾
ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ
﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا
﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَ
أُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

غُلْبًا: مصدرها «غ ل ب»، وفي الأصل تعني العلوّ والارتفاع مترافقًا بالقوّة، والمقصود منها في هذه الآية بساتين ذات أشجار باسقة ضخمة وقويّة.

أَبًّا: مصدرها «أ ب ب»، وفي الأصل تعني الاستعداد والتهيّؤ، وتُطلَق على كلّ شئ جاهز، وغالبًا تُطلَق «أبّ» على مرعى الحيوانات الجاهز للرعي، مثل هذه الآية حيث معناها المرعى.

الصّاخَّة: مصدرها «ص خ خ»، وتعني الصوت الشديد الذي يترك أثرًا مزعجًا شاذًّا على سمع الإنسان وروحه؛ والمقصود بها في هذه الآية هو حادث القيامة الشديد الذي يرافقه صوت شديد مهيب.

تَرهَقُها: مصدرها «ر ه ق»، وتعني في الأصل الغشيان بشئ مكروه وغير محبَّذ.

قَتَرَة: في الأصل تعني التضييق والتشديد في أمرٍ ما، وفي الآية تدلّ على الشئ (الحزن والغمّ) الذي يظهر في وجه الإنسان بسبب التضييقات.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تنقسم آيات هذا السياق إلى ثلاث باقات:

الباقة الأولى. الآيات من السابعةعشرة حتّى الثالثةوالعشرين: من الآية السابعةعشرة يبدأ سياق جديد، لأنّها لا ترتبط أدبيًّا بالآيات السابقة. والآيات من الثامنةعشرة حتّى الثالثة والعشرين ترتبط بالآية السابعة عشرة وبقيّة الآيات عن طريق الضمير المتّصل المنصوب «ه» في ﴿خَلَقَهُ﴾، و﴿خَلَقَهُ فقَدَّرَهُ﴾، و﴿يَسَّرَهُ﴾، و﴿أماتَهُ فأقبرَهُ﴾، و﴿أنشَرَهُ﴾ و﴿أمَرَهُ﴾ والذي يرجع إلى ﴿ألإنسانُ﴾ في الآية السابعةعشرة.

الباقة الثانية. الآيات من الرابعة والعشرين حتّى الثانية والثلاثين: الآية الرابعة والعشرون معطوفة على الآية السابعةعشرة نظرًا لتكرار كلمة ﴿ألإنسانُ﴾ فيها وحرف العطف في أوّلها. قوله: ﴿أنّا صَبَبْنَا ﴾ في الآية الخامسة والعشرين، بدلٌ من ﴿طَعامِهِ﴾ في الآية السابقة. الآية السادسة والعشرون معطوفة على الآية الخامسة والعشرين. الآية السابعة والعشرون معطوفة على الآية السابقة لها، وإضافةً إلى ذلك يعود الضمير «ها» في ﴿فيها﴾ إلى

﴿ألأرضَ﴾ في الآية السابقة. الآيات من الثامنة والعشرين حتّى الواحدة والثلاثين معطوفة على ﴿حَبًّا﴾ التي هي مفعول به للفعل ﴿فأنبَتْنَا﴾ في الآية الثامنة والعشرين. وقوله: ﴿متاعًا﴾ في الآية الثانية والثلاثين مفعول له للفعل ﴿فأنبَتْنَا﴾ في الآية السابعة والعشرين مع متعلّقات مفعولها حتّى الآية الواحدة والثلاثين.

الباقة الثالثة. الآيات من الثالثة والثلاثين حتّى الثانية والأربعين: حرف «الفاء» في صدر الآية الثالثة والثلاثين: ﴿فإذا﴾ رابط للآية بالباقة السابقة. ﴿يومَ﴾ في الآية الرابعة والثلاثين ظرف زمانٍ وبدلٌ من ﴿إذا﴾ في الآية الثالثة والثلاثين. الآيتان الخامسة والثلاثون والسادسة والثلاثون معطوفتان على ﴿أخيهِ﴾ في الآية الرابعة والثلاثين. الآية السابعة والثلاثون توضّح ﴿يومَ﴾ في الآية الرابعة والثلاثين لانطوائها على ﴿يومَئذٍ﴾، كما أنّ المراد بضمير الجمع في ﴿مِنهُمْ﴾ هو المذكورون في الآيات من الرابعة والثلاثين حتّى السادسة والثلاثين. الآية الثامنة والثلاثون أيضًا كالآية السابقة لوجود ﴿يومَئذٍ﴾ فيها. الآية التاسعة والثلاثون خبرٌ ثانٍ لكلمة ﴿وُجوهٌ﴾ في الآية السابقة. الآية الأربعون معطوفة على الآية الثامنة والثلاثين. وضمير «ها» في الآية الواحدة والأربعين ﴿تَرْهَقُها﴾، يربط هذه الآية بالآية الأربعين. ﴿أُولَئِكَ﴾ في الآية الأخيرة أيضًا تشير إلى أصحاب الوجوه المذكورة في الآيتين السابقتين.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

لفت انتباه الإنسان إلى المعاد (الآيات ٤٢-١٧)

- قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ ← فَقَدَّرَهُ (١٩)
  - ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)
  - ثُمَّ أَمَاتَهُ ← فَأَقْبَرَهُ (٢١)
  - ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)
- كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)
- فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا
  - صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)
  - ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) ← فَأَنبَتْنَا فِيهَا
    - حَبًّا (٢٧)
    - وَعِنَبًا
    - وَقَضْبًا (٢٨)
    - وَزَيْتُونًا
    - وَنَخْلًا (٢٩)
    - وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)
    - وَفَاكِهَةً
    - وَأَبًّا (٣١) ⟵ مَّتَاعًا
      - لَّكُمْ
      - وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)
- فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣)
  - يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ
    - أَخِيهِ (٣٤)
    - وَأُمِّهِ
    - وَأَبِيهِ (٣٥)
    - وَصَاحِبَتِهِ
    - وَبَنِيهِ (٣٦) ⟵ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)
  - وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
    - مُّسْفِرَةٌ (٣٨)
    - ضَاحِكَةٌ
    - مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)
  - وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
    - عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠)
    - تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) ⟵ أُولَٰئِكَ هُمُ
      - الْكَفَرَةُ
      - الْفَجَرَةُ (٤٢)

سنتابع فهم هذا السياق بثلاث باقات من الآيات:

١. الاهتمام بمراحل سير الإنسان للتذكّر (الآيات ٢٣-١٧)

في هذا السياق يدعو القرآن على الإنسان أوّلًا، ويُعرِب عن تعجّبه من إصرار الإنسان على كفره وتعتيمه على الحقّ: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ﴾، وبعد ذلك يركّز على نوع خلقته منذ البداية حتّى المعاد: من أيّ شيء خلق الله هذا الإنسان الكفور الهارب من الهداية الإلهيّة: ﴿مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾؟! إنّما خلقه الله من نطفة لا تُذكَر، وقدّر كلّ مستلزمات كماله: ﴿مِن نُّطفَةٍ خَلَقَهُ فقَدَّرَه﴾. ثمّ يسّر له اختيار سبيل الحقّ وقبول الهداية الإلهيّة: ﴿ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ﴾، ولأنّ الله يسّر للإنسان سبيل الطاعة والإيمان، وخيّره في طيّ الطريق، لذلك لم يعد يبقى للإنسان عذر في الكفر. وفي النهاية، فإنّ هذا الخالق سيُميته ويُقبِره: ﴿ثُمَّ أماتَهُ فأقبَرَهُ﴾ وعندما يشاء سيعيد إليه الحياة ثانيةً ويبعثه ثانيةً ليحاسبه: ﴿ثُمَّ إذا شاءَ أنشَرَهُ﴾.

بيد أنّ هذا الإنسان الجاحد على الرغم من مشاهدة كلّ مظاهر القدرة الإلهيّة هذه، فإنّه لم يؤمن بربوبيّة الله، ولم يقضِ أمر الله بعدُ ولم يُطِعْه: ﴿كَلّا لَمّا يَقضِ ما أمَرَهُ﴾؛ بينما كان من المتوقَّع أن يسعى في طاعة الله وتنفيذ أوامره. في الحقيقة تُعَدّ هذه الآية جوابًا عن سؤال مقدَّر ناتج عن الآيات السابقة، وكأنّه يسأل بعد بيان خلق الله للإنسان وتدبيره من البداية حتّى النهاية، قائلًا: هل أدّى الإنسان شكر كلّ هذه النّعم والألطاف؟ والجواب: كلّا! لم يشكر الإنسان فحسب؛ بل كفر وطغى. إذا جعل الإنسان مراحل خلقه حتّى معاده نصب عينيه، فإنّه سيتذكّر وسيطيع الله ويذعن لأوامره.

٢. الانتباه إلى مظاهر الربوبيّة الواضحة في تمتّع الإنسان بالنعم بغية تذكُّر المعاد (الآيات ٣٢-٢٤)

هذا الإنسان الذي لم ينفّذ أوامر الله، عليه أن ينظر بدقّة إلى طعامه لإدراك الربوبيّة الإلهيّة إدراكًا أفضل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِهِ﴾ ليرى كيف هي مراحل خلقه. وعليه أن ينظر كيف صببنا الماء مطرًا ملائمًا للحياة: ﴿أنّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا﴾. ثمّ شققنا الأرض ببراعة: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأرضَ شَقًّا﴾ ليتغلغل فيها الماء، وتطلع منها النباتات، وأنبتنا فيها النباتات والحبوب: ﴿فأنبَتْنا فيها حَبًّا﴾ وأشجارَ عنبٍ وخضراواتٍ: ﴿وعِنَبًا وقَضْبًا﴾ وأشجارَ زيتونٍ ونخيلًا: ﴿وزيتونًا ونَخلًا﴾ وحدائق ملتفّة ذات أشجار كثيفة: ﴿وحدائقَ غُلْبًا﴾ وفواكهَ ومراعيَ وأعلافًا: ﴿وفاكِهَةً وأبًّا﴾، وكلّ ذلك متاع لكم ولأنعامكم: ﴿مَتاعًا لَكُمْ ولأنعامِكُمْ﴾.

٣. يحذّر القرآن الهاربين من التذكّر بأنّ وجوه أهل النعيم مبيضّة، ووجوه أهل الجحيم مسودّة في يوم القيامة (الآيات ٤٢-٣٣)

الآيات التالية تتعلّق بالمعاد؛ وبما أنّها تأتي بعد آيات خلق الدنيا وتكوينها، فتشير إلى أمر هامّ هو أنّ الدنيا والآخرة تشكّلان مجموعة واحدة ولا تنفصل إحداهما عن الأخرى، وأنّ الذين يعترفون بوجود الدنيا، فعليهم أن يعترفوا بوجود الآخرة أيضًا. ينتهي نظام الدنيا بإطلاق صيحة الآخرة، لذلك تقول: فإذا نُفِخَ في الصور وجاءت تلك الصاخّة التي تصمُّ الأسماع: ﴿فإذا جاءَتِ الصّاخَّةُ﴾ حيث يُقام فيها نظام القيامة، فشدّة اليوم تبلغ درجةً يفرُّ الإنسان فيها من أخيه: ﴿يَومَ يَفِرُّ المَرْءُ مِن أخيهِ﴾ وحتّى من أمّه وأبيه: ﴿وأُمِّهِ و

أبيهِ﴾ اللذين جاءا به إلى الدنيا، بل وأكثر من ذلك، حتّى من زوجته وأولاده: ﴿وصاحِبَتِه وبَنيهِ﴾ الذين كان يستأنس بهم جميعًا. لكلّ واحدٍ منهم يومئذٍ أمر وخَطْب يشغله ويمنعه من الانشغال بغيره: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنهُم يَومَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

ووجوه السعداء في ذلك اليوم بشوشة مستنيرة: ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ومسرورة وبهيّة وفرحة: ﴿ضاحِكَةٌ مُّستَبْشِرَةٌ﴾. والأشقياء يُعرَفون أيضًا بوجوههم التي يعلوها غبار الحزن والكرب: ﴿ووُجوهٌ يَومَئِذٍ عليها غَبَرَةٌ﴾ ويغشاها دخان أسود: ﴿تَرْهَقُها قَتَرَةٌ﴾. هذه الطائفة الثانية هي الكفرة الفجرة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾ ووجوههم تلك هي نتيجة كفرهم وفجورهم في الدنيا. تعريف الفريق الثاني بمصاديقهم على عكس الفريق الأوّل أي المؤمنون والصالحون، يجسّد أهميّة معرفة هذا الفريق بالنسبة للفريق الأوّل.

أُشِيرَ في هذا السياق إلى جحود الإنسان باعتباره عاملًا للغفلة عن المعاد، ثمّ أُشِيرَ إلى انقسام الناس ذلك اليوم إلى فريقين، ففي ضوء ذلك نستنتج أنّ المنحى الإرشاديّ لهذا السياق هو تنبيه الإنسان إلى المعاد.

النتيجة

لقد نزلت سورة عبس المباركة في أجواء كان فيها قادة قريش الكفرة الفجرة يرون لأنفسهم مكانةً وشأنًا لا أصلَ ولا أساس له في تعاليم الإسلام. فما كانوا يطيعون أوامر الله ولا يذكرون المعاد، بل غرقوا في الغفلة، وكانوا يكفرون بربّهم.

فالله تعالى في أحد السياقين يعاتب الرجل الذي كان يقدّم الأغنياء والأثرياء الرافضين للتذكّر، على المؤمنين المتذكّرين، ويصف القرآن بأنّه «تذكرة» قائلًا: لا فرق في الهداية

القرآنيّة بين الفقير والغنيّ.

وفي السياق الثاني من أجل تحطيم تكبّر الإنسان الهارب من التذكّر وغروره، فإنّه يذكّر بمراحل خلق الإنسان وجزء من خلق الكون، ويشير إلى انقسام الناس إلى فريقين: السعداء والأشقياء، مذكِّرًا بالأجواء المروّعة الرهيبة في يوم القيامة.

وكما لاحظنا، فإنّ السياق الأوّل للسورة يريد أن يوبّخ وينبّه الشخص الذي يقدّم هداية المعرضين عن التذكّر على هداية المتذكّرين، كما أنّ إنعام النظر في آيات السياق الثاني يكشف أنّ المقصود من تذكرة القرآن الكريم في السياق الأوّل هو التذكير بالمعاد. كذلك تتركّز بقيّة الآيات على الـمُعرِض عن التذكّرة، وذلك يُستخلَص من عباراتٍ كقوله: ﴿مَنِ اسْتَغْنَى﴾، و﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ﴾، و﴿كَلّا لَمّا يَقْضِ ما أمَرَهُ﴾ و﴿أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾ وفي الختام يحذّر من عاقبته المهينة في القيامة.

وعلى حسب السياقين المذكورين، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**التحذير إلى الذين يتجاهلون التذكّر القرآنيّ (المعاد)**».

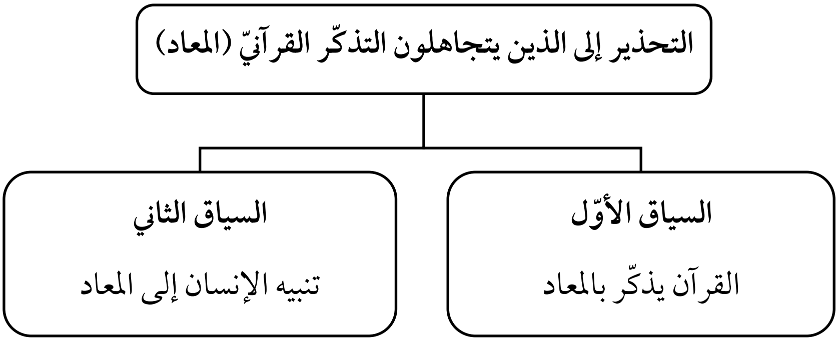

التدبّر في سورة النازعات

التعريف بالسورة

سورة النازعات هي السورة التاسعة والسبعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة النبأ وقبل سورة عبس.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورةٍ، فإنّنا سنتدبّر سورة النازعات في إطار أربعة سياقات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا
۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ
۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤ هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠
فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٤
فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا
أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَ
ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعٗا
لَّكُمۡ وَ لِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥
وَ بُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ

هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ
ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ
ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

تضمّ هذه السورة واحدة وأربعين آية، وتتألّف من أربعة سياقات:

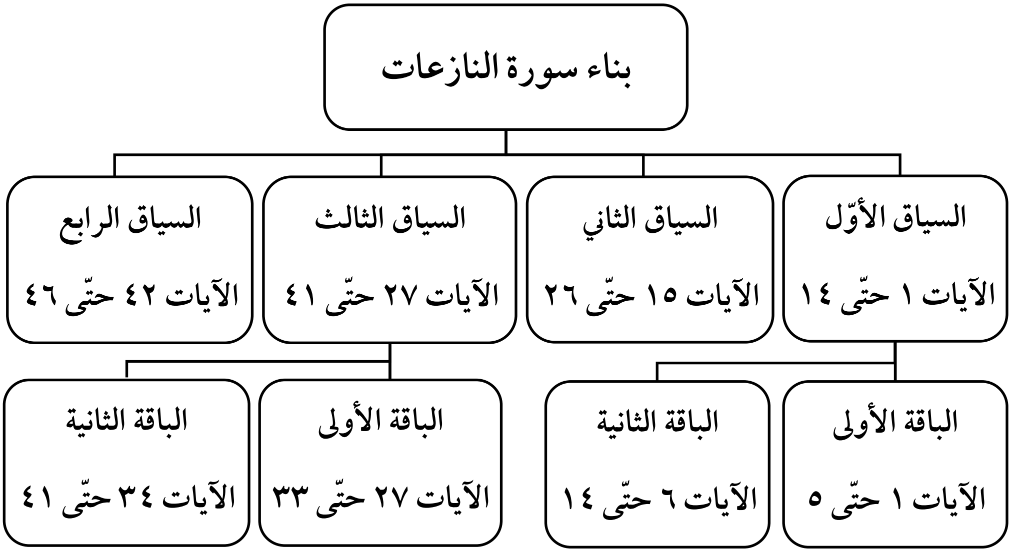

نظرًا لبناء آيات السورة، فإنّ فهم المنحى الإرشاديّ للآيات سيتمّ في أربعة سياقات:

لقد نزلت سورة النازعات المباركة في أجواء كانت طائفة تحاول دومًا أن تواجهَ الرسولﷺ في طرح موضوع المعاد، وتثيرَ الأجواء ضدّه لئلّا يقبل الآخرون كلامه، وذلك عبر التكذيب والاستهزاء والتمرّد على الأمر الإلهيّ أي المعاد، إذ لم تكن عاقبة الأعمال تهمّهم وكانوا يتّبعون أهواء نفوسهم. لذلك تواجه السورة بسياقاتها الأربعة حركة الطغاة والمكذّبين، كما تسلّط الأضواء على المكذّبين والطغاة والمستهزئين بالأمر الإلهيّ أي المعاد، وتتطرّق إلى الوقوع المؤكَّد المحتوم للمعاد، وتردّ عليهم جوابًا مفحمًا، فتبدأ السورة كما يلي:

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا
٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ
٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

النّازِعات: مصدرها «نَزع»، وفي الأصل تعني سحب الشئ ونزْعه من محلّه، وفي هذه السورة تعني الملائكة التي تنزع روح المجرم من جسده.

غَرقاً: في الأصل بمعنى السيطرة على شئ بحيث تُسلَب منه القوّة والإرادة؛ وفي الآية «و النّازِعاتِ غَرقاً» المقصود من «غَرقا» سيطرة الملائكة وهيمنتها.

النّاشِطاتِ: مصدرها «ن ش ط »، وفي الأصل تعني القيام بالواجب عن طيب خاطر وميل ورغبة؛ والمراد منها في الآية الملائكة التي تقوم بمهامّها الإلهيّة بمنتهى الميل والرغبة.

تَرجُفُ: مصدرها «ر ج ف » وهي بمعنى الزلزال الشديد.

الرادِفَة: في الأصل بمعنى وقوع شئ وراء شئ آخر، بحيث يقعان في رديف واحد؛ والمقصود منها في الآية «يومَ تَرجُفُ الراجِفَه تَتبَعُها الرادِفَة» وقوع زلزال شديد يردف الزلزال السابق.

واجِفَة: في الأصل بمعنى حركة غيرمتّزنة؛ وهي تعني في هذه الآية أنّ قلوب الكفّار تخرج ذلك اليوم عن حالتها الطبيعيّة فتصبح جدّ مضطربة ووجلة.

نَخِرَة: مصدرها «ن خ ر»، وهذه المادّة في الأصل تعني الصوت الخاصّ المنبعث عن دخول الهواء في جسم وخروجه منه؛ و«عِظاماً نَخِرَة» تعني عظامًا بالية فيها شقوق تُصدِر أصواتًا مع دخول الهواء وخروجه منها.

بالسّاهِرَة: في الأصل بمعنى الصحراء المستوية، والبقاء مستيقظًا، والانتباه والوعي ليلًا وعدم الغفلة، وقد أُطلِقَ في الآية على القيامة «السّاهِرَة»؛ إمّا لأنّه ليس هناك مجالٌ للنوم والغفلة، أو لكونها رهيبة وفظيعة، لأنّ الأحداث الرهيبة تسلب النوم من الإنسان ليلًا.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

هذا السياق يضمّ أربع عشرة آية في باقتين:

الباقة الأولى. الآيات من الأولى حتّى الخامسة: والآية الأولى قَسَمٌ، والآيات الأخرى

معطوفة عليها، وهي في حكم القسم. وجواب القسم محذوف أيضًا.

الباقة الثانية. الآيات من السادسة حتّى الرابعةعشرة: الآية السادسة ظرف زمان للآيات السابقة. الآية السابعة حال للآية السادسة، والضمير «ها» في ﴿تَتْبَعُها﴾ أيضًا عائد إلى ﴿الرَّاجِفَةُ﴾ في الآية السادسة. الآية الثامنة توضّح ﴿يَوْمَ﴾ في الآية السادسة، لوجود ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فيها. الآية التاسعة خبر لـ ﴿ قُلُوبٌ ﴾ في الآية الثامنة. الآية العاشرة تبيّن حال أصحاب القلوب في الآية الثامنة. الآية الحاديةعشرة مقولُ قولٍ آخرُ للفعل ﴿يقولونَ﴾ في الآية السابقة. الآية الثانيةعشرة تأكيد للفعل ﴿يَقولونَ﴾ المذكور آنفًا. يرجع الضمير ﴿هِى﴾ في الآية الثالثةعشرة إلى ﴿كَرَّةٌ﴾ في الآية الثانيةعشرة. رابط الآية الرابعةعشرة أيضًا هو ضمير ﴿هُم﴾، ويرجع إلى فاعل ﴿يَقولونَ﴾ في الآية العاشرة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

التحقُّق المؤكَّد للمعاد ردٌّ على المستهزئين بوقوعه (الآيات ١٤-١)

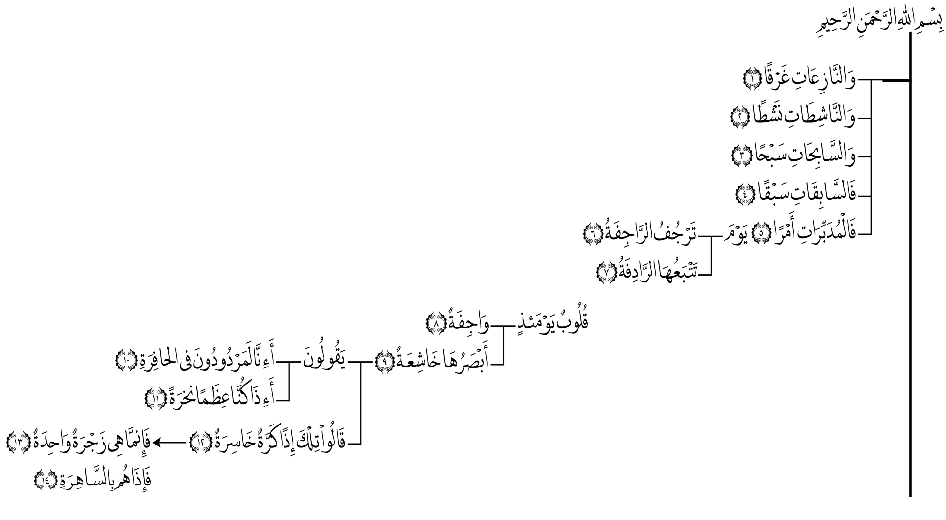

سنتابع فهم نصّ السياق الأوّل ضمن باقتين من الآيات:

١. التحقُّق المؤكَّد للمعاد (الآيات ٥-١)

تبدأ السورة بأقسام ترسم حال الملائكة خطوة بخطوة أثناء تنفيذ الأمر الإلهيّ وإقامة القيامة: عندما تنهض الملائكة من مواضعها بجدّ وجهد لأداء المهمّة الإلهيّة: ﴿والنّازِعاتِ غَرقًا﴾، وتسير بتؤدة ونشاط نحو الهدف الذي أُمِرتْ به:﴿والنّاشِطاتِ نَشطًا﴾ وتسير مسرعةً: ﴿والسّابِحاتِ سَبحًا﴾ ونتيجة لهذه السرعة، تتسابق الملائكة وتتسارع -كما يجب- إلى تنفيذ الأمر الإلهيّ:﴿فالسّابِقاتِ سَبْقًا﴾ وتدبّر ذلك الأمر، وتنجزه: ﴿فالمُدَبِّراتِ أمرًا﴾. فهذه الأقسام تشير إلى حقيقة ألا وهي أنّ الملائكة قوّات الردّ الإلهيّ السريع، وهذه مقدّمة ليقول القرآن بأنّ أمر القيامة يتحقّق سريعًا. وحُذِفَ جواب القسم لوضوح الأمر، وهو بالنظر إلى مضمون السورة، حتميّة وقوع المعاد.

لمزيد التوضيح نقول بأنّ مهمّة الملائكة تتمّ بطريقتين: فمرّةً هذه المهمّة من الأرض نحو السماء، ومثال ذلك عندما تقبض روح الإنسان وتحملها إلى السماء. ومرّةً ثانيةً تتمّ من السماء إلى الأرض؛ مثل تدبير أمور العالم. أسلوب آيات القسم التي عُطِفَت فيها الآيات الثلاث الأولى على بعضها بـ «الواو»، والأسلوب في الآيتين الأخيرتين اللتين عُطِفَتا بـ «فاء» التفريع على ما قبلهما، وخاصّةً العبارة الأخيرة: ﴿فالمُدَبِّراتِ أمرًا﴾، يُوحي ذلك كلّه أنّ مهمّة الملائكة في هذه الآيات من النوع الثاني، ونظرًا لأسلوب التعبير في آيات السورة التي تصف موعد انتهاء الدنيا وإقامة القيامة، فيُستنتَج أنّ الأمر الذي يتمّ تدبيره في الآية الأخيرة التي تنتهي إليها الأقسام: ﴿فالمُدَبِّراتِ أمرًا﴾ هو الأمر الإلهيّ نعني

وقوعَ القيامة، كما أنّ هذا الأمر عُدَّ جواب القسم أيضًا.

٢. الردّ على استهزاءات المستهزئين (الآيات ٦-١٤)

إنّ موقف الملائكة لدى نهاية العالم، يحدث في اليوم الذي يهزّ ذلك الزلزال المهيب أرجاء الأرض: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وتعقب الزالزالَ هزّاتٌ ارتداديّة شديدة أخرى: ﴿تَتۡبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾. وقلوب الكفّار المنكرين للقيامة يومئذٍ مضطربة خائفة جدًّا، جرّاء مشاهدة المناظر المروّعة لنهاية الدنيا: ﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٍ واجِفَة﴾. هذا القلق الباطنيّ شديد لدرجة أنّ آثاره تظهر على وجودهم كلّه، فتكون أبصارهم ذليلةً من هول ما ترى: ﴿أبصارُها خاشِعَةٌ﴾ ولا يجرأون على رفْع رؤوسهم. أُسنِدَ الخشوع إلى العيون على الرغم من اختصاصه بالقلب؛ لأنّه يمكن مشاهدة الأثر الظاهريّ للخشوع في العيون أكثر من الجوارح الأخرى.

حينئذ يقول أصحاب القلوب الواجفة: أنرجع ونحن في القبور: ﴿يَقولونَ أءِنّا لَمَردودونَ فِي الحافِرَة﴾ وبما أنّهم يحسبون الرجوع متعذّرًا صعبًا، فيقولون أنُبعَثُ أحياءًا وقد صرنا عظامًا رميمًا ومحطَّمة: ﴿أءِذا كُنّا عِظاماً نَخِرَةً﴾؟! وأخيرًا يجدون الجواب بأنّه لو كان هناك رجعةٌ (بعث) لكانت رجعةً خاسرةً: ﴿قالوا تِلۡكَ إذًا كَرَّةٌ خاسِرَةٌ﴾ وسيكون موقفنا يومئذ عصيبًا موجعًا.

والقرآن يردّ على إنكارهم و شبهاتهم حول أمر المعاد بلهجة حاسمة وقاسية قائلًا: إنّ إحياء الأموات في رأيكم صعب عويص؛ لكنّه مجرّد صرخة هادرة واحدة لنا: ﴿فإنّما هى زَجرَةٌ واحِدَة﴾ و بالتالي يحيا الناس، ويخرجون إلى وجه الأرض المستوية: ﴿فإذا هُمۡ بِالسّاهِرَة﴾،

لذلك لا فرق إن اعتبرتم القيامة بعيدةً متعذّرة الوقوع، كما أنّه لا مفرّ من ذلك اليوم، فالجميع- لا محالة - سيحضرون بين يدي الله تعالى. ولا يخفى أنّ الآيات من السادسة حتّى الثانيةعشرة تتعلّق بأشراط الساعة والنفخة الأولى، والآيتين الثالثةعشرة والرابعةعشرة تتعلّقان بوقوع القيامة والنفخة الثانية.

فالله في السياق الأوّل يتناول الوقوع السريع والمفاجئ للمعاد، كما يصوّر حركة الملائكة للقيام بمهمّة نهاية العالم وإقامة العالم الآخر. لذلك نعتبر منحى هذا السياق « **التحقُّق المؤكَّد للمعاد يُعَدّ ردًّا على المستهزئين بوقوعه**».

السياق الثاني

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ
ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ
ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

الخطوة الأولي: دراسة لغويّة

نَكال: جذرها «ن ك ل»، وهي في الأصل تعني الرجوع عن حالة من أجل العقاب والتشديد على أحد؛ كما لو يرجع الله عن رحمته وشفقته على المجرم ليُنزِلَ عليه العذاب؛ وفي الآية التي نحن بصددها، فإنّ المقصود من «نَكالَ الآخِرَه» هو العذاب الأخرويّ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية الخامسةعشرة تمثّل بدايةً لسياق جديد، إذ لا يربطها بما قبلها أيّ رابطٍ أدبيّ، و

يضاهي أسلوبها أسلوب بعض السور في التعبير.[1] الآية السادسةعشرة ظرف ومتعلّق بـ ﴿حَديثُ﴾ في الآية الخامسةعشرة؛ والضمير «ـه» في ﴿رَبُّهُ﴾ عائد إلى ﴿موسَى﴾. الآيات من السابعةعشرة حتّى التاسعةعشرة توضّح النداء الإلهيّ الموجَّه إلى موسى عليه السلام في الآية السادسةعشرة: ﴿نادَيهُ رَبُّهُ﴾. الآية العشرون معطوفة على ما قبلها، كما أنّ الضمير المتّصل المنصوب في ﴿ أرَيهُ﴾، يعود إلى ﴿فِرعَونَ﴾ في الآية السابعةعشرة. وهكذا ترتبط الآيات من الواحدة والعشرين حتّى الخامسة والعشرين، بالآيات السابقة لها. ماعدا الآية الخامسةوالعشرين التي يعود ضميرها المنصوب إلى ﴿فِرعَونَ ﴾، والضمير المرفوع يعود إلى فرعون في بقيّة الآيات أي الواحدة والعشرين حتّى الرابعة والعشرين.

الآية السادسة والعشرون أيضًا تشير إلى سبب المؤاخذة الإلهيّة المذكور في الآية السابقة ﴿فأخَذهُ اللهُ﴾ حيث يشار إليه بـ ﴿ذلِكَ﴾.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

سوء عاقبة فرعون الطاغية تهديد للمكذّبين (الآيات ٢٦-١٥)

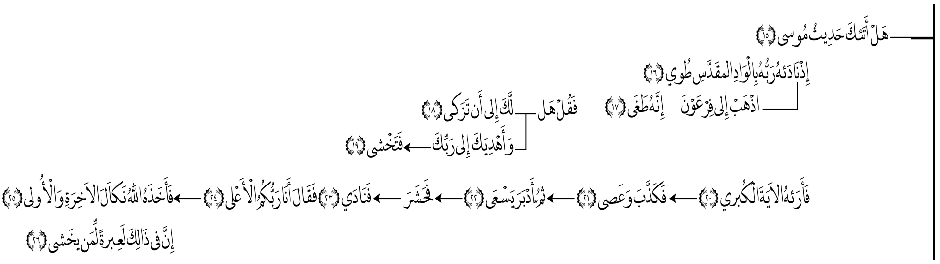

١. مثل سورة الغاشية: ﴿هلْ أتيكَ حَديثُ الغاشيَةِ﴾ (الآية ١).

بعد ذلك، تشير الآية إلى قصّة أحد طغاة التاريخ ومصيره المؤلم أي فرعون: بدايةً يخاطب القرآن الرسول الأكرمﷺ متسائلًا: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. المقصود من هذا السؤال هو ترغيب السامع في سماع القصّة، لذلك لم ينتظر الجواب، بل قدّم الجواب بالتفصيل كالتالي: عندما اختار الله موسى؈ للرسالة في الأرض المقدّسة طُوَى، وناداه: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أنِ اذهَبْ إلى فرعون. والسبب في هذه المهمّة هو طغيان فرعون: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾. وقل لفرعون أترغب في أن تغسل قلبك من الطغيان فتنمو وتتزكّى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾؟ أتحبّ أن أُهدِيَك إلى معرفة ربّك فتتراجعَ عن غرورك وطغيانك، وتخضع أمام ربّك: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾؟ ندرك من ترتيب الآيتين الأخيرتين أنّ الهداية والخضوع والخشوع تحصل بعد تزكية النفس من الدنس والرجس والغرور.

وبما أنّ كلّ دعوةٍ يجب أن تكون مقرونة بالدليل، فقد أظهر موسى؈ لفرعون أكبر معجزةٍ (انقلاب العصا إلى أفعى): ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾. على الرغم من أنّ هذه الدعوة كانت مصحوبةً بالحكمة واللطف وعرض المعجزة؛ إلّا أنّها أثارت غضب فرعون، وزادت من طغيانه، لذلك كذّب في البداية برسالة موسى؈، وبعد ذلك عصاه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ وهذا يُظهِر أنّ التكذيب مقدّمة العصيان. ولم يكتفِ فرعون بذلك ولم يبقَ مكتوف الأيدي تجاه دعوة موسى؈؛ بل أدبر وبدأ بالسعي المستمرّ لحشد قوّاته: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾. إنّ استمرار فرعون في حشد قوّاته يُستفاد من مجيء الفعل ﴿يَسۡعَىٰ﴾ بصيغة المضارع ووقوعه بعد ثلاثة أفعال ماضية.

عندها حشد فرعون جميع قوّاته مقابل دعوة موسىؑ، فحشرهم لمحاربته ونادى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ وأعلن للناس أنّه ربّهم الأعلى: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾. على الرغم من أنّ فرعون كان يعبد الأصنام إلّا أنّه ادّعى الربوبيّة، الأمر الذي يعني أنّ فرعون كان يرى نفسه أعلى وأجلَّ حتّى من ربّه المعبود، وهذا يدلّ على أنّ الموضوع الأساس للآيات هو معارضة فرعون لله وطغيانه أمام الله. وأخيرًا كان جزاء فرعون أنِ استحقّ أشدّ العذاب، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾. وإنّما يتسنّى الاعتبار بهذا الحدث لمن يخشى الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾؛ أي أنّه إذا لم يقرّر الطغاة الخشية من الله، فإنّ هذه القصة لن تنفعهم أبدًا.

بدأ سرد القصّة بتوجيه الخطاب إلى الرسول الأكرمﷺ لمواساته والتعاطف معه أمام موجة التكذيب؛ الأمر الذي يعني أنِ اعلَمْ أيّها الرسول! بأنّ قصّة موسىؑ مع فرعون الطاغية وقومه كانت كذلك، لأنّه لقي في دعوته تكذيب فرعون، وتحمّل كثيرًا من المصاعب. كذلك يمكن أن تكون هذه الآية تهديدًا للكفّار بأنّكم أيّها الكفّار إذا تماديتم في تكذيبكم، فسوف تلقون عاقبةً مثل عاقبة أصحاب فرعون الذين كانوا أشدَّ منكم شكيمةً و بأسًا.

نظرًا إلى أنّ الله يسرد في السياق الثاني قصّة دعوة موسى عليه السلام، وتكذيب فرعون و طغيانه وعقابه، ويعدّها عبرةً لمن يخشى الله؛ فنستنتج أنّ منحى هذا السياق هو كون سوء عاقبة فرعون الطاغية تهديدًا للمكذّبين.

السياق الثالث

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ
أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

الخطوة الأولي: دراسة لغويّة

سَمْكَهَا: مصدرها «س م ك»، وفي الأصل تعني مقدار الارتفاع، لهذا السبب يُطلَق على سقف المنزل الذي يبيّن مقدار ارتفاع المنزل «سمك البيت».

أغطَشَ: في الأصل بمعنى الحيرة في الظلام، و«أغطَشَ لَيلَها» يعني جعل الليل بحيث يتيهون في ظلامه.

دَحاها: مصدرها «دَحو»، وتعني البسط.

أرساها: مصدرها «ر س و» ومعناها الثابت والقويّ، وفي هذه الآية تعني أنّ الله تعالى أرسى الجبال، وجعلها ثابتة على الأرض.

الطّامَّة: مصدرها «ط م م»، وهي في الأصل بمعنى التغطية والشمول المطلق والكامل؛ ويُطلَق على القيامة اسم «الطامَّة» لأنّها شاملة وستغشى كلّ شخصٍ وكلّ شيءٍ.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

آيات هذا السياق تندرج في باقتين اثنتين:

الباقة الأولى. الآيات من السابعة والعشرين حتّى الآية الثالثة والثلاثين: الآية السابعة والعشرون بداية سياق جديد، ولايربطها بالآيات السابقة رابطٌ أدبيّ. الضمير «ها» في الآيتين الثامنة والعشرين: ﴿سَمْكَهَا فَسَوَّيها﴾ والتاسعة والعشرين: ﴿لَيلَها﴾ يعود إلى ﴿ٱلسَّماءُ﴾ في الآية السابعة والعشرين. الآية الثلاثون معطوفة على ما قبلها، ويرجع الضميران «ها» في الآية التالية: ﴿ماءَها ومَرعَيها﴾، إلى ﴿ٱلْأَرضَ﴾ في هذه الآية. الآية الثانية والثلاثون معطوفة على الآية الثلاثين. و﴿مَتاعًا﴾ في الآية الثالثة والثلاثين تعليل للفعل الإلهيّ في الآيات السابقة.

الباقة الثانية. الآيات من الرابعة والثلاثين حتّى الواحدة والأربعين: «فاء» العطف في صدر الآية الرابعة والثلاثين: ﴿فإذا﴾ تربط الآية بالباقة السابقة وهي آية شرط. ﴿يَومَ﴾ في الآية الخامسة والثلاثين بدلٌ من ﴿فإذا﴾ في الآية السابقة، كما أنّ الآية السادسة والثلاثين معطوفة على ذلك أيضًا. يبدأ جواب الشرط من الآية السابعة والثلاثين التي تتناول أحوال الناس وانقسامهم إلى فريقين ذلك اليوم، كذلك يرسم القرآن الموقف بأسلوب الشرط: والآيات من السابعة والثلاثين حتّى التاسعة والثلاثين معطوفة على بعضها تمثّل أحد الفريقين، والآيتان الأربعون والواحدة والأربعون تمثّلان الفريق الآخر.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

الاحتجاج بقدرة الله على وقوع المعاد، ووقوع القيامة وعاقبة الطغاة (٤١-٢٧)

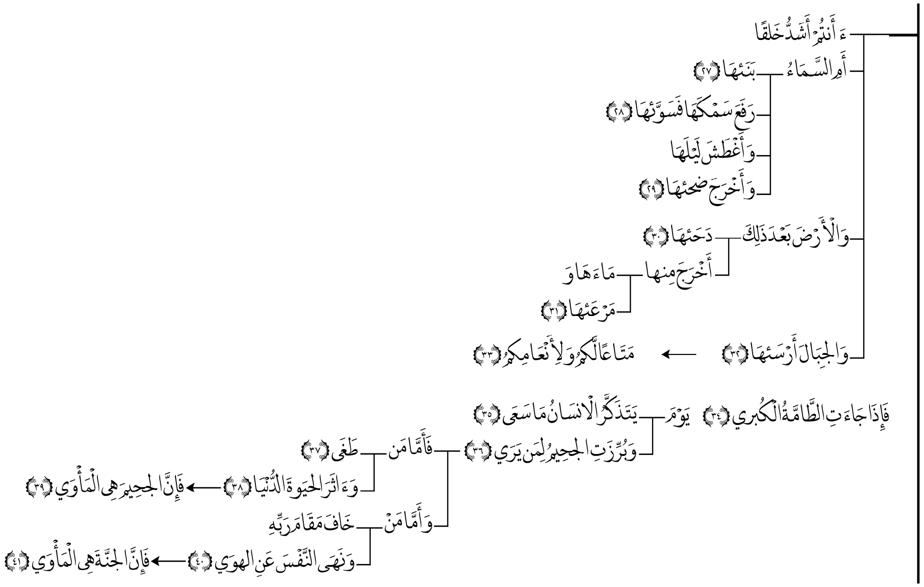

سنتابع فهم نصّ السياق الثالث في باقتين اثنتين من الآيات:

١. الاحتجاج بقدرة الله على وقوع المعاد (الآيات ٣٣-٢٧)

الموضوع التالي يُعَدّ استدلالًا وبرهانًا على المعاد، وردًّا على سؤال يتعلّق بإمكانيّة المعاد، والذي طُرِحَ آنفًا في الآية العاشرة؛ لأنّه يذكر أمثلةً على القدرة الإلهيّة اللامتناهية في الكون كدليل على إمكانيّة المعاد: أوّلًا يخاطب منكري القيامة باستفهام تقريريّ، ويسألهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾؛ في حين أنّ خلْق السماء أعظم بمرّات من خلْقكم، إذن يستطيع الله أن يُحيِيكم بخلق آخر، ولا ينبغي لكم أن تستبعدوا خلْقكم الثاني أو تعتبروه مستحيلًا.

بعد ذلك، يشير القرآن إلى طريقة خلْق السماء والأرض، وأنّ الله رفع سقفها، ووضعها متوازنة الشكل والأبعاد: ﴿رَفَعَ سَمكَهَا فسَوَّيها﴾؛ فجعل ليل السماء مظلمًا، ونهارها مضيئًا: ﴿وأغطَشَ لَيلَها وأخرَجَ ضُحَيها﴾ وبعد خلْق السماء، بسط الأرض: ﴿والأرضَ بَعدَ ذالك دَحيها﴾. يجب أن نعلمَ أنّ «دحو الأرض»: ﴿دَحيها﴾ بقرينة الآيات التالية، تعني تجهيز الأرض وتأهيلها للعيش والحياة، لأنّ الله بعد ذلك تحدّث عن الماء والنبات، وأنّ الله أخرج من الأرض ماءًا ومرعًى: ﴿أخرَجَ مِنها ماءَها ومَرعَيها﴾. هذا التعبير يدلّ أنّ الماء كان كامنًا في طبقات الأرض الصلبة، ثمّ جرى ينابيعَ وأنهارًا لتتكوّن البحار والبحيرات. ومن العلامات الأخرى لقدرة الله في العالَم أنّه أرسى الجبال على الأرض: ﴿والجِبالَ أرسَيها﴾ لئلّا تهتزّ الأرض وتضطربَ.

وبعد ذكْر آيات القدرة الإلهيّة في الكون، يوضّح الله تعالى أنّنا خلقنا كلّ شيءٍ ودبّرنا أمره، ليكون متاعًا لكم ولأنعامكم: ﴿مَتاعًا لَكُم ولِأنعامِكُم﴾، وعلى هذا، فيجب على الإنسان أن يسعى لمعرفة ربّه، وأن يخاف مقام ربّه، ويحذر هوى النفس؛ لأنّ الإنسان سيجازَى يومًا ما على ما قام به.

٢. وقوع القيامة، وبيان عاقبة أهل الطغيان وأهل الخشية (الآيات ٣٤-٤١)

بعد ذلك، يعود الكلام إلى مسألة يوم القيامة، حيث يؤكّد حتميّة وقوعها بذكر «إذا» الشرطيّة، ويصفه بأنّه أكبر طامّة وبلاء يفوق جميع البلايا والمصائب الأخرى ليجسّد العظمة الفائقة لذلك اليوم: ﴿فإذا جاءَتِ الطّامَّةُ الكُبرَى﴾. و«الفاء» في صدر هذه الآية تبيّن نتيجة الآيات السابقة؛ ممّا يعني أنّ وقوع القيامة من متطلّبات خلْق السماء والأرض، والتدبير الجاري فيهما، وأنّ وقوع القيامة لا ينفصل عن خلْق الدنيا. يومئذٍ يصحو الجميع من الغفلة،

فيتذكّر كلّ إنسانٍ عملَه وسعيه في الدنيا: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾؛ وقد نسي الإنسان أعماله من كثرة الغفلة، وبهذا يصف القرآن أنّ المصير الأخرويّ لكلّ إنسانٍ مرتبط بسعيه في الدنيا. كذلك في مثل هذه الظروف، تظهر جهنّم بحرارتها اللافحة التي خُلِقَت من قبل، فلا تخفى على أحد: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾.

عندما تأتي الطامّة الكبرى (القيامة) ينقسم الناس إلى فئتين مختلفتين: الفئة الأولى هم الطغاة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾؛ أولئك الذين تخطّوا حدود طاعة الله، وآثروا الحياة الدنيا، وتخلّوا عن الآخرة: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾. فلن يكون لهم في الآخرة مأوًى غير نار جهنّم اللاهبة: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾. وفي مقابل هذه الفئة أناس يخافون مقام ربّهم وينهون أنفسهم عن اتّباع الهوى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾، ولهذا فإنّ الجنّة هي مأواهم الوحيد يوم القيامة: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾.

والسياق الثالث يشير إلى أمثلةٍ من القدرة الإلهيّة اللامتناهية في الكون، احتجاجًا بقدرة الله على وقوع المعاد، ويذكر أنّ جهنّم هي مأوى الطغاة الدنيويّين، وأنّ الجنّة هي مأوى المؤمنين الخائفين من ربّهم، المخالفين لهوى النفس. لذلك نستنتج أنّ منحى هذا السياق هو الاحتجاج بالقدرة الإلهيّة على وقوع المعاد، وعاقبة أهل الطغيان.

السياق الرابع

يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾
إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ: لم يعيشوا

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية الثانية والأربعون المنقطعة عمّا قبلها أدبيًّا تُعتبَر بداية سياقٍ جديدٍ. والضمير «ها» في الآيات من الثالثة والأربعين حتّى السادسة والأربعين: ﴿ذِكۡرَىٰهَا﴾، و﴿مُنتَهَاهَا﴾، و﴿يَخۡشَىٰهَا﴾ و﴿يَرَوۡنَهَا﴾ يربط مجموع آيات السياق، وهو يعود إلى ﴿السَّاعَةِ﴾ في الآية الأولى من السياق.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

استهزاء المكذّبين بموعد وقوع المعاد (الآيات ٤٦-٤٢)

- يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾
  - فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾
  - إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾
  - إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا
    - عَشِيَّةً أَوۡ
    - ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

كان آخر حربة لدى منكري المعاد أنّهم سألوا الرسولﷺ عن وقت القيامة: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾، والفعل المضارع ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، يفيد الاستمرار ويوحي بإعادة عملهم هذا. كان المنكرون يتوهّمون أنّهم يستطيعون تكذيبَ الرسولﷺ بهذه الطريقة، وإبقاءَ الطريق مفتوحًا لإنكار القيامة. يأتي سؤالهم هذا في حين أنّ موعد وقوع القيامة مستور محجوب حتّى عن الرسول ﷺ فما بالك بالآخرين، كما أنّ الله يخاطب رسوله قائلًا له: ماذا ستستفيد من ذكرها؟: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ لأنّ عِلۡمَها مختصّ بربّك: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ

مُنتَهاها﴾، لذلك لا ينبغي للناس أن يسألوا الرسولﷺ عن موعدها.

كذلك يُذكِّر القرآن قائلًا: أيّها الرسول! إنّ مهمّتك مقصورة على إنذار الذين يخشون ذلك اليوم: ﴿إِنَّما أنتَ مُنذِرُ مَن يَخشَيها﴾. على الرغم من أنّ إنذار الرسول ﷺ عامٌّ، فإنّ اختصاص الإنذار بالفئة المذكورة يدلّ على تأثّرهم وعدم انتفاع الآخرين بالإنذار. إنّ حصر منزلة الرسول ﷺ في كونه المنذرَ بذلك اليوم، يدلّ على أنّ منكري القيامة كانوا بسؤالهم ينوون إلقاء هذه الشبهة، وهي أنّه لو كان رسولَ الله حقًّا، ويدّعي الإنذار بيوم القيامة، فلماذا لا يعلم موعد وقوعها؟ والآية تعتبر أنّ شأن الرسولﷺ مقصور على الإنذار بيوم القيامة، وليس الإخبار بزمن وقوعه.

والآية الأخيرة تُظهِر الحقيقة القائلة بأنّه لم يبقَ وقت طويل على وقوع القيامة. إنّ عمر الدنيا القصير يمرّ مرّ السحاب، بحيث يحسبون عند قيام القيامة أنّهم لم يلبثوا في الدنيا طَوال تلك المدّة (أي الفترة بين حياتهم ويوم القيامة والبعث) إلّا عشيّة (يومًا كاملًا) أو ضحاها (نصفَ يومٍ): ﴿كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَها لَم يَلبَثوا إِلّا عَشِيَّةً أَو ضُحَيها﴾.

آيات السياق الرابع تصف العلم بتوقيت القيامة مختصًّا بالله، وتصف مكانة الرسولﷺ باعتباره المنذرَ بالقيامة. لذلك، فإنّ منحى هذا السياق هو استهزاء المكذّبين بموعد وقوع المعاد.

النتيجة

يبدأ السياق الأوّل بالقسم، لكنّ جواب الأقسام محذوف، ونظرًا للآيات التالية يمكن القول أنّ الجواب هو وقوع القيامة. ثمّ يشير من أجل التحذير، إلى أحداث ستقع على أبواب القيامة، كما يبيّن حال الإنسان المنكِر خلال ذلك اليوم. في نهاية السياق يعود أيضًا إلى موضوع المعاد، ويعلن بلهجة قارعة أنّ وقوعه عاجل ومفاجئ.

في السياق الثاني، يشير بدايةً إلى قصّة دعوة موسى ﵇ وتكذيب فرعون وطغيانه، وبعد ذلك يشير إلى عقوبته. وقد اعتبر في الآية الأخيرة أنّ جميع تلك الأحداث عِبرةٌ لمن يخشون الله.

في بداية السياق الثالث، يذكر أمثلةً لقدرة الإلهيّة المطلقة في الكون. ثمّ يشير إلى أنّ الطغاة المحبّين للدنيا يدخلون في يوم القيامة جهنّم، بينما الذين يخشون الله وينهون النفس عن النزوع إلى الدنيا سيكونون أهل الجنّة.

والسياق الأخير، يطرح سؤالًا عن توقيت القيامة، ويعتبر العلم به مختصًّا بالله تعالى، ويشير إلى مكانة الرسول ﷺ باعتباره المنذرَ بذلك اليوم، وبالطبع المنذرَ لمن يخشى الله تعالى.

نظرًا إلى أنّ السورة تؤكّد من جهةٍ إمكانيّة وقوع المعاد، ومن جهةٍ أخرى تعتبر أنّ السبب الرئيس في تكذيب المعاد هو طغيان الإنسان؛ وكما أنّ تأكيد خشية الله مشهود في أرجاء السورة بأكملها، فإنّها تعتبر النقطة المقابلة للطغيان والسبيل الوحيد للخلاص هي خشية الله، وعليه فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة كما يلي:

«الطغيان سبب إنكار القيامة، وخشية الله سبب التصديق بالقيامة».

الطغيان سبب إنكار القيامة، وخشية الله سبب التصديق بالقيامة

السياق الأوّل

التحقُّق المؤكَّد للقيامة ردٌّ على المستهزئين بوقوع المعاد

السياق الثاني

سوء عاقبة فرعون الطاغية تهديد للمكذّبين

السياق الثالث

الاحتجاج بقدرة الله على وقوع المعاد، وقوع القيامة، وعاقبة الطغاة

السياق الرابع

الطغيان سبب إنكار القيامة، وخشية الله سبب التصديق بالقيامة

التدبّر في سورة النبأ

التعريف بالسورة

سورة النبأ هي السورة الثامنة والسبعون من القرآن الكريم، وتقع بعد سورة المرسلات وقبل سورة النازعات.

نظرًا إلى الخطوات اللازم أخذها في كلّ سورةٍ، فإنّنا سنتدبّر سورة النبأ في إطار أربعة سياقات.

أوّلًا نقرأ السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا
﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا
فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾
لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ
فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ
سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا
يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا
يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ
نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَ
كَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾
رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ

ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ
يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

تضمّ هذه السورة أربعين آيةً، وتتألف من أربعة سياقات:

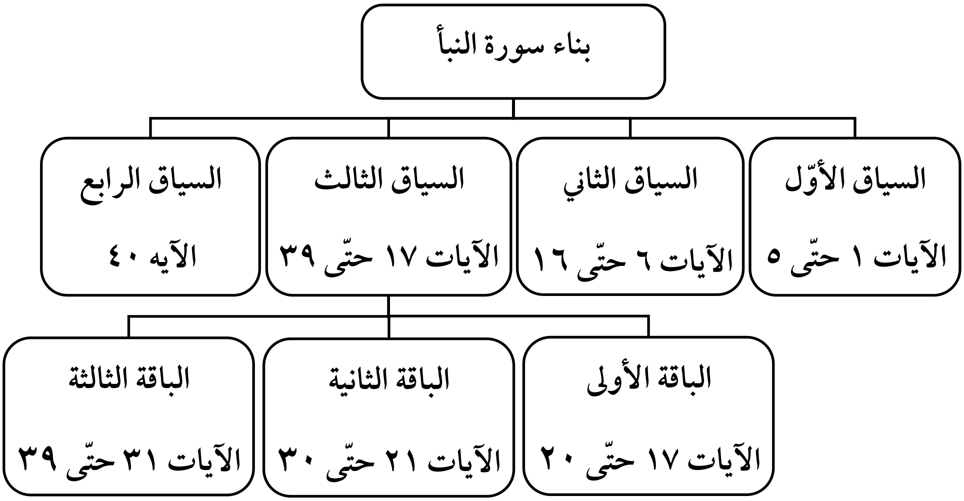

لقد مرّ حوالي عقْدٍ من الزمن على حضور الرسول الأكرمﷺ في مكّة، وكان الإسلام قد انتشر، وظلّ القرآن الكريم يُخبِر عبر الحجج عن وقوع القيامة والحساب وجزاء الأعمال. مع ذلك كان الكفّار والمشركون في مكّة يكذّبون لدى سماع هذا النبأ الهامّ، القرآنَ والرسول ﷺ بشدّةٍ لوجود آيات القيامة، لأنّهم لم يكونوا يرجون الحساب. وبما أنّ نبأ وقوع القيامة والحساب كان ثقيلًا على الكفّار فقد أصابهم بالحيرة والذهول، لذلك كانوا يحاولون ملء الأجواء في المجتمع بأسئلة إنكاريّة حول هذا النبأ العظيم.

وأحيانًا كانوا يثيرون نوعًا من الشكّ في إمكانيّة وقوع القيامة من خلال التشكيك بقدرة الله. في خضمّ هذه الأجواء، نزلت سورة النبأ المباركة، ودحضت بآياتها النورانيّة أجواء الشكّ والإنكار والغفلة كما يلي:

السياق الأوّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

النَّبَإِ: الخبر

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآيه الثانية تبيّن ﴿عَمَّ﴾ (عَن ما) في الآية الأولى. الآية الثالثة نعتٌ ثانٍ لـ ﴿ٱلنَّبأ﴾ في الآية الثانية. الآيتان الرابعة والخامسة أيضًا ردعٌ عن التساؤل المطروح في الآيات السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

السياق الأوّل: الإعلان عن حتميّة وقوع القيامة (الآيات ٥-١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾
كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾

تبدأ السورة بالسؤال عن موضوع تساؤلهم: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ﴾ ولم يكن هذا السؤال لغرض الإجابة؛ بل لغرض الإنكار، وذلك نظرًا للتهديد الذي سيأتي في الآيات التالية. هذا الفريق يتساءلون عن خبر عظيم: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ لعلّهم عبر خلْق مناخ من الإنكار والجحود في إثبات وقوع ذلك النبأ، يستطيعون زرْع الشكّ في قلوب الناس. وطبعًا إنّهم يختلفون في طريقة الإنكار: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ على الرغم من اتّفاقهم على أصل إنكاره. وكان الاختلاف المعنيّ من قبيل أنّ البعض أثاروا الشبهة في إمكانيّة وقوع القيامة بالتشكيك في علْم الله وقدرته، وكان البعض الآخر ينفون ضرورة القيامة من خلال مزاعمهم بافتقار الفعل الإلهيّ إلى الحكمة.

ويردّ عليهم بلهجة تهديد قائلًا لهم: لا تختلفوا ولاتتساءلوا لإنكار القيامة، لأنّه ستنكشف لكم عاجلًا حقيقة الأمر في عالم البرزخ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ومن ثم ستتّضح لكم حقيقة هذا الأمر كاملًا: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾. والدليل على اختصاص إحدى الآيتين بالبرزخ، والأخرى بالقيامة، هو مجئ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة للمسافة والتراخي بين التعبيرين المتماثلين.

وفي السياق الأوّل، ترسم السورة الأجواء أوّلًا، حيث يتساءل فيها المنكرون عن النبأ العظيم؛ الخبر الذي يختلفون فيما بينهم حول طريقة إنكاره، ومن ثمّ تؤكّد كثيرًا إعلان حتميّة وقوع القيامة، وهذا يدلّ على منحى السياق.

السياق الثاني

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾
وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا
﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

مِهادًا: في الأصل تعني إعداد مكان للسكن والاستراحة، وفي هذه الآية تشير إلى إعداد الأرض وتأهيلها من أجل سكن الناس وحياتهم.

سُباتًا: مصدرها «سَبت و سِبت» وفي الأصل تعني الاستراحة بعد العمل والجهد.

وَهّاجًا: في الأصل بمعنى السطوع مع الحرارة؛ والمقصود منه في هذه الآية هو الشمس الساطعة التي تولّد الحرارة.

المُعصِرات: مصدرها «ع ص ر»، وفي الأصل تعني ضغط شئ للحصول على نتيجة منشودة، والتعبير عن الغيوم في الآية بالمعصرات يشير إلى تكاثف الغيوم وتراكمها وضغطها.

ثَجّاجًا: مصدره «ث ج ج»، ومعناه السكب الممتلئ بحيث يكاد السيل يجري.

ألفافًا: مصدرها «ل ف ف»، ومعناها الجمع مع اللفّ، والمقصود منها في هذه الآية هو

الحدائق ذات الأشجار الكثيرة والملتفّة.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

الآية السادسة تُعتبَر بدايةَ سياقٍ جديدٍ لأنّها لا ترتبط بما قبلها لفظيًّا، ولأنّ أسلوب التعبير تغيّر فيها. من ناحية أخرى، إنّ جميع الأفعال في هذا السياق قد جاءت على شكل المتكلّم مع الغير، وبدايته تحاكي بداية الكثير من السور.[1] الآية السابعة معطوفة على الآية السادسة، والآيات كلّها حتّى الآية الرابعةعشرة أيضًا معطوفة على بعضها. الآية الخامسة عشرة تعليل لـ ﴿أنزَلنا﴾ في الآية الرابعةعشرة، والآية السادسةعشرة أيضًا معطوفة عليها.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

تدبير الله الحكيم للنظام القائم أفضل دليلٍ على إمكانيّة وقوع المعاد (١٦-٦)

- أَلَمْ نَجْعَلِ
  - الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾
  - وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾
- وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾
- وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾
- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾
- وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾
- وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾
- وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾
- وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ
  - حَبًّا
  - وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾
  - وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

---

١. ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، سورة الفيل (الآية ١). ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، سورة الشرح (الآية١).

الآيات الإحدى عشرة التالية تسعى لإثبات المعاد وهي تَعُدّ مظاهر الخلق والتدبير الإلهيّ في هذه الظواهر؛ كما يلي: ألم نجعل الأرض مثل المهد فراشًا مناسبًا يسهل استخدامها وهي قابلة للتصرّف: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرضَ مِهادًا﴾ وفي المقابل ألم نجعل الجبال مثل الأوتاد المدقوقة من أجل الثبات والاستقرار: ﴿والجِبالَ أوتادًا﴾ لتكون سبباً لإرساء الأرض، ولتمنع من تذبذبها؟ ألم نخلقكم أزواجًا من ذكر وأنثى: ﴿وخَلَقْناكُم أزواجًا﴾ لتجريَ سنّة الزواج والتناسل، ويبقى النسل البشريّ على الأرض إلى ما يشاء الله. قد جعلنا نومكم سببًا للراحة والنشاط الجسديّ: ﴿وجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتًا﴾ وجعلنا الليل لباسًا أيضًا: ﴿وجَعَلْنا اللَّيلَ لِباسًا﴾ يستر كلّ ما يُرَى لتستعيدوا راحتكم، وجعلنا النهار للكسب والعمل وتوفير سبل العيش وتهيئة وسائل الراحة في الحياة: ﴿وجَعَلْنا النّهارَ مَعاشًا﴾. إلى هنا كان الحديث عن الأرض وما عليها، ومن الآية الثانيةعشرة حتّى السادسةعشرة يدور الحديث حول السماء وما يتعلّق بها.

وكما بنينا فوق رؤوسكم سبع سماوات قويّة ومتينة: ﴿وبَنَيْنا فَوقَكُمْ سَبْعًا شِدادًا﴾ وجعلنا فوقكم سراجًا وهّاجًا (الشمس) يمدّ الأرض بالنور والطاقة: ﴿وجَعَلْنا سِراجًا وَهّاجًا﴾ كذلك أنزلنا من الغيوم الكثيفة ماءًا منهمرًا: ﴿وأنزَلْنا مِنَ المُعصِراتِ ماءً ثَجّاجًا﴾ لنُخرِجَ من الأرض بهذا المطر حبًّا ونباتًا: ﴿لِنُخْرِجَ به حَبًّا ونَباتًا﴾ وكذلك حدائق ملتفّة: ﴿وجَنّاتٍ ألفافًا﴾ ليأكلَ منها الإنسان وبقيّة الحيوانات. نظرًا لتلك الأمور، فإنّ نظام العالم كلّه قائم على التدبير الحكيم للخالق، ومن المحال أن يخلوَ من هدف في رأي خالقه. بالتأكيد إنّ من وراء هذا العالَم عالمًا آخَر يتنعّم فيه أهل التقوى، ويعذّب فيه الطغاة، لذلك ليس من الجائز

أن يختلف المشركون فيما بينهم حول كيفيّة إنكار مثل هذا اليوم، لأنّ وقوعه محتوم مؤكّد.

وفي السياق الثاني، تغيّر المضمون، وتناول تدبير الخالق المتقَن والحكيم لنظام العالم باعتباره أفضل دليلٍ على إمكانيّة وقوع القيامة (دليل على وجود القيامة، ونظام الآخرة بوصفه هدفًا للدنيا)، وهو(تدبير الخالق المتقَن والحكيم لنظام العالم) منحى السياق الثاني.

السياق الثالث

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ
ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾
لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ
شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾
حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَ كَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا
يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ
ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أحقابًا: مصدرها «ح ق ب»، وفي الأصل بمعنى كلّ شئ متّصل ومستمرّ؛ وفي الآية التي بين أيدينا، إشارة إلى العذاب القائم الدائم، وبقاء الضالّين في جهنّم.

دِهاقًا: في الأصل بمعنى الملء أكثر من الحدّ، والفيضان والامتلاء حتّى الحوافّ.

صَوابًا: في الأصل مقابل الخطأ، وبمعنى الصحيح والشئ المطابق للطبيعة والحقّ، وفي

هذه الآية بمعنى الكلام الحقّ المطابق للواقع.

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

تنقسم آيات هذا السياق إلى ثلاث باقات ذات بدايات متماثلة بحرف «إِنّ»، وهذا التماثل دليل على أنّها في سياق واحد.

الباقة الأولى. الآيات من السابعةعشرة حتّى العشرين: من الآية السابعةعشرة يبدأ سياق جديد. ﴿يَومَ﴾ في صدر الآية الثامنةعشرة بدل من ﴿يَومَ﴾ أو ﴿ميقاتًا﴾ في الآية السابعة عشرة. الآيتان التاسعةعشرة والعشرون معطوفتان على ﴿يُنفَخُ﴾ في الآية الثامنةعشرة.

الباقة الثانية. الآيات من الواحدة والعشرين حتّى الثلاثين: الآية الثانية والعشرون تتعلّق بـ ﴿ مِرصادًا ﴾ في الآية الواحدة والعشرين لأنّها تتصدّر بالجارّ والمجرور: ﴿لِلطّاغينَ﴾، والآيتان الثالثة والعشرون والرابعة والعشرون حالان لها. تمّ استثناء الآية الخامسة والعشرين عن الحكم السابق، وهي تفيد الحصر لكونها في سياق النفي. كما أنّ الآية السادسة والعشرين مفعول لأجله (تعليل) للآيتين السابقتين. كذلك الآية السابعة والعشرون تعليل لما قبلها. والآية الثامنة والعشرون معطوفة على خبر ﴿إنّهم﴾ في الآية السابقة. الآية التاسعة والعشرون معترضة تليها الآية الثلاثون كنتيجة وعاقبة للآيتين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين.

الباقة الثالثة. الآيات من الواحدة والثلاثين حتّى التاسعة والثلاثين: الآية الثانية والثلاثون عُطِفَتْ على ﴿مَفازًا﴾ في الآية الواحدة والثلاثين، والآيات التالية حتّى الآية الرابعة والثلاثين معطوفة عليها. يعود الضمير المرفوع في ﴿يَسمَعونَ﴾ في الآية الخامسة

والثلاثين، إلى ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الآية الواحدة والثلاثين. ﴿جَزَاءً﴾ في صدر الآية السادسة والثلاثين مفعولٌ له للآيات السابقة. الآية السابعة والثلاثون: ﴿ربِّ السَّماواتِ﴾ بدل من ﴿رَبِّكَ﴾ في الآية السابقة. الآية الثامنة والثلاثون ظرف للفعل ﴿لا يَملِكونَ﴾ في الآية السابعة والثلاثين. ﴿ذلِكَ اليَومُ﴾ في الآية التاسعة والثلاثين نفس ﴿يَومَ﴾ في الآية السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

وصف يوم الفصل، وبيان عاقبة الفريقين: الطاغين والمتّقين(الآيات ٣٩-١٧)

- إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ
  - يُنفَخُ فِي الصُّورِ ← فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨)
  - وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ ← فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩)
  - وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ ← فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠)
- إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ
  - مِرْصَادًا (٢١)
  - لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢)
    - لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣)
    - لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا
      - بَرْدًا
      - وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا
        - حَمِيمًا
        - وَغَسَّاقًا (٢٥) ← جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦)
  - إِنَّهُمْ
    - كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧)
    - وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) ← فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)
- إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)
  - حَدَائِقَ
  - وَأَعْنَابًا (٣٢)
  - وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣)
  - وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤)
  - لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا
    - لَغْوًا
    - وَلَا كِذَّابًا (٣٥)
      - جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ
      - عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَّبِّ
        - السَّمَاوَاتِ
        - وَالْأَرْضِ
        - وَمَا بَيْنَهُمَا
        - الرَّحْمَٰنِ
        - لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧)

- يَوْمَ يَقُومُ
  - الرُّوحُ
  - وَالْمَلَائِكَةُ
    - صَفًّا
    - لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
      - أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ
      - وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ← فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)

فيما يلي، سنتابع فهم آيات هذا السياق بباقاته الثلاث:

١. وصف يوم الفصل (الآيات ٢٠-١٧)

لا ريب في إنّ يوم القيامة هو يوم الفصل بين الطاغين والمتّقين، وقد تمّ تعيينه في وقت سابق: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا﴾؛ وذلك يوم يُنفَخ في الصور، فيسرع الجميع إلى يوم الحساب أفواجًا أفواجًا: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾. المقصود من النفخ في الصور هنا هو النفخة الثانية، لأنّ النفخة الأولى تُـمِيت الجميع، ومع النفخة الثانية يخرج الجميع من القبور.

وعند نهاية العالم، تُفتَح السماوات وتظهر أبواب: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ والجبال التي كانت تحفظ توازن الأرض، تفقد توازنها يوم القيامة فتسير، وتصبح سرابًا: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾. ومجئ الأفعال الماضية في الآيتين الأخيرتين يشير إلى أنّ الأحداث المذكورة في هاتين الآيتين، تسبق النفخة الثانية ويوم الفصل، وتقع قبل وقوع يوم القيامة وعند نهاية العالم.

٢. وصف الطاغين في يوم الفصل(الآيات ٣٠-٢١)

بعد حلول «يوم الفصل»، تظهر جهنّم التي كانت للكافرين بالمرصاد: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا﴾، وهذا المكان هو مآب الطاغين: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ حيث يبقون فيها أجلًا طويلًا غير مسمًّى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾. ولا يذوقون هناك شرابًا ولا أيّ بارد: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ غير ماء مغليّ وقذر: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾. إنّ وجود هذا العقاب ليس بالأمر العجيب؛ بل إنّ هذا الجزاء متناسب وأعمالهم تمامًا: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾.

والباعث على تلك العقوبات أنّهم لم يكونوا يتوقّعون الحساب في ذلك اليوم: ﴿إنّهم كانوا لا يَرجونَ حِسابًا﴾ وكانوا يكذّبون القرآن والرسولﷺ بشدّة لأنّهما تناولا الآيات الإلهيّة المتعلّقة بالقيامة: ﴿وكَذَّبوا بِآياتِنا كِذّابًا﴾؛ في حين أنّنا أحصينا كلَّ عملٍ من أعمالهم مهما دقّ وصغر، وسجّلناه وأخرجناه في كتاب: ﴿وكُلُّ شَيءٍ أحصَيناهُ كِتابًا﴾، إذن ذوقوا جزاء أعمالكم، فلن نزيدكم إلّا عذابًا فوق عذابكم، وهذا صدًي لأعمالكم: ﴿فذوقوا فلَن نَّزيدَكُم إلّا عَذابًا﴾. في الحقيقة تمثّل هذه الآية نتيجةً للآيات السابقة، حيث تبيّن أنّه إذا كنتم قبل ذلك لا ترجون الحساب، فلا ترجوا اليوم أن تتخلّصوا من العذاب يومًا، وتجدوا الراحة.

٣. وصف المتّقين في يوم الفصل (الآيات ٣١-٣٩)

مقابل هذا الفريق، فريق المتّقين الذين سينالون الفوز والسعادة: ﴿إنَّ لِلمُتَّقينَ مَفازًا﴾ وإنّ لهم بساتينَ مسيَّجة وكرومًا: ﴿حَدائِقَ و أعنابًا﴾، ولهم زوجات حديثات السنّ، نواهد مستوِيات في سنّ واحدة: ﴿وكَواعِبَ أترابًا﴾، ولهم كأس مترعة طافحة خمرًا: ﴿وكَأسًا دِهاقًا﴾، وبالطبع فإنّ خمر الجنّة ليس كالخمرة الدنيويّة الرديئة؛ لا يُسمَع في الجنّة قولٌ يعقبه سوء ومكروه، وتبادل التكذيب: ﴿لا يَسمَعونَ فيها لَغوًا و لا كِذّابًا﴾. إنّ إعطاء المتّقين مثل هذه العطايا يمثّل جزاءًا وعطاءًا كثيرًا كافيًا لهم: ﴿جَزاءً مِّن رَّبِّكَ عَطاءً حِسابًا﴾.

والمقصود من ﴿رَبِّكَ﴾ في الآية السابقة، هو ربوبيّة الله العامّة، فهو: ﴿رَبِّ السَّماواتِ و الأرضِ و ما بَينَهُما﴾ ورحمته أيضًا عامّة مثل ربوبيّته تشمل الجميع، لذلك من المحظور النقاش والخلاف على أفعاله، فلا أحدَ يملك منه خطابًا؛ وهذا يعني أنّه لا أحدَ يسأله عمّا

يفعل: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾. إنّ عدم امتلاك الخطاب والعجز عن الكلام يحدثان في يومٍ يصطفّ فيه الملائكة والروح[1] جميعًا ينتظرون أمر الله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾. وفي ذلك اليوم: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾. ذلك اليوم الذي أسماه آنفًا «يوم الفصل»، يسمَّى «اليوم الحقّ»؛ والحقّ يعني أنّه سيتحقّق بالتأكيد، فمن شاء استطاع أن يجد إلى ربّه مرجعًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ لينال بذلك ثواب المتّقين، وينجوَ من عذاب الطاغين.

والسياق الثالث يبدأ بوصف يوم القيامة، وبعد ذلك يصف فريقين يقع بينهما الفصل يومذاك: بدايةً يصف جهنّم بأنّها مآب الطاغين، ويذكر جانبًا من عذابهم فيها معلِّلًا دخولهم النار. ثمّ يتناول النقطة المقابلة لهؤلاء الطغاة، وهم المتّقون المصدّقون بالقيامة، ويعدّد بعض النّعم التي يتمتّعون بها في الجنّة. في نهاية السياق يشير إلى أنّ «اليوم الحقّ» نفس «يوم الفصل»، وكلّ من يريد، يستطيع العودة إلى بارئه. في النتيجة يبيّن هذا السياق وصف يوم الفصل، وعاقبة الطاغين والمتّقين في ذلك اليوم.

السياق الرابع

إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

---

١. المراد بالروح هو روح الكاملين من البشر الذين يؤيّدهم روح القدس (جبريل عليه السلام والأفضل من جبريل عليه السلام) أو مطلق الملائكة، ويستطيعون الاتّصال بعالم الغيب. ثمرة ذلك أيضًا فهم ونور خاصّ، مثل ارتباط سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله والسيّدة سارة عليها السلام والسيّدة مريم عليها السلام والسيّدة الزهراء عليها السلام مع الملائكة. هذا الأمر الهامّ يمكن أن يكون نصيب جميع المؤمنين، وهذا غير الوحي الرساليّ.

الخطوة الأولى: دراسة لغويّة

أَنذَرۡنَٰكُمۡ: أخفناكم

الخطوة الثانية: فهم بناء الآيات

لا علاقة للآية الوحيدة في هذا السياق بالآيات السابقة.

الخطوة الثالثة: فهم المنحى الإرشاديّ للآيات

تحذير الغافلين عن يوم الفصل (الآية ٤٠)

إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ ــ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ
وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾

خاتمة السورة تنتقل من أجواء القيامة إلى أجواء الدنيا، ويحذّر من ذلك اليوم، قائلًا بأنّنا حذّرناكم من عذاب قريب (عذاب مؤكّد، وحقّ، وآتٍ)؛ اليومَ الذي ينتظر فيه كلّ امرئ جزاء ما عمله من خير أو اكتسبه من إثم، وفي هذه الأثناء يقول الكافر: يا ليتني كنت ترابًا فاقدًا للعقل والإرادة فلم يكن يُراد منّي عملٌ، ولم أكن ألقى جزاءًا: ﴿إِنَّا أَنذَرنا كُم عَذابًا قَرِيبًا يَومَ يَنظُرُ المَرءُ ما قَدَّمَتۡ يَداهُ وَيَقولُ الكافِرُ يالَيتَني كُنتُ تُرابا﴾.

السياق الأخير أيضًا يحذّر جميع الناس في الدنيا؛ لئلّا يقعوا جرّاء الغفلة عن يوم الفصل في عذاب ذلك اليوم؛ عذاب تكون حسرته كبرى.

النتيجة

لقد نزلت سورة النبأ المباركة في أربعة سياقات، لتدحض أجواء إنكار المعاد، وتُثبِتَ حقّانية يوم القيامة، وتحذّرَ الغافلين عن يوم الفصل وتدفعَهم إلى إصلاح أعمالهم في الدنيا؛ نظرًا إلى أنّ السورة تخبرنا في البداية عن العلم بوقوع القيامة، وتذكّر المنكرين بأنّه لا ضرورةَ في مقام إنكار المعاد أن يتساءلوا ويختلفوا؛ لأنّ الحقيقة ستظهر قريبًا وسيعرفونها. وبما أنّ آيات السياق الثاني أيضًا تشير إلى أنّ تدبير النظام العالميّ القائم هادف، وعلى أساس الفهم السياقيّ، ومسار الحديث في الآيات السابقة واللاحقة، تمّ إثبات وجود القيامة ونظام الآخرة بوصفهما هدف الدنيا. وفي السياق الثالث أيضًا تُوصَف القيامة بأنّها يوم الفصل؛ يوم فصل الطاغين عن المتّقين ليُثبِتَ حقّانية القيامة ويزيد المعرفة بها. في السياق الأخير وتنبيهًا من الغفلة، تحذّر الآية الناس من أن يأخذوا الحيطة والحذر لئلّا يصبحوا من فريق يتمنّون أن يتحوّلوا في ذلك اليوم إلى ترابٍ. لذلك وعلى حسب السياقات الأربعة المذكورة، ونظرًا إلى الرؤية الإنذاريّة في أرجاء السورة، فإنّ المنحى الإرشاديّ للسورة هو: «**إثبات يوم الفصل (المعاد)، وتحذير الغافلين عنه**».

إثبات يوم الفصل (المعاد)، وتحذير الغافلين عنه

السياق الأوّل

الإعلان عن حتميّة وقوع القيامة

السياق الثاني

تدبير الله الحكيم للنظام القائم
أفضل دليلٍ على إمكانيّة وقوع المعاد

السياق الثالث

وصف يوم الفصل، وبيان عاقبة
الفريقين: الطاغين، والمتّقين

السياق الرابع

تحذير الغافلين عن يوم الفصل